العلّامة السيد محمد بحر العلوم رحمه الله

دين ووطن

بسم الله الرحمن الرحیم

مسيرة العطاء

(٤)

العلّامة السيد محمد بحر العلوم رحمه الله

دين ووطن

شهادات لشخصيات فكرية وسياسية
عاصرت مسيرة الفقيد الكبير، وقد شكلت هذه الشهادات
المادة الأساس للفيلم الوثائقي
(بحر العلوم دين ووطن)
الذي تم إنتاجه بمناسبة مرور
الذكرى السنوية الأولى على رحيله في نيسان ٢٠١٦

تحرير وتقديم
توفيق التميمي

العارف للمطبوعات

العلّامة السيد محمد بحر العلوم ﵀ دين ووطن

تحرير وتقديم: توفيق التميمي

الطبعة الأولى: بيروت 2017
القياس: 17 × 24
عدد الصفحات: 232
ISBN 978-614-441-095-0

برعاية ودعم مؤسسة بحر العلوم الخيرية
مركز النجف للثقافة والبحوث

العنوان: معهد العلمين للدراسات العليا ـ شارع الكوفة ـ النجف الأشرف ـ العراق
العنوان البريدي: ص.ب. 109 النجف الأشرف
هاتف: 7803004567 (00964)
البريد الإلكتروني: nccr@bahar.iq
الموقع الإلكتروني: www.bahar.iq

نشر وتوزيع
شركة العارف للأعمال ش.م.م

بيروت ـ لبنان 00961 70 839503
العراق ـ النجف الأشرف 00964 7801327828
Website: www.alaref.net

© جميع حقوق النشر محفوظة للمؤلف، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطّي من المؤلف.

© All rights reserved. No part of this book may be reproduced, or transmitted in any from or by any means, electronic or mechanical, including photocopyings, recording or by an information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher.

● هامّ جدّاً: إن جميع الآراء الواردة في الكتاب تعبّر عن رأي كتّابها ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر...

هاتف الحزن بالمصيبة ردد

والغري ارتدى الحداد وأنشد

يا أخا المجد لن تموت وأرخ

سوف تبقى مخلدا يا محمد

١٤٣٦ هـ

الشيخ إبراهيم النصيراوي

رحلة في فيلم وثائقي

عندما يوثق القرطاس
ما يفوت الكاميرا من جواهر الكلام

جامع السيرة ومحررها: توفيق التميمي(*)

لم تكن مجرد رحلة في إنجاز فيلم وثائقي لسيرة عمامة ارتبطت بتاريخ العراق واوجاعه وتطلعاته في الحرية والكرامة، ولم تكن مجرد ذكريات عمل في يوميات مألوفة وعابرة فرضتها متطلبات إنجاز فيلم وثائقي كُلفت بإعداد سيناريو له وإجراء مقابلاته لينتهي الأمر عند هذا الحد، بل انها ذكريات عن فيلم وثائقي يؤرخ لمحطات حياة وسفر العلامة محمد بحر العلوم، تبدو قصته لا تشابهها قصة من مشاريع وثائقية أخرى مشابهة أنجزتها سابقاً، بل كانت تلك الأيام والشهور التي قضيتها في إنجاز وتمام مراحل الفيلم مطرزة في صفحات ذاكرتي وذاكرة فريق العمل بأجمل اللحظات وأخصبها، ابتدأت في لقاءاتنا مع شخصيات معرفية وأكاديمية ودينية عراقية وعربية قد لا يجود الزمان بلقائها مرة أخرى، فكانت تلك اللقاءات ومشاعر الحب هي من أجمل ما سجلته ذاكرتي في خزائنها حتى أصبح ليوميات فيلم (بحر العلوم.. دين ووطن) ارشيف من الصور الفوتوغرافية واليوميات، لكل صورة عطر ذكرى ومتعة حكاية، ما يستحق ان يكون فيلما بذاته، لأن الرحلة في هذا الفيلم انتهت بكشف باهر لواحدة من أبرز الشخصيات العلمائية الدينية التي شهدها القرن

العشرين في العراق، فكان العناء في الرحلة وجمال متعتها هي أن تقوم بتجميع لأجزاء صورة لا تتكامل إلا وتظهر معها معاني الاعتدال والتسامح والوسطية والتحرر من أسيجة وسجون الوراثة نحو رحاب آفاق إنسانية، وهذا يندر أن يحصل لسيرة عمامة مهما بلغت من حدود تمردها ومشاكستها لبيئاتها المحافظة وأوساطها التقليدية.

علاقة حب قديمة

قبل الشروع في كتابة النص وقبل الانطلاق بمراحل العمل كان عليّ أن أتجرد من تأثيرات علاقة حب سابقة ربطتني مع اسم العلامة محمد بحر العلوم ومايثيره اسمه في الوجدان من تعاطف وحضور إنساني، تمتد هذه العلاقة لسنوات مراهقتي وبداية تفتح أوراق وعيي الغض وشغفي في البحث عن وهج الحقيقة في دروبها الشائكة، علاقة حب ربما كان قد نسجها السيد بحر العلوم وورط بها شباب آخرين في عمري أيضاً، خلاصتها نهجه وأسلوبه من خلال مؤلفات له قرأتها زمن مراهقتنا نجحت لحد بعيد في تحبيب الإيمان لنا وزينت طريق الإسلام أمام عقولنا الغضة كما عرفه هو وفهمه بنباهته وحسه الإنساني.. إسلام يحتوي معاني الرحمة أكثر من معاني الرجز والقسوة، ويحمل من معاني الرأفة والإنسانية أكثر مما يحمل من معاني الانغلاق والتطرف، ويرمز إلى معاني الثورة وعدم الاستكانة للظلم مهما كان صوره ومهما كانت قسوته أكثر من إسلام يهادن الظالمين ويخضع لابتزازاتهم، قدم ذلك في سلسلة مؤلفات مبسطة في تعبيرها عميقة في مراميها بكتيبات ما زالت ألوان اغلفتها الخارجية الزاهية تبرق في ذاكرتي رغم تعاقب السنوات والمحن يتصدرها كتابيه الرائعين (بين يدي الرسول الأعظم محمد(ص)) و(من مدرسة الإمام علي). كانت هذه القصة المبكرة تكفيني للاندفاع في مثل هذا المشروع ولكن بموضوعية الباحث وأمانة المؤرخ الموثق هذه المرة.

أرشيف مرئي حافل بالصوت والصورة

مما سهل إنجاز المشروع التوثيقي بالفترة الزمنية المقررة لإنجازه، هو أن السيد العلّامة محمد بحر العلوم أنجب أبناءً وأحفاداً بررة، أورثهم من شغف إيمانه وشقاء وعيه وولعه بالحداثة والتجديد الشيء الكثير، فوضع هؤلاء البررة كل ما يمتلكونه من أرشيف صوري ومرئي في خدمة نجاح الفيلم، ووجدت بأن هناك في أرشيفهم ما سيعينني للدلالة على معاني سيرته ومحطات بطولته ومبادراته الجريئة في كل فصل من فصول هذه السيرة، شاهداً ساطعاً ودليلًا قاطعاً على صورة تحكي مجده ومجد أسرته، أرشيفاً دامغاً بالصوت والصورة يروي قصة جهاد لم ينقطع وكفاح لن يخور وصبر لن ينفد، في محطات الغربة والشقاء والأحلام، ذلك الأرشيف وتلك الموائمة بين السيرة والإثبات المرئي ومعادلاته الصورية سهّل علينا تبليغ الرسالة الأخيرة وإيصالها لمتلقي يتشوق للاطلاع على سيرة استثنائية لنموذج رجل الدين الوسطي والمجدد الذي شحَّ مثاله وندر حضوره.

حيرة في اختيار الشهود

السيد بحر العلوم جامع المختلفين وملاذ المتخاصمين وأب التائهين الحائرين في ليل الفاشية المظلم البهيم، لهذا فكانت أولى العقبات فيمن سنختاره للشهادة عن فصول هذه السيرة وعن تلك التضحيات السخية وتلك المكابدات المخفية من قائمة طويلة من أسماء لشخصيات سياسية ومعرفية ودينية وأدبية يضيق بشهادتها القيمة الزمن البرقي لمقتضيات فيلم وثائقي.

عايشت العلّامة وتاثرت به في مقطع زمني من حياته، على أن تكون تلك الرواية والشهادة محكومة بمعايير الموضوعية ولا تتورط بالمجاملة ولا تجامل التاريخ، شهادة متأملة حكيمة، تستخرج القيم والمبادئ كما يستخرج الصياد الماهر اللؤلؤ من محاراته، لا شهادة منفعلة عابرة، شهادة تاريخية خالدة لا آنية ظرفية تتماهى مع لحظة فقده أو لوعة خسارته، فكيف تجد شهادة تشذ عن

شهادات أجمعت على جمال روحه وبياض قلبه لكي ترى صورة أخرى وزاوية مغايرة ثانية، فكانت تلك مهمة صعبة جداً وعقبة من الصعب تجاوزها بسبب عدم وجود خصوم للسيد العلّامة بين المختلفين سواءً في قطار المعارضة الذي ركبه لسنوات طويلة، أو قطار العلم والدين الذي ابتدأ مشواره في جمعية منتدى النشر، وكأنه في ذلك استثناء في مألوف الأشياء ومنطق الأمور، وهذا كشف آخر في حكاية الفيلم ويومياته، فرأينا ان السيد بحر العلوم طيلة ثمانين عاماً من عمره المكلل بالعطاء عجز عن ابتكار وصناعة خصوم له أو أعداء باستثناء عدواة الدكتاتورية واذنابها ومرتزقتها وخصوماتها معه التي لم تنته، فكان هو ذلك الاستثناء بين حلقات العلماء ورجال السياسة والفكر، بل بالعكس أظهرت محطات حياته انه في الأزمات الكبرى واشتداد الفتن وتنازع الأضداد كان يعمل العلّامة بحر العلوم جاهداً على أن يضع المسافة المتساوية من الجميع بلا استثناءات ليكون حكماً عادلًا يلجأ إلى حكمته المختصمون وملاذاً آمناً يلوذ بحنانه الخائفون، لا فرق عنده في هذا بين إسلامي وغيره، ولا فرق في ميزانه بين متدين أو ملحد، الجميع كانوا يشعرون بدفء أبوته وفيض كرمه ودفقه الإنساني.

فلا عجب أن ضمت قائمة المتحدثين والشهود ممن ظهر في هذا الفيلم من الشخصيات التي عاصرته أو شهدت على بعض فصول مسيرته أو تتلمذت على يديه أو تربت على مبادئ مؤلفاته، شيوعيين، إسلاميين، وزراء، كسبة بسطاء، فقراء، تلاميذ نجباء وأحفاد بررة، كلهم تسابقوا في شهادات يتقطر من حروفها عسل الوفاء وبر البنوة واللوعة لفقدان الرمز والمعلم والمثابة للطريق، شهادات تنبثق من بين كلماتها وبلاغة عبارتها ينابيع الامتنان وجمال العرفان، ولكن لم يمنع ذلك الإجماع على محبته لهؤلاء المختلفين في الرأي والعقيدة والانتماء من تنوع مناظيرهم وتعدد زوايا نظرهم بما أغنى السيرة الخصبة وأوضح معالمها البارزة والمخفية وعجّل بتبليغ رسالته الأخيرة المطلوبة، وفي

آخر المطاف تكاملت أمامي صورة السيد العلّامة بحر العلوم في محطاتها المتعددة وفصولها المتعاقبة.

ومما سيزيد من قناعة مشاهد هذا الفيلم الذي لم يعرف سيرة بحر العلوم ولم يطلع على خفايا مكابداته وسمو روحه، فإنه سيجد ذلك كله كامناً ليس في دفق المعلومات وأمانتها أو دقة الاستذكار وقصصه فحسب، بل متمثلًا في نبرات الصدق في أصوات الشهود وما بعد اللغة من أوجاع مخفية وأحزان مكتومة ولوعة مفضوحة ونحيب خفي لدى تلك الشخصيات لخسارة من العيار الثقيل لرمز غادر العالم وبلاده ومدينته في وقت هي بأمسِّ الحاجة لاعتداله ووسطيته وإشراق ابتسامته ورحابة صدره، أجمع هؤلاء الشهود على أن العلّامة بحر العلوم كان قوياً على الرغم من جسده النحيل وعلى الرغم من ترادف المحن والمصائب عليه، لأنه كان يواجه ذلك كله بما يحمله من أسرار وشفرة الأمل الذي كان يسكن روحه وقبسات النور الذي يسكن قلبه، هكذا كان ينتصر على أيام الشقاء وليالي الخيبات وفواجع المصائب والأحزان، وتلك ثيمة مهمة وخطيرة كان لا بد أن يظهرها السيناريو في الفيلم.

بُعد عقلاني

كانت قصة الحب التي نسجتها معه أيام مراهقتي قد تطورت مع تنامي مراحل الفيلم والوصول لنهاياته الأخيرة، والحب المراهق اتخذ الآن بعدا عقلانيا لشغفي بالذاكرة وعملي في التوثيق وفك التباسات الوهمي فيها عن الواقعي الحقيقي، ادركت باني خلال تتبعي لسيرة السيد العلّامة بحر العلوم في الكتب والشهادات الشفاهية بدأت أتحرر من سطوة العاطفة المراهقة القديمة، وأنسج ملامح صورة جديدة ومغايرة لا تتقاطع نهائياً مع الصورة القديمة في ذاكرة الفتى المراهق الذي كنته، بل تطورت الصورة مع تجلي ملامح النضج والعقلانية التي ظهرت في عيون الآخرين وشهاداتهم ومعايشتهم لصاحب الصورة وسيدها، والآخرون هنا علماء ومفكرون وفلاسفة وزعماء

أحزاب مختلفة، وهذا الاختلاف وذلك التنوع هو من أعطى لحب المراهق مصداقية الدخول في مغامرة الفيلم التوثيقي الذي يؤرخ لرحلة السيد في الحياة من المبتدأ للمنتهى دون أن يقع في فخ المغالاة أو مأزق المديح والثناء من دون إظهار ملامح السيرة كلها ببياضها وسوادها... بثباتها وتقلباتها... بأحزانها وأملها... بقوتها وانكساراتها فكان ذلك حقاً.

محنة العنوان

كانت محنتنا المشتركة أنا وزميلي المخرج كيف نختزل صورة بحر العلوم التي تجمع الأضداد في قلب رحيم واحد، وتتنوع في مواقفها حيال الوقائع والأحداث الجسيمة؟، وكيف سننجح باقتفاء أثر هذا التنوع والخصب والحياة الحافلة ونقدمها للمتفرج بزمن محدود بالدقائق وليس بالساعات؟، فتراها تارة موجاً صاخباً في بحر الجهاد ضد الدكتاتورية الظالمة وتراه تارة أخرى متقمصاً رقة الطفل وشفافية العاشق وروح الشاعر بحضرة الجمال والمراة والفقراء والمستضعفين من أبناء شعبه، ومرة تراه يمتطي صهوة جياد الحلم لبلوغ وطن جديد يرقص على أجنحة الريح وعطر الفراشات عقب فصول من الجحيم وكابوس الموت وصفحات الحروب وضحاياها. وحتى لو أكملنا هذه المهمة وأنجزناها وتمكنا من احتواء ما نستطيع من لملمة الجواهر المتساقطة من حقائب سيرته الخصبة ومحطاته المتعددة، فكيف سنختصر ذلك في عنوان يوجز السيرة ويلخص فصولها ويعطي مفتاحا للرائي لها يدخل دهاليزها المغلقة ويستمتع بأفياء أشجارها الظليلة.

هل يصلح العنوان أن يكون (عمامة الوجع) أو نستبدله بـ(سفير الوجع العراقي) كما اتفقنا أنا وزميلي المخرج عليه، وهو حقاً قام بأداء هذا الدور خير قيام وفي أحلك الظروف والتحديات، كما أن العنوانين كانا ينسجما لحد ما مع مقطع عريض من سيرته خلال فترة المعارضة خارج العراق، لكن اعتراضاً واجهناه من قِبَل نجله الأكبر ورفيق حياته وشاهد أسفاره د. إبراهيم

بحر العلوم، وكان اعتراضاً وجيهاً وملاحظة جديرة بالاعتبار ومفاد الاعتراض: كيف يمكن اختصار حياة السيد بصفحة الوجع وسفارته، وله في حياة المعرفة والحب والأشعار صولات وجولات، فأعطيناه الحرية ليمنحنا عنواناً يحسم كل الملاحظات ويفي بتعاقب فصول السيرة ومراميها، فكان العنوان الأخير هو (العلّامة بحر العلوم دين ووطن).. حلًا لمحنتنا وجواباً شافياً لاختزال السيرة الخصبة.

كنت أشعر بأن الحلول التي تأتي للمسائل الشائكة وتذلل العقبات البارزة في مواصلة محطات الفيلم تنتهي وتتلاشى بسرعة بمفعول فيوضات روح السيد التي تمطر علينا مطراً من رحمته وأنساماً من مودته، وكأنها استمرار وتواصل لعادة من العرفان ارتبطت به لمن يقدم له خدمة ولو ضئيلة أو وفاء ولو يسير، فكنا نحن فريق العمل من حظي بفيوضات هذه الروح التي لم تفارقنا منذ الخطوة الأولى حتى لحظة عرض الفيلم الأولى في إحدى قاعات معهده الذي أرساه ودشن حجره الأول معهد العلمين للدراسات العليا في الليلة المباركة التي صادفت ذكرى رحيله الأول عن عالمنا.

أمة بأكملها

ما يحرر فيلمنا الوثائقي من ذاتيته وخصوصيته المرتبطة بسيرة واحد من البشر، ويجعل لمشاهدته قيمة موضوعية تذكر في مختلف الأزمنة والأمكنة، هي أن السيد بحر العلوم اكتسب استقلاليته الفردية المشرفة من الأحزاب المختلفة منذ لحظة خروجه حياً من جحيم البلاد وكابوس الملاحقة، استقلالية اختارها بمحض إرادته ساعدته وأهّلته ليكون سفيراً لوجع شعبه ورسولًا أميناً في المحافل العربية والدولية لمكابدات أبناء أمته، ولم تمنعه استقلاليته في الموقف والجهاد من مسؤوليته في قيادة العمل الجهادي لإسقاط النظام الفاشي ما وسع إلى ذلك سبيلًا، وجميع الشهادات الواردة في هذا الفيلم وفيما يخص هذا المعنى أجمعت على قدرته العجائبية على أن يحتضن الجميع بأبوّة

خالصة وينظر الجميع له بصفته إسلامياً ينفتح بمرونة على العلمانيين، فكان عمامة تضمر بين جوانحها رقة الشاعر وحلم العاشق وحكمة السنين وإعصار الثائر وصبره وقوة احتماله.

ومضة في عام كامل

رحلة الفيلم ومدة إنجازه استغرقت بالزمن العادي عام كامل، ولكنه كان في عمر الجمال ومضة عابرة من الحلم في حياة قديس من هذا الزمان، بعدما تجلى الجمال بأبهى صوره والحكمة بأنقى ينابيعها في صورة معشوقي الذي عشقته يوم مراهقتي وأنا أراوغ الليل بكلماته المحظورة آنذاك، وبعد أن أوشكت رحلة الفيلم على النهاية لم يسعني ومعي فريق العمل مخرجاً ومصوراً ومعلقاً إلا أن نحسده ونغبطه في قبره لتلك المكانة الجليلة والمحبة الكبيرة التي يحتلها في قلوب هؤلاء الذين قابلناهم وسجلنا شهاداتهم، وقضينا أياماً وشهوراً لتعقب ذكرياتهم وما سجلته ذاكرتهم من مواقف وكلمات ووصايا كانت لحمة للفيلم وسداة له، لهذا أضافت لي هذه الرحلة مزيداً من القناعة بأن المضي في مشروع نبيل سيضاف لسجلي في توثيق الشخصيات والرموز العراقية إضافة مهمة ومفصلية ومعي هذه المرة فريق عمل مجهول كان يشاركني متعة الرحلات والتنقلات كما يشاطرني متعة الاكتشاف لمحبة خالصة صنعها السيد بحر العلوم في قلوب هؤلاء المختلفين الذين التقيناهم بالقناعات والأفكار والمرجعيات، وكأننا بغيابه سنظل نفتقد هذا النموذج الوسطي الذي يتمكن بسحر عبقريته وعمق حكمته أن يجمع المختلفين ويجذب المتناقضين في قلب واحد وخارطة وطن واحد، ذلك المناضل العنيد وذلك الثوري المجاهد الذي آمن أن كراسي العلم أبقى من كراسي السلطة المتحولة، وان صناعة الكراهيات والأحقاد والتطرف لا تصنع سوى مزيج من الأسيجة والموانع التي تحول دون بلوغ ضفاف أحلامنا وتحقيقها في وطن حر وشعب كريم، هذا هو

السيد وتلك الشهادات التي تنطق بحبر الوفاء وصدق التعبير وفجيعة اللوعة والفقدان.

فيوضات روح العلّامة

لم أشعر كما صديقي ورفيقي بالرحلة المخرج طالب السيد بأننا أمام مسؤولية ثقيلة لا بد من الانقضاء أو التحرر منها بسرعة، بل بالعكس كانت مسراتها تصنع لنا سعادة نحن في أشد الحاجة إليها وسط يوميات قاتمة من ظلال الكآبة والأحزان، كانت ينابيع تلك السعادة التي غمرتنا طيلة رحلة الفيلم وهيمنت على ذكرياته نستقيها من فيوضات روح السيد الربانية التي كنا نشعر بتدفقها علينا من أنفاس روحه التي تنهمر علينا، ويظهر أثرها جلياً في تيسير المهمة ومتعة لحظاتها في كل خطوة وإنجاز مقابلة أو الخلاص من وحدة فنية والتهيؤ لوحدة أخرى، وكأن روحه السمحة كانت ترافقنا في كل لحظة وخطوة وهي تقدم الامتنان والشكر، كما استقبلنا ببشاشة الوجه وعمق الترحاب في منزله ذات ليلة نجفية مباركة، كأنما روحه كانت تحرس عملنا في توثيق محطات حياته وتسجيل شهادات عبر من عايشه في هذه الرحلة وإدراك أسرار قوة هذه الشخصية وإعجازها وقدراتها في احتواء الآخرين واستيعابهم ومحبتهم.

سيرة شعب وتاريخ وطن

في رحلة الكشف الجميلة هذه اكتشفت بأن تسجيل سيرة العلّامة بحر العلوم هي ليس رسم لنموذج مثالي من الصعب تكراره أو نموذج يصالح العمامة مع زمنها وحداثته ومع خصومها فقط، بل هو قراءة لصفحات مهمة وغير مقروءة من قبل في تاريخ العراق الحديث بكل تحولاته ومحطاته المفصلية، فمن بركات روح العلّامة بحر العلوم التي رافقتنا أن رسالة السيرة وصاحبها أضفت شيئاً من الجرأة والشجاعة في روح الشهود وعدم المبالاة بالنتائج التي

تترتب على صراحة الحديث وصدق الشهادة حيث سيطر عليهم شعور بالشجاعة وهم في حضرة التاريخ وذمته فظهر في شهادتهم كشف المخفي من صفحات سيرة المعارضة العراقية وصفحاتها المطوية بالأسرار والوقائع العجيبة، حفزتهم لوعة غيابه على البوح بها وعدم التأجيل في بثها وإعلانها، وكأنما كانت مناسبة رحيله فرصة لهؤلاء لاستعادة تاريخ لم يدوَّن وأسرار لم تكشف، ستكون للتاريخ رصيداً وللعراق مرجعاً، وللمعارضين في العالم درساً واعتباراً، وذلك كانت ببركة ورحمة من بركات السيد وروحه البيضاء الصالحة المؤمنة.

دورة حياة العالم

في حياته كما في موته اكتملت دورة العالم وعاشق الكتاب وكراسي العلم من منتدى النشر في النجف الأشرف في شبابه حتى تأسيسه لمعهد العلمين للدراسات العليا في شيخوخته والذي ضمه ثراه حسب وصيته، ليبقى يسمع ويصغي لأناشيد العلم والمعرفة التي صاغت منه هذا النموذج الاستثنائي والفريد الذي حظى ونال شرف الاحترام والإعجاب من الجميع.

دورة حياة سيظل كلما صادف أن شاهدها واحد من الجيل الجديد يتشوق لأسرار قوته وبسالة صموده وجمال صبره مع أسرار هذه المحبة التي يحظى بها والآلام التي كابدها بسبب قسوة الاتهامات وظلم الافتراءات من ذوي القربى ورفاق الدرب بما لا يحتمله جسده الضئيل وصحته المنهكة وقلبه الأخضر الرقيق، لكنه جابه ذلك كله بحلم العارف وصبر الثائر وأغمض عينيه ووجهه يشرق بابتسامة الأمل لصناعة عراق آخر سيطوي صفحات هزائمه وسواد حكامه وسخام أيامهم وفصول خيباته ويبقى وطنه ذلك الذي حلم به بحر العلوم طيلة سنوات الصبر العجاف وطن معافى من الصدمات والنكبات تسوره البساتين وعافية الأمان وتصنع مستقبله أناشيد الصغار.

ما بين الفيلم والكتاب

كثير من محبي السيد بحر العلوم وعشاق سيرته والمتأثرين بمواقفه الجريئة ومبادآته الجسورة، ممن عايشه وظل عالقاً في ذاكرته موقفاً صلباً ينسب له أو رأياً جسور أبداه أو لمسة إنسانية تتدفق بالحب والرقة ظهرت منه، ومنهم من عرفه بحكايات الآخرين أو مؤلفات قرأها له أو حكاية نقلت عنه فيها إيثار وتضحية وآيات من الحب والرقة، يأخذ على الفيلم الوثائقي الخاص بسيرته بعد مشاهدته إغفاله بعضاً من هذه المواقف وشذرات من تلك اللفتات الإنسانية، وهنا يظهر الفرق بين الصورة المرئية ومتطلباتها، وبين الكلمة المكتوبة في ميدان التوثيق والذاكرة وآفاقها الرحبة وحريتها المترامية، وتظهر الهوة بين متطلباتهما وأدواتهما، فحرية الاسترسال والإفاضة والتوغل في مساحات شاسعة من السيرة وملامحها الجوانية لا يمكن أن يستوعبها زمن عرض فيلم وثائقي محدود مهنياً ومحكوم بمدى زمني لا يتجاوز الساعة في حسابات الوقت، وأمامنا رسالة موجزة ل ابد من إيصالها إلى جمهور عريض وغير مرئي لا يعد ولا يحصى حسابه، رسالة مفادها اختصار كل هذه المثابات من القيم والمبادئ والمواقف في سيرة حياتية مرئية عمرها ثمانون عقداً من السنين.

الحل في الكتاب

هنا وبإصرار من نجله الدكتور إبراهيم بحر العلوم ولكي لا تضيع كامل الشهادات القيّمة والخطيرة لمن ظهر بالفيلم من شخصيات علمائية وأكاديمية وسياسية ممن رافق السيد وعايشه في مقطع زمني هنا أو هناك، بين الوطن والمنفى، بين ساحات العلم وميادين الجهاد والكفاح، بين مؤتمرات المعارضة ودهاليز السياسة، وحتى لا تهدر قيمتها التوثيقية والمعرفية، وغنى تنوعها في زواياها المتعددة وخصب تأصيلاتها العميقة، مما تعجز الصورة والفيلم عن استيعابه ويضيق زمن الفيلم باسترجاعه أو تاصيله، فضلًا عن القيمة التوثيقية

والأرشيفية لكتاب مطبوع يمكن أن يكون مرجعاً في كل زمان ومكان ليس للباحثين في حياة السيد بحر العلوم وسيرته فقط على الرغم من خصبها وغناها، بل مرجعاً في البحث عن الرمزية الدينية في الوسطية والاعتدال، والقراءة التاريخية عراقياً لمقاطع زمنية أثر فيها السيد بحر العلوم وتأثر بها، مقاطع غنية بالأحداث وصاخبة بالقصص ومفصلية في تاريخ العراق والاعتبار من وقائعه وأحداثه، فكان لزاماً جمع كل هذه الشهادات بمشروع توثيقي آخر يوازي مشروع الفيلم ويكمل خطواته وغايته، ويجمع في سلاله لجمهور القراء ما فات الفيلم في عرضه. فكان ذلك المشروع بتوثيق كامل الشهادات بكل التماعاتها الوجدانية ودفقها الإنساني وجزالة بلاغتها وصدق بوحها، ربما يعجز التوثيق عن اقتفاء أثر الانفعال الصادق والحميمية الصميمة في طيات الكلام وبواطن اللغة ونبرات الوجع والوجد في نبرات الصوت وإيقاعه، لكنها لا يمكن أن تخفي موضوعية الشهادات ودقتها لأنها جاءت خارجة من إطار الانفعال أو التأثر الآني أو التحسر العاطفي أو بلاغة الرثاء الرتيب، نحو تأصيل معرفي وتنظير فلسفي في أخطر حقلين من حقول الحياة وهما الحقل الديني والسياسي، فوجدت شخصياً في هذه الشهادات وإعادة تحريرها متعة تفوق متعة الفيلم نفسه وذكرياتنا فيه، وجدت أقلاماً سيّالة وأفكاراً رصينة في تأصيل محطات العلّامة بحر العلوم في المجال الفلسفي والمجال السياسي، وهنا تكمن قيمة هذا المشروع التوثيقي بما يعجز عنه فيلم لا يتجاوز في مدة عرضه الساعة الواحدة لا يمكنها فيه من تعقب سيرة بثمانين عقداً من الكفاح والتأليف ومكابدات الغربة ومشاقها ودهاليز المعارضة والطريق لبلوغ الحلم الأخير بإسقاط الدكتاتورية وأصنامها الصغيرة ومن ثم ختام الرسالة بمعهد للعلم يومئ للباحثين عن الحق ويشير لعائلة امتهنت العلم والجهاد من الأسلاف إلى الأبناء والأحفاد.

ختاماً جزى الله صاحب السيرة وسيد فيلمها الوثائقي العلّامة المجاهد محمد بحر العلوم خير الجزاء وأوفر العطاء، لإخلاصه في إيمانه وصدقه في

عبادته وبياض سيرته في مواجهته للظالمين والمارقين، وما قدمه هو مع أسرته من قرابين لحرية شعبه وخلاصه من كابوس الدكتاتورية الغاشم، ولهذا وفقه الله ان يختم فصول حياته قريباً من الأرض التي أورثته هذا الحب وتلك البسالة في مواجهة المخاطر والمحن والموت، ووسط معهد للعلم والمعرفة وفقاهة الدين وأحكامه وعلى عتبات هذا المعهد استراح السيد وأغمض عينيه عن عالمنا وذهب لرب رحيم كان له نعم العبد الصالح، وكأنما في مشهد القبر يريد أن يكمل دورة حياته التي بدأها في ريعان شبابه من منتدى النشر، فكان ذلك هو الدرس الأخير والخطير في حياة هذا العلّامة رمز الاعتدال والوسطية والتنوير السيد محمد بحر العلوم الذي قد يكون أوفته هذه الشهادات الكاملة بعض من حقه واستحقاقه وقصر عن بلوغها فيلم بوقت محدود ومتطلبات فنية صارمة.

توفيق التميمي في سطور

* الولادة: البصرة ١٩٦٢/١٢/١
* بكلوريس رعلام صحافة/ جامعة بغداد، ٢٠٠٤ - ٢٠٠٥
* بكلوريس علوم زراعية / جامعة بغداد ١٩٨٤ - ١٩٨٥
* رئيس تحرير مجلة الشبكة العراقية منذ ١٨ ت١ ٢٠١٤
* مدير صحف المحافظات التابعة لشبكة الإعلام العراقي منذ آذار ٢٠١٥ ولحد الآن
* معد ومقدم برنامج هذا أبي الوثائقي الذي تقدم فضائية الاتجاه منذ خمسة أعوام
* أعد وكتب السيناريو لأكثر من خمسة أفلام وثائقية عن شخصيات عراقية متنوعة
* الجوائز:

ـ الجائزة الأولى في الحوار الصحفي للملتقى الثقافي العراقي الأول لأمانة مجلس الوزراء لمسابقة الدولة ٢٠٠٥

ـ الجائزة الأولى لفئة الصحافة الثقافية للفنون الصحفية لجائزة بغداد للصحافة حزيران ٢٠١٣ الجائزة الأولى لمسابقة ناجي جواد الساعاتي في أدب الرحلات الدورة الأولى ٢٠١٠ (عن مخطوطة مقاربات الأمكنة)

* عضو عامل في نقابة الصحفيين العراقيين
* عضو اتحاد أدباء وكتاب العراق
* مؤلفات مطبوعة حسب التسلسل الزمني للإصدار:

١ ـ ذاكرة الرصيف /فصول غير مروية من تاريخ شارع المتنبي / دار العهد ٢٠١٠
٢ ـ شهادات عراقية /حوارات في ذاكرة عراقية / ج١ دار الحصاد دمشق ط ا ٢٠١١
٣ ـ شهادات عراقية /حوارات في ذاكرة عراقية / ج٢ دار تموز دمشق ط١ ٢٠١٢
٤ ـ من ذاكرة الغبان /محطات من حياة الأديب محمد جواد الغبان /المكتبة العلمية بغداد ط ٢٠١٤
٥ ـ الفريد سمعان قارع النواقيس دار الوفاق بغداد ٢٠١٤
٦ ـ المثقف في وعيه الشقي /حوارات في ذاكرة عبدالحسين شعبان /ط١ حزيران ٢٠١٤ دار بيسان بيروت /لبنان

السيد بحر العلوم عمامة منفتحة

شهادة سماحة السيد حسين الصّدر(*)

على خطى سلالة بحر العلوم والجهاد

العلّامة بحر العلوم سليل اعرق الُاسر العلمية التي عاشت في النجف وأعطت ثمارها لحركتها العلمية والوطنية، وسجل أبناؤها أنفسهم بحروف من نور في كتاب الخلود لشخصيات النجف وأعلامها، فالسادة آل بحر العلوم هم من أعرق الأُسر العلمية وأشهرها، ليس على الصعيد العراقي فحسب، بل على صعيد العالم العربي الكبير. فهم يحملون هذا اللقب الذي تلقّب به مرجعٌ عظيم من مراجع الشيعة الإمامية وعَلَمٌ كبير من أعلام الفقاهة والتقى في العالم الإسلامي، وهو المرحوم المقدّس السيد مهدي بحر العلوم، صاحب المكانة الرفيعة والمواقف المعلومة. وتميزت هذه الأسرة بكونها أنتجت رعيلًا من الفقهاء والعلماء والأدباء وكان السيد العلّامة محمد بحر العلوم حلقة في هذه السلسلة الذهبية المعطاء.

قافلة من العلماء والثوار

هناك أُسر تملك عالماً واحداً قد ينبغ وقد يشتهر في فقهه أو شعره أو أدبه أو طبه، أما أسرة بحر العلوم فهي غنية بالرموز من الفقهاء والعلماء والأدباء. أنا شخصياً عاصرت الكثير من هؤلاء؛ عاصرت المرحوم السيد محمّد تقي بحر العلوم، والمرحوم السيد موسى بحر العلوم، وعاصرت أشقّاء

السيد محمّد بحر العلوم الشهداء الابطال: السيد علاء الدين بحر العلوم والسيد عز الدين بحر العلوم، وكذلك السيد جعفر بحر العلوم، وهؤلاء الأشقاء الثلاثة استشهدوا ضمن من استشهد في قافلةٍ طويلة من هذه الأسرة الجليلة في مقارعتها البطولية ضد النظام الدكتاتوري الصدامي.

عمامة منفتحة

ان جاز توصيف عمامات رجال الدين وتصنيفها حسب سيرة اصحابها وما تركته تلك العمامات من بصمات على وجه التاريخ والزمن، فان افضل وصف يوجز ويكثف تاريخ عمامة العلّامة المجاهد محمد بحر العلوم السوداء: هو انها عمامة منفتحة، بمعنى أنها تجاوزت محيطها الحوزوي الضيق إلى فضاءات واسعة،حيث تجاوزت ذلك إلى الفضاء الاجتماعي، وإلى الفضاء السياسي، وإلى الفضاء الثقافي، وحينما تجاوزته نحو هذه الآفاق وتلك الدوائر الواسعة أصبحت لهذه العمامة شبكة علاقات طيبة ممتدّة واسعة، يكفي دليلا أن نشير إلى أنها في الجانب السياسي والمعروف ان السياسة حقل ملغوم بالمواقف الرجراجة والمتبدلة وحقل تحتدم فيها الاختلافات والتقاطعات، لكن عمامة بحر العلوم انفتحت على الطيف السياسي العراقي برمّته على الرغم من تناقضاته واختلاف ألوانه واحتدام رؤاه وتعدد وجهات نظره، وهذه ميزة استثنائية انفردت بها عمامته. وعندما أوصف عمامته بالانفتاح لأن هناك ما يقابلها من عمائم منغلقة تعيش وتموت في عالمها الخاص ودائرتها المغلقة لاتحاور ولا تبني جسورها، بينما عمامة السيد محمّد بحر العلوم (رحمه الله) لم تكن كذلك، ولذلك أُطلق عليها هذا الوصف: «عمامة منفتحة». هناك عمائم مناضلة ولكنها لم تمتلك هذه النزعة، نزعة الانفتاح على الطيف السياسي العراقي على امتداده. هذه العمامةُ عمامةٌ مناضلة منفتحة على القوى السياسية العراقية جميعها وهي ميزة لعمامته وليس لسواها من العمامات.

منتدى النشر وجمعية الرابطة

من ميزات السيد العلّامة بحر العلوم انه طالب العلم الوحيد والأديب المتفرد الذي جمع في شبابه وذروة عطائه العلمي والأدبي ما بين انتسابه لجمعية منتدى النشر التي أرسى أساسها الأول المعلم والمصلح الشيخ محمد رضا المظفر وما بين الانتماء إلى جمعية الرابطة الأدبية، وهاتان المؤسستان عدّتا في طليعة المنظمات المدنية الثقافية خلال عقدي الخمسينيات والستينيات من القرن السابق، ليس في المشهد النجفي الأدبي والاكاديمي فحسب بل امدت العراق برموز الأدب والثقافة والاكاديميين، والسيد محمّد بحر العلوم كان فاعلًا في جمعية منتدى النشر وفاعلا في الوقت ذاته بالرابطة الأدبية،حتى أصبح رئيساً للرابطة بعد وفاة رئيسها السابق الخطيب الشيخ محمّد علي اليعقوبي.

وكان للسيد العلّامة بحر العلوم دورا تاريخيا في بقاء مصير جمعية الرابطة الأدبية وبقائها، فقد أنقذها من الضياع بعد وفاة عميدها الشيخ محمد اليعقوبي. فبدلًا من أن يلقى حبلها على غاربها ويدَعَها في مهبّ الرياح العاتية بحيث لا يُعلَم ماذا سيكون مصيرها، وادراكا منه للدور الخطير الذي تلعبه الجمعية في تنشيط الحياة الثقافية والابداعية في النجف ولكي لا تتبعثر جهود الاباء المؤسسين لهذه الجمعية، وفي وقت عصيب تصدى السيد محمّد بحر العلوم للإمساك بزمام الموقف وتولّى رئاستها. لم تكن المهمة هينة بالطبع فموقع الرئاسة للجمعية في تلك المرحلة كلّفه الكثير واستنزف الكثير من وقته الثمين الموزع بين مهمات مرجعية وأخرى ثقافية وأدبية، فمثلا عندما كان يقيم ندوةً في الرابطة ويدعو إليها ضيوفاً من خارج النجف، فإنّه كان يقوم باستضافتهم في منزله وعلى حسابه الخاص، لا على حساب الرابطة. أنا شخصياً من جملة مَن اختارهم ليكونوا من المحاضرين في إحدى الدورات الثقافية أثناء العطلة الصيفية التي أُقيمت في الرابطة الأدبية. ولذا فانا شاهد عيان على ما كان يبذله من جهد متميز في سبيل الارتقاء بالرابطة والحفاظ

على سمعتها التاريخية، وحينما خرج من العراق مضطرا ١٩٦٩ تسلم رئاسة الرابطة من بعده الشاعر الراحل الدكتور السيد مصطفى جمال الدين، وهكذا تمّ حفظ هذه المؤسسة من أن تصل إليها أيدٍ غير أمينة.

عيون السلطة ورقابتها

لم تكن الدولة العفلقية في أيام البعث تنظر بعين الارتياح إلى أي نشاطٍ خارج نطاق الاستراتيجية التي تقوم هي برسمها. المنظومة الفكرية للبعث لا تطيق وجود حزبٍ غير حزبها وفكرٍ غير فكرها وإعلامٍ غير إعلامها وقائدٍ غير قائدها الذي من المفروض والمطلوب ان يسبّح الجميع بحمده. وأيّ خروج عن هذه الاستراتيجية سيُنظَر إليه بعين الغضب، وسيتم تجميع النقاط ضدّه حتى إذا ما تراكمت تحضّروا للقضاء عليه. وبما ان الرابطة الأدبية في وقت رئاسة بحر العلوم لها في ذلك الوقت كانت تحظى برعاية السيد محسن الطباطبائي الحكيم واهتماماته، فلم تكن المنازلة في بقاء الجمعية وصمودها من الرقابة والاختراق سهلة في ظل رعاية المرجعية العليا لها. وحينما تأزم الموقف بين المرجعية العليا متمثّلة بالسيد الإمام الحكيم وبين النظام العفلقيّ البائد، اضطر السيد بحر العلوم إلى مغادرة العراق عام ١٩٦٩ أي قبل وفاة السيد الحكيم بسنة تقريباً.

الشيخ المعلم

كان واحد من أهم المؤثرات في صقل شخصية السيد محمد بحر العلوم وانفتاح عمامته ووسطيته المشهودة وشغفه بالتجديد، هو تاثير أستاذه ومعلمه في كلية الفقه الشيخ المصلح محمد رضا المظفر، وكما هو معلوم ان منتدى النشر كان ثمرة من ثمرات اصلاحات المعلم المظفر وجهوده، وكان بحر العلوم واحد من طلاب هذا المنتدى، حيث كان المرحوم الشيخ المظفّر قد ترك

بصماته القويةً في نفوس طلابه وتلاميذه. فإنك حين تلتقي الشيخ أحمد الوائلي أو السيد مصطفى جمال الدين أو السيد محمّد بحر العلوم، تجد أنهم في أحاديثهم العامة كثيراً ما يستهدون بأستاذهم وبمواقفه. التأثير الذي تركه في نفوسهم كان كبيراً للغاية، لأنه لم يكن عالماً فحسب بل كان مربياً وأخلاقياً كبيراً، وصاحب مشروعٍ نهضوي فكري هزّهم في الصميم، والسيد محمّد بحر العلوم هو واحد من أولئك الذين انشدّوا إلى الشيخ المظفّر وارتبطوا به عضوياً.

معتمد في مرجعية الحكيم

كان السيد بحر العلوم معتمدا امينا في مرجعية الإمام السيد محسن الحكيم الطباطبائي التي تميزت بطول فترتها المرجعية التي شغلت نهاية الخمسينات وكامل عقد الستينات - ربما كانت مرجعية الحكيم لم تكن واضحة في نزوعها نحو التجديد في الفقه والحداثة على غرار مشروع النهضة الفقهية والعلمية عند معلمه محمّد رضا المظفّر. ولكن بفضل الوسطية والاعتدال اللذان تميزا بهما بحر العلوم مبكرا فتمكن من التوّفيق بين المؤثرين (المظفر والمرجع الحكيم) وان يكون معتمَداً ناجحاً في خدمة هذه المرجعية ومحسوباً عليها وعلى بصماتها في تلك المرحلة التي تمخضت عن مشروع مكتبات الحكيم الذي امتد لابعد قرية نائية في العراق وكذلك المهرجانات الأدبية والفاعليات الثقافية التي كان يديرها وموضع فاعليتها هو السيد محمد بحر العلوم نفسه، وكسب خلال مرحلة قربه من مرجعية الحكيم صداقة وود نجله الإمام الشهيد مهدي الحكيم الذي رافقه في رحلة كفاحه الطويلة ضد الدكتاتورية حتى لحظة استشهاده على يد مرتزقة المخابرات العراقية في الخرطوم شتاء ١٩٨٧.

مرجعية الانجازات الباهرة

إنك حين تدرس تاريخ مرجعية من المرجعيات ينبغي أن تقارن هذه المرجعية بتلك الاحداث والظروف المعاصرة لها، ولا تقفز عقوداً من الزمن.

مرجعية السيد الحكيم بالقياس إلى المرجعيات التقليدية والكلاسيكية كانت مرجعيةً ذات إنجازاتٍ باهرة. مقارنة بسواه من المراجع والمرجعيات الذين عاصروه وسبقوه، حيث بادر إلى الاهتمام بتأسيس مكتبات عامة شملت انحاء العراق ومدنه وقصباته النائية تضع الكتاب بين يدي الباحثين والراغبين في المطالعة، هذه خطوة نوعية متقدّمة في تاريخ المرجعيات الدينية الشيعية.

المهمة الصعبة

السيد محمّد بحر العلوم رحمة الله عليه، كان واحداً من أبرز من يعتمد عليهم المرجع الأعلى الإمام السيد محسن الحكيم في القضايا الاجتماعية. السيد الحكيم كان له جهاز من المساعدين؛ فهناك من يساعدون في كتابة الأجوبة على الاستفتاءات التي تصدر عنه، وهذا جانب ديني وجانب شرعي وهذا دور يمكن اداؤه بدون اية مؤهلات أو مزايا استثنائية، وآخرون يعتمد عليهم في الجوانب الاجتماعية وحلّ المنازعات والمطالبة بما تراه المرجعية ضرورياً للإنجاز من قبل السلطات، هذا الدور بالذات كان مناطا بالمرحوم السيد محمّد بحر العلوم وهذا الدور الصعب اوكله الحكيم لبحر العلوم ادراكا منه لمقدراته وقابلياته في المرونة والوسطية والقدرة عل الحوار والمناورة في الاوقات الحرجة..

كاتب للشباب

واحدة من أهم بصمات العلّامة محمد بحر العلوم هو اعتكافه وتفرغه لتاليف سلسلة من الكتب المبسطة للشباب، وهي مستوحاة من سيرة الرسول (ص) الأعظم وسيرة أمير المؤمنين(ع) وتلاميذ مدرسته من الشهداء الافذاذ.

هذه في الحقيقة هي إحدى السمات التي تعرّفُنا بالهموم التي كانت تعتمل في نفسه. لأن همّه كان إيصال حقائق التاريخ للشباب بعيداً عن الشوائب والرواسب، وهذا الأمر له بُعد عقائدي ودعووي ونهضوي.

تهمة الجاسوسية ومغادرة العراق

تهمة الجاسوسية التي طالت السيد مهدي الحكيم من قبل سلطة البعث نكاية بموقف الحكيم المتصلب وعدم الرضا من حكومةالبعث وإجراءاتها التعسفية في تسفير العلماء وحملات الابادات والتصفيات في قصر النهاية، تبعه خروج السيد بحر العلوم من العراق بعد ذلك بأشهر قليلة.

إنّ اتهام العلّامة الشهيد السيد مهدي الحكيم بتلك التهمة الرخيصة لم يأتِ من فراغ. فحينما تحرّك الإمام السيد محسن الطباطبائي الحكيم من النجف ووصل الكاظمية وبدأت الوفود بالتقاطر معلنةً استعدادها للصدوع بما تأمر به المرجعية، أحسّ النظام الدكتاتوري المقبور بالخطر، فأقدَمَ على حماقة كبرى ليقطع عليه الطريق، وهي اتّهام السيد مهدي بالجاسوسية. لقد افتتح هذا الاتّهام مرحلةً لم يعرفها العراق من قبل، هي مرحلة المواجهة الساخنة بين المرجعية وبين السلطة.

السيد محمّد بحر العلوم كان أحد المحاور التي اعتمدتها المرجعية في تحركها الاجتماعي، فخروجه كان مبرراً واضطراريا. لأنّ الخيار الآخر المتبقّي كان أن يُلقى القبض عليه ويتعرض لتعذيبٍ شديد ويُجبَرَ على اعترافاتٍ لا تليق به ولا بالحوزة ولا بالمرجعية ولا بنا. فانطلق إلى خارج الوطن ليمارس من الخارج دوره النضالي، وقد رأى أن الحل الثاني هو الأفضل، وهذا ما حصل.

متفرغ للقضية العراقية

قضى بحر العلوم حياته بعد خروجه الاضطراري من العراق في عدة محطات من النفي والغربة، وكانت الكويت محطته الأولى ثم الجمهورية

الإسلامية ثم القاهرة ليستقر أخيراً في منفاه البريطاني، لا أستطيع أن أتحدث عن المرحلة التي قضاها السيد محمّد بحر العلوم في الكويت، لأن الجو في ذلك البلد آنذاك لم يكن يسمح لأيّ معارض عراقي بالعمل في نطاق المعارضة، ولذلك قضى السيد بحر العلوم تلك المدّة في الكويت منشغلًا بممارسة القضاء الجعفري. كما أنني لا أملك تفصيلاتٍ عن نشاطاته في إيران ولا أريد أن أخوض في أمور لا أعلم دقائقها. لكن الفترة التي أستطيع التحدّث عنها هي تلك التي قضيناها سويةً في الساحة البريطانية، وهي ليست بالقصيرة، فقد امتدّت إلى ما يقرب العشرين عاماً. عشرون عاماً تحفل بالأحداث والنشاطات والتحركات.

كان السيد بحر العلوم واحداً من أبرز العلماء الذين تفرّغوا للقضية العراقية. في تلك الفترة كان هو والشهيد العلّامة السيد مهدي الحكيم يعملان معاً، وواصل السيد بحر العلوم النضال بعد استشهاد السيد مهدي الحكيم، فحضر المؤتمرات وأقام الندوات والنشاطات والفاعليات، وأصبح يملك علاقاتٍ كبيرةً وطيبة مع الطيف السياسي العراقي على امتداده واختلافه. لا يمكن الحديث عن المعارضة العراقية في الساحة البريطانية مع إغفال الدور الكبير الذي قام به العلّامة الراحل السيد بحر العلوم.

عمامة في الكونغرس

بعد عام ١٩٩١ وفشل الانتفاضة الجماهيرية والانتهاكات التي تعرضت إليها من قبل سلطات وجلاوزة النظام الصدامي واتباعه لسياسة الأرض المحروقة لجغرافية الانتفاضة ومدنها العراقية،والاقدام على تصفيات المنتفضين في مقابر جماعية وابادات عشوائية، وسط تلك الاجواء قرر وفد سياسي عراقي معارض الذهاب لامريكا قاصدا الكونغرس الاميركي، وكان السيد بحر العلوم العمامة الوحيدة بين أشخاصٍ يمثّلون الطيف السياسي العراقي، فحدث بعد ذلك لغط حول دخول عمامة كعمامة بحر العلوم المرتبطة بتاريخ مقارعة

الدكتاتورية وعدم الخضوع لارادتها البوليسية والحديدية إلى الكونغرس الأمريكي، وربما كان السيد نفسه يعاني قبل ان يقرر الذهاب إلى تلك الرحلة ويضمر في دواخله الحسرة، وينقل عن احد مرافقيه في تلك الرحلة بانه همس في اذنه وهم في حضرة اولبرايت بالجملة التالية: أنه لو كان أسلافي من آل بحر العلوم يعلمون أنه سيأتي يوما أصافح فيه هذه السيدة الاميركية لما تمنى احد منهم ان اظهر للوجود اصلا، ولكن لم يكن هناك سبيل لإسقاط هذه الدكتاتورية إلا بهذه الخطوة وغيرها.

منظار واقعي

هناك من ينظر إلى الأعمال من خلال منظار تشكيكي، وهناك من ينظر إلى الأعمال من خلال منظار واقعي. أنا أعتقد أن السيد بحر العلوم انتهى إلى قناعةٍ هي أنّ إسقاط الدكتاتورية الحاكمة في العراق بحاجة إلى عمل جدي وحقيقي مع المحورين الإقليمي والدولي، وأنّ إسقاط هذا النظام لن يتم بجهد عراقي محض. انطلاقاً من هذه القناعة، لم يدّخر السيد وسعاً بالسفر إلى أي عاصمةٍ من عواصم الكرة الأرضية يمكن أن يكون سفره إليها مفيداً في هذا المجال. وأما ما تعرّض له من نقد ومن كلمات جارحة وقاسية - وقد سمعت الكثير منها - فإنّه يذكّرنا بحقيقة أنّ الطريق أمام أصحاب الأهداف الكبيرة والنبيلة ليس معبّداً.

الذين يحملون المشعل للدفاع عن القضايا العاجلة يصطدمون بالكثير من العقبات والمشكلات، وما أُثير من كلمات يدخل تحت هذا الفصل تحديداً.

ووفق نفس المبدأ من الايثار والتضحية وافق على أن يشارك بمجلس الحكم ما بعد سقوط صنم الدكتاتورية على الرغم من الشبهات حول تشكيله وطبيعة تركيبته لأنّه اعتبر أنّ هذا المجلس هو الصيغة الواقعية والطريق الاقرب لترتيب البلد بعد انهيار الدكتاتورية وان دوره دورا ابويا في لم شمل الأسرة العراقية في هذه المرحلة الحرجة.

معهد العلمين

بعد ادائه لدور ابوي في مجلس الحكم في عام ٢٠٠٣، ولأن طبعه لايميل للجاه السياسي ولايمكن ان تغويه بهرجة المناصب، عاد السيد إلى مدينة النجف التي وُلد فيها، وهناك أسّس معهد العَلَمَين للدراسات العليا وكأنه حضر لاكمال دورة حياة لعالم جليل بدات مشوارها من منتدى النشر وأنتهت في بيت عِلْمٍ وليس في بيت سلطة هو معهد العَلَمَين. ولا شك بأنّ الرجال الكبار يطمحون إلى أن تكون لهم مشاريع تأخذ مداها الواسع عبر الأجيال، في مقابل من يكتفي بإشباع الحاجات الآنيّة والرهان على المشاريع ذات المدى الموقوت والمحدود وبتعبير فقهي، يبحثون عن الصدقات الجارية.

معهد العَلَمَين صرح علمي أكاديمي يطمح إلى أن يكون إحدى المؤسسات الأكاديمية الفاعلة التي تخرّج كبار الباحثين الأكاديميين. كانت هذه أمنية للسيد بحر العلوم وقد حقّقها الله سبحانه وتعالى له. والعَلَمان هما الشيخ الطوسي والسيد بحر العلوم الجدّ، فسمّى هذا المعهد باسميهما في رمزيةٍ ودلالةٍ واضحة على مضمون ما يطمح إليه السيد. يُذكر في الحديث الشريف: «إذا مات المرء انقطع عمله إلا من ثلاث»، إحدى الثلاث هي الصدقة الجارية. صاحب المشروع يموت، ولكن المشروع لا يموت. ولهذا سيبقى معهد العَلَمَين فاتحاً أبوابه، محتضناً طلبة العلم على مدى الأجيال، ومزوّدهم بالسلاح العلمي الأكاديمي الذي تهيّئ له الأجواء الأكاديمية العالية في هذا المعهد. وأنا شخصياً أدعو الله تعالى أن يجعل من هذا المعهد صرحاً متميّزاً بعطاءاته للشعب والوطن.

في رثاء الصديق والحبيب

في أربعينيته وجدت ان سطور الحب والرثاء تمتزج بالفجيعة في فقدان صديق عمر ورفيق محنة سطور هي تكتبني ولا اكتبها كما هو معروف.

فالإنسان الحقيقي هو ذاك الذي لا يكون جُلّ همّه مصالحه وشهواته.

الإنسان الحقيقي هو ذاك الذي يتحسس لذة الأخوّة والصداقة والصلة الحميمة بمن يحبهم. الإحساس بلذة الحب لا يتاح لكل أحد، وإنما يتاح للإنسان فقط. وأنا تربطني بالسيد محمّد بحر العلوم علاقة وثيقة وآسرة من الأخوّة والصداقة والسيرة المشتركة والنضال المشترك والموقف المشترك والسنوات العجاف التي خضناها في أيام الدكتاتورية البائدة ونحن نناضل سويةً ونعمل في هذا الحقل. هذا الرجل لم يكن فحَسْب ذخراً من ذخائر العراق، وإنّ فقدانه ليس مؤثراً في الجانب الشخصي فقط، وإنما في الساحة العراقية بأكملها، ويؤثر في مختلف الجوانب السياسية والاجتماعية والثقافية. لقد انتابني لفقده حزن عميق، وهو الصديق الذي يحتل في قلبي مكانة لا تعادلها مكانة أخرى، وفي أمثال العرب «أحب أخي لأنه صديقي»، وذلك يعني أن الصداقة فوق الأخوّة النَسَبية. فإذا كان الأمر كذلك لماذا تستغرب أن تكتبني سطور قبل أن أكتبها وأنا أرثي السيد محمّد بحر العلوم.

سماحة السيد حسين هادي الصدر في سطور

* الولادة: الكاظمية ١٩٤٥ في بيت علم ودين وأدب
* أكمل دراسته الثانوية عام ١٩٦٢/١٩٦١
* تخرج من كلية الحقوق / جامعة بغداد بدرجة جيداً جداً عام ١٩٦٦ / ١٩٦٧
* التحق في العام نفسه بجامعة النجف الأشرف الدينية
* درس علوم الدين (الفقه) على يد كبار المراجع في طليعتهم الإمام الشهيد محمد باقر الصدر/ آية الله العظمى الإمام الخوئي، آية الله العظمى الإمام السيد الخميني رضوان الله عليهم اجمعين.
* ابتعثه الإمام الراحل آية الله العظمى السيد محسن الحكيم إمام لجامع وحسينية عباس التميمي في الكرادة الشرقية عام ١٩٦٩.
* نهض بأعباء العمل الديني في المسجد المذكور في الفترة الممتدة من ١٩٦٩ إلى ١٩٧٩
* عام ١٩٧٩ اعتقل وتعرض لأبشع أنواع التعذيب النفسي والجسدي مما اضطره إلى مغادرة الوطن.
* ما بين عام ١٩٧٩ - ٢٠٠٤ تنقل في عدة بلدان بالمهجر أبرزها سوريا وايران ثم استقر في بريطانيا
* في رحلة المعارضة العراقية كان أبرز شخصياتها
* عام ٢٠٠٤ عاد إلى الوطن وأصبح عضواً في المجلس الوطني
* في عام ٢٠٠٥ انتخب عضواً في الجمعية الوطنية العراقية
* عام ٢٠٠٦ أسس المجمع السياسي العراقي وهو كيان سياسي للمستقلين العراقيين.
* ٢٠٠٧ أسس المؤسسة الرسالية للعلوم والأدب والثقافة
* واصل مشاويره الفكرية والثقافية والدينية عبر المحاضرات والمجالس التي يقيمها بالمناسبات وآخرها مجلس آل الصدر في الكاظمية الذي اسسه ٢٠١٦
* له العديد من الآثار المطبوعة منها
* دوواين شعر
* لقاء على ضفة الشعر القاهرة ١٩٧٨
* هاك منّا دماءنا يا عراق لندن ١٩٨٨

* عمار في باقه الأشعار بغداد ٢٠٠٤
* من آثاره المطبوعة
* أحاديث إسلامية في قضايا الزواج والأسرة النجف ١٩٧٠
* الإمام الصادق عطاء وإشعاع دمشق ١٩٨٠
* المرجعية الشهيدة ١٩٨٣.

السيد بحر العلوم
شخصية لا مثيل لها

شهادة سماحة السيد محمد حسن الأمين(*)

بحر العلوم نجفياً ولبنانياً

يشرّفني وأنا جالس في قاعة هذا المعهد الذي هو ثمرة من ثمرات إنجاز المرحوم السيّد محمّد بحر العلوم، أن تتاح لي فرصة الحديث ولو لدقائق عن سيرته واستذكار علاقته بطلبة العلم اللبنانيين الذين يفدون للنجف خلال حقبة الخمسينيات والستينيات من القرن السابق، حيث أنّ من أصعب الأمور هو أن تتحدث عن موضوع بهذا الاتساع والعمق والشمول في دقائق قليلة، ولكنني سأحاول أن ألخّص رؤيتي لسماحة السيّد بحر العلوم نجفياً ولبنانياً وعلى مستوى العالم العربي والإسلامي بصورة عامة.

شخصية لا مثيل لها

هنا، أتذكر رواية تنسب إلى رسول الله (ص) حيث قال: «إذا مات العالِم تثلِم في الإسلام ثلمة لا يسدها شيء». كنا في السابق - أيام الشباب - نقول: إن هناك شك في أن تكون مثل هذه الكلمة للرسول، لأنه إذا مات العالِم، فسيأتي عالِم غيره وربما يكون أفضل منه. ولكن بعد أن مكّنَتْنا كلية الفقه، ومكّنَنا فكر الشيخ المظفّر وإخوانه الذين هم طلابه الأوائل، فهمنا بأنّ التعدد والتنوع هو سمة من سمات الوجود والخلق. إذ يوجد علماء متعددون، بحيث أنه

إذا فُقِدَ عالِم، فلا بد أن يكون لفقدانه ثغرة في جدار العلم والمعرفة لا تُسَدّ، لأن العلماء ليسوا نُسَخاً مكررة لكتاب واحد، بل لكل عالِم خصوصياته التي نفقدها بفقدانه، وما أغنى وأوسع هذه الخصوصيات لدى هذه الشخصية التي ندير الحديث عليها الآن. فعلى سبيل المثال، لا أستطيع شخصياً - وأنا ابن النجف وقد عاشرت ودرست وعرفت ورأيت وصادقت الكثير من العلماء - القول بأن هناك شخصية يمكن أن تشبه أو تماثل تماماً السيّد محمّد بحر العلوم، فربما يوجد تشابه بين بعض الرجال، لكنه لا يوجد تماثل. أما السيّد محمّد بحر العلوم فتوجد له خصوصيات من الصعب أن تتوفر في واحد حتى من زملاء السيّد محمّد بحر العلوم الذين نحترمهم جميعاً.

كان رجلًا يتصدى للمشكلات وهو في ريعان شبابه، مثل تلك المتعلقة بالحوزة في النجف الأشرف، أو المشكلات في موقع الطائفة الشيعية ودورها. وكان من أول المتحمسين لمنهج كلية الفقه واظهارها للوجود كثمرة من ثمرات المشروع التجديدي والفقهي لمعلمه ومعلمنا الشيخ محمد رضا المظفر، وهذا يعني أنه كان قريباً جداً من الشيخ المظفّر (رحمه الله). ولكن السيّد محمّد بحر العلوم كان قادراً بما يمتلك من ميزات وكاريزما شخصية أن يدافع عن هذا المشروع، وهو مشروع التجدد الحضاري والعلمي لمدينة النجف الأشرف، وكان قادراً على شرح هذه المسألة وتقديمها للآخرين الذين كانوا يواجهونها ويعيشون أجواء النقمة على هذا التغيير الذي حصل بسبب تقاطع مصالحهم وانانيتهم معه، أي إنشاء كلية للفقه تفرض على الطلاب أن يدرسوا العلوم الإنسانية واللغة الإنكليزية بالإضافة إلى العلوم الإسلامية الأساسية والتي هي الفقه والأصول.

نقلة مرتجاة

كان قادراً على أن يُدخِل في أذهان مستمعيه أهمية هذه الخطوة التي كان يعبّر عنها بوصفها مفصلًا تاريخياً مهماً من مفاصل تطور جامعة النجف

الأشرف، ولكونه متضلعاً بتاريخ نشأة هذه الجامعة. كان قادراً على أن يذكّر بمفاصل حيوية مرت بها هذه الجامعة، والتي كانت مفاصل تطور وتغيّر ونشوء مدارس واتجاهات حديثة. وكان يرى أنّ النجف الأشرف في الخمسينات من هذا القرن قد تأخر كثيراً عمّا ينتظرها من الدور الحضاري، وأنّ كلية الفقه التي أُنشأت هي هذه النقلة المرتجاة، ليس لإنتاج عدد كبير من الطلاب المثقفين والعاملين، بل لإنتاج عدد من الناس الذين يستطيعون أن يحاكموا أو يدرسوا تراث النجف، وأن ينطلقوا من هذا التراث حيث الأصالة النجفية، للدخول في هذا العصر. إنه كان مسكوناً بهموم العصر، ولذلك كانت ثقافته متنوعة ومعرفته متعددة، وكان يؤمن منذ ذلك الوقت بما نسميه اليوم مفهوم التعدد والتنوع، ويعتبره الظاهرة الإيجابية الكبيرة في الفكر الإنساني، وإننا في النجف يجب أن نتحمل الآخر وأن نقبل بالتعدد، لأنه مصدر الغنى.

شاعر حداثوي وكاتب تجديدي

كان سماحة السيّد بحر العلوم قادراً على أن يشرح هذه الفكرة شرحاً كاملًا، وهو بالتالي هذه الشخصية التي كانت تحرص على الانكباب على العلم والمعرفة والدراسة. كان الشخصية التي تأخذ على عاتقها رسالة شرح المعنى الذي تكتنفه فكرة تجديد الدراسة في النجف الأشرف، ولا شك في أنه أحد أبرز المتنورين والمثقفين الفعليين في هذا الباب، ليس بسبب دراسته في كلية الفقه فحسب، ولكن بسبب نزوعه الذاتي والشخصي إلى الإلمام بالمعارف والثقافات المتعددة، لدرجة أن السيّد محمّد بحر العلوم في الخمسينيات من القرن الماضي نشر قصائد من الشعر الحر، وكان ذلك أمراً ملفتاً للكثيرين الذي يعتبرون النجف مدرسة قديمة، وهي مدرسة كلاسيكية حتى في مجال الأدب. إلا أنّ السيّد بحر العلوم نشر قصائد تعتبر طليعية في ذلك الوقت في هذا المجال، عدا عن كتاباته النثرية التي كانت تتّسم بالأصالة والموضوعية والشفافية، وبالقدرة المميزة على التعبير، مما جعل منه شخصية مميزة منذ

ستينات القرن الماضي، أي منذ الفترة التي عشت أنا فيها في النجف. لقد قامت بيني وبينه علاقة وثيقة جداً، وكنت أشعر أنّ الخصائص والمميزات الكامنة في شخصيته من الصعب أن تتوفر في شخصية أخرى. كنت على علاقة أبوية بالشيخ المظفّر، وأعني أنني كنت أعتبر الشيخ المظفّر أباً لي، لأنه كان فعلًا صديق والدي وكانا يدرسان معاً وهما في سنٍّ واحد. وكان له اهتمام خاص بي وقد مكّنني من الدخول إلى كلية الفقه وأنا في سنٍ مبكرة جداً، وقد أخذ ذلك الأمر على عاتقه. فكنت قريباً من هذه الفئة/ النخبة الأولى التي تخرجت من كلية الفقه، بما فيهم السيّد مصطفى جمال الدين، والشيخ الوائلي والشيخ محمود المظفّر وعدد من هؤلاء، وكان على رأسهم السيّد بحر العلوم.

مسؤوليات متعددة ومتباعدة

كان بحر العلوم شخصية متميزة وذا نزعة حداثوية هامة، مع ذلك كان انكبابه الدائم والشديد على تحصين النجف الأشرف والدفاع عنها، وكان يقود المسيرات في هذا المجال. كما كان يشرف على إقامة الاحتفال السنوي في مناسبة ذكرى ميلاد الإمام الحسين(ع) في النجف الأشرف، ويقوده ويختار له الخطباء والشعراء ممّن يستطيعون أن يقدموا الصورة البيضاء والمتوهجة عن ثقافة النجف، حيث كان يرى أن النجف مظلومة، وأنّ مثقفيها وعلمائها مظلومون، وكان يرى أنّ من الواجب تقديم هذه الصورة المهمة للعالم، فكان هو المحرك لهذا الأمر باستمرار. ولم أرَ شخصاً استطاع أن يتحمل مسؤوليات متعددة ومختلفة ومتباعدة بنفس الكفاءة وفي الآن الواحد كسماحة السيّد بحر العلوم. وكنت أَعجَب من هذا الرجل، متى يذهب إلى بيته ومتى ينام ومتى يقعد.

كان في حركة ديناميكية دائمة ومستمرة مع هذا العقل المنفتح، بالدرجة التي فرض نفسه فيها كشخصية استثنائية في النجف الأشرف ومن ثم في المحيط الأوسع، وهنا أنتقِلُ إلى لبنان.

صديق الطلبة اللبنانيين

كان على صلة وثيقة بطلاب العلم اللبنانيين في النجف الأشرف، وكانوا يحبونه جداً، إذ كان يرعى كثيراً منهم، وبالتالي نشأت صداقات غير عادية بين هؤلاء الطلاب، الذين أصبحوا علماء فيما بعد، وبين السيّد بحر العلوم، الذي - وكما قلت - كان له من الديناميكية والحركية ما يمكّنه من أن ينتقل من بلد إلى بلد، فيذهب إلى لبنان مرة أو مرتين في العام الواحد، لا لأنّ هناك عملًا معيّناً يريد القيام به، ولكن لأنه يريد أن يسهم في إخصاب هذا الاجتماع اللبناني وتعميق اواصر تلك العلاقات التي نشات في مدينته النجف. وقد اجتذب من خلال ذلك محبة وإعجاب الكثيرين من خارج الطائفة الشيعية التي ينتمي إليها، إذ أحبه المسيحيون والسُنّة في لبنان لدرجة أن مجلسه في لبنان كانت تحتشد فيه شخصيات متنوعة من هذه الطوائف. وكما تعلمون أنّ الانقسامات في لبنان وصلت إلى حد الانقسام في داخل الطائفة الواحدة، فكان الرجل الذي يُجمِع الناس خلال زيارته للبنان والاستماع إليه، هو السيّد محمّد بحر العلوم.

المرأة في مجلسه

هناك صفة/ سجية خاصة لم تكن موجودة لدى العلماء الكبار، ألا وهي أنه كان يعرف كيف يخاطب المرأة، ولذلك كان يحضر في مجلسه في لبنان عدد من النساء المثقفات ومن أساتذة الجامعات وغيرها، وكانوا ينشدّون انشداداً غير عادي لما يستمعون إليه، وكنت أشعر أنّ اللغة التي يتحدث بها ورؤيته لموضوع الدين والاختلاف في الأديان والمذاهب كانت دروساً بالغة الأهمية.

قبل مجيئي إلى هنا للنجف بأيام، جاءت إحدى الشاعرات اللبنانيات تعزيني بافتقاد السيّد بحر العلوم، وهي سيّدة فاضلة وشاعرة مبدعة، لكنها لا ترتدي الحجاب، وكانت تصر على زيارة السيّد بحر العلوم كلما جاء إلى لبنان. وفي المرة الأخيرة قالت لي: لقد ذهبتُ إلى مكتب السيّد علي الحكيم، حيث يستقبل السيّد محمّد بحر العلوم ضيوفه، ورأيته جالساً على كرسي متحرك

لأنه لم يعُد قادراً على المشي، وأضافت: دخلتُ إلى المجلس وأنا أرى عدداً من كبار العلماء الشِّيَب ومن كبار الأساتذة، فخجلت كوني المرأة الوحيدة التي تدخل إلى هذا المكان، فجلست في آخر المجلس ووضعت غطاءً على رأسي. وبينما كان السيّد بحر العلوم يدير نقاشاً على طريقته اللطيفة والتي تتخللها النكت والطرافة أحياناً، أبصرني على هذه الحال وشعر بأني محرجة، فقال: دعونا من مناقشاتكم هذه ولنَرَ الكلام الجميل الآخر، ثم حرك كرسيه إلى أن وصل إلى جانبي وشجعني على الكلام والبوح بما أريده. كان هذا المشهد مؤثراً ومهماً، وهو من السمات التي جعلت من هذه الشخصية شخصية مميزة.

وهذه التصرفات كلها تنطلق مما توفرت له من مزايا التواضع والإنسانية في روحه وقلبه، فهو شخصية لها هيبتها ومركزها الكبير، ولكنه كان متواضعاً.

معارض لأعتى نظام وحشي

ما لايجب أن يفوتنا إطلاقاً - الدور الذي قام به السيّد بحر العلوم في مرحلة المعارضة للنظام العراقي، والذي لم يُطِقْ وجوده في العراق، فقد اضطره للخروج من بلاده إلى الكويت ثم إلى لبنان وأخيراً إلى لندن. وقد أُتيح لي الذهاب إلى لندن بدعوة منه ومن الجمعية التي أشرَفَ عليها سبع مراتٍ أو ثمان، حيث التقيت به وشاركت في المؤتمرات التي كان يرعاها. في هذه المؤتمرات، كان السيّد بحر العلوم حريصاً جداً وهو يكافح ضد النظام العراقي بأن يُظهر البعد الحضاري لهذه المعارضة. وكان قد استوعب بصورة غير عادية توجهات الفكر الغربي والاهتمامات السياسية في الغرب، ولذلك كان كلامه في هذه المؤتمرات مؤثراً تأثيراً بالغاً، سواء في الغرب أو على مستوى الصحافة العربية التي كانت تنقل محتوى هذه المؤتمرات. وكان يختار لها رجالًا أكفّاء، وبالتالي لم يكن مستعجلًا، وكان يعرف أنّ العراق سينتصر في النهاية، وأنّ ذلك يتوقف على النَفَس الطويل. وكان يقول لي: لا أعلم ما إذا كنت سأعود إلى العراق أم لا، لكني على يقين من أنّ العراق سيتغيّر. وكنت أتمنى أن تتاح للسيّد

بحر العلوم فرصة العودة إلى العراق في حياته، هذه العودة المظفّرة والرائعة والمتواضعة، وهو رجل العراق الأول. أن يعود إلى بيته في النجف ويجلس فيه، وهو ابن ما فوق الثمانين عاماً من السن، فلا تجد أنّ السنوات الطويلة قد غيرت من هذا اللهب الدائم الداخلي في هذا الرجل الإصلاحي والعالم والفقيه والشاعر والأديب والمفكر والسياسي.

بحر العلوم القاضي

لا يفوتني الحديث والشهادة عن العلّامة بحر العلوم القاضي الذي عمل في القضاء الشرعي بدولة الكويت لأكثر من ثمان سنوات متتالية عقب خروجه الاضطراري من بلده العراق. كان السيّد بحر العلوم زميلًا لي في القضاء، حيث أنني أمارس مهنة القضاء منذ أربعين سنة، حتى وصلت إلى قمة القضاء في لبنان في الفترة التي كان فيها السيّد بحر العلوم قاضياً في الكويت، ومن هنا فهو زميل لي في هذا الأمر.

مجتهد في القضاء

عندما كان السيّد بحر العلوم يأتي إلى لبنان، كنا نتناقش في المسائل والأحكام وفي مفهوم الأحوال الشخصية وسلطات المحاكم، كما نستعرض بعض الإشكاليات التي جنّد نفسه لحلها هناك في الكويت، واستفدنا من حلها في القضاء اللبناني الشرعي. السيّد بحر العلوم لم يكن مقلداً في نهجه في القضاء الشرعي، بل كان يجتهد برأيه في هذه الأمور، وغالباً ما كان عمله في القضاء صورة من الصور التي نطمح إليها في تجديد عمل القضاء الشرعي، وكان قاضياً ناجحاً بهذا المعنى، ويعطي لهذه الوظيفة دورها وأهميتها وما تستحقه من الدراسة والمراجعة والاستنباط والجدل الفقهي. حتى أنّ محاكم الكويت التي تناوب فيها على القضاء عدد كبير من رجال الدين، لم تشهد خصوبةً كتلك التي شهِدَتْها الفترة التي قضاها السيّد بحر العلوم في القضاء هناك. على

الرغم من أنّ السيّد بحر العلوم ذو اتجاهات وذو مواهب متعددة، وربما لم يكن مهيئاً نفسياً لأن يستلم القضاء، ولكنه وجد أنّ هذا الأمر توجبه الظروف وضرورة قيام المحكمة الشرعية بواجباتها في دولة الكويت، ولم يكن هناك من شخصية مهيئة تملك الثقة بنفسها والجرأة على الاستقلال الكامل للقضاء كشخصية السيّد محمّد بحر العلوم، الذي لم يكن يعنيه إطلاقاً ما الذي تريده السلطة أو توسطات البعض كما هو شائع في القضاء. فكان هذا الرجل اللطيف الرقيق، عندما يجلس على كرسي القضاء يصبح رجلًا آخر، أي أنه يصبح الرجل الصلب الذي يريد إحقاق الحق. تلك كانت مرحلة مهمة ويجب التركيز عليها عند كتابة سيرة هذا الرجل.

مسكون بالمستقبل

كان السيّد بحر العلوم ميالًا لأن يكتب التاريخ برؤية مستقبلية، وهذه مسألة بالغة الأهمية. وكما نشير دائماً إلى أنّ هناك عناصر في التراث تدعو إلى الاعتزاز والفخر به، فقد كان السيّد بحر العلوم أصيلًا في هذا الاتجاه أيضاً، إذ إنه يقدّر هذا التراث بما فيه تراث الإمام علي(ع) وسائر الأئمة(ع) كما التراث الشيعي السُنّي أيضاً. ولكنه عندما كان يُداخل في مسائل التاريخ، كنت أشعر أنه مسكون برؤية مستقبلية. فالتاريخ من وجهة نظره هو التراكمات الكثيرة التي حصلت، السلبية والإيجابية، والتي نقف على ذروتها. فكيف نختار من هذا التراث ما هو خالد وباقٍ ومستمر وكيف ننفي ما فيه من رماد. لذلك جاءت كتاباته - على قلتها - موفقة، وتدفع القراء وبخاصة الشباب منهم لأن يشعروا بأمل كبير في أن يجددوا هذا التراث وأن يستمروا ممثلين لهذه الشعلة المضيئة والأمثلة التي كان يطرحها بحديثه التاريخي عن الشخصيات التراثية المهمة، وكان يجيد طرحها، ويريد من الجيل الجديد أن يتأثر بها، ودائماً ما كان مسكوناً بفكرة المستقبل. وهذا هو شأن المصلحين الكبار والمؤرخين الحقيقيين، فإنّ مؤرخاً لا يسكنه هم المستقبل لا يكون كذلك، سيكون مجرد

ناقل لما كُتِبَ في الكتب الصفراء عن التراث فقط. بينما كان السيّد بحر العلوم يريد أن يضيف إلى المعطيات التي يأخذها من هذه الكتب، النبض الحيوي المعاصر الذي تحتاجه حركة النهضة على المستوى العربي والإسلامي كله.

لم يكن متخصصاً في هذا الأمر، إنما كان هذا أحد جوانب ثقافته المتعددة التي أشرنا إليها ومواهبه المتنوعة التي نوّهنا فيها، ويجب أن ننوّه فيها ونحن نتحدث عن هذه الشخصية النادرة.

متوهج للنهاية

ظلّ السيّد بحر العلوم يتوهج بالعطاء حتى أواخر أيامه، ومن هنا سمحت لنفسي أن أقول بأننا قد فقدنا شخصية متميزة لا يمكن تكرارها مع احترامي للشخصيات الهامة في بلدٍ كالعراق، وفي أُمةٍ ولّادة للرجال كهذه الأمة، لكن هناك رجال لهم بصمات محددة لا تُكرر في التاريخ، وأحدهم هو السيّد محمّد بحر العلوم (قدس سره).

سماحة السيد محمد حسن الأمين في سطور

* عالم دين شيعي من لبنان أديب وشاعر وفقيه قاضي له أفكار تجديدية في الفكر الإسلامي المعاصر
* ولد في بلدة شقرا بقضاء بنت جبيل في لبنان ١٩٤٦م والده السيد علي مهدي الأمين
* تابع دراسته الابتدائية والمتوسطة في بلدته شقرا في نفس الوقت كان والده يشرف على تعليمه علوم اللغة العربية وادابها والمنطق
* هاجر إلى لنجف الأشرف ١٩٥٩ ودخل كلية الفقه ١٩٦٠ وتخرج منها بكلورويوس في الفقه والشريعة عام ١٩٦٥
* تابع دراساته العليا في بغداد حتى عام ١٩٧٢ حيث عاد لبلدته شقرا اللبنانية
* دخل سلك القضاء الشرعي الجعفري ١٩٧٥وانتقل بعدها لمدينة صيدا وبقي رئيساً لمحكمتها حتى عام ١٩٩٧ حيث انتقل للمحكمة العليا مستشاراً ومازال
* شارك في إصدار وتحرير مجلة (النجف) مع نخبة من المثقفين والكتاب
* شارك في إصدار وتحرير مجلة (الكلمة) النجفية
* من مؤلفاته:

- الاجتماع العربي الإسلامي
- نقد العلمنة والفكر الديني
- بين القومية والإسلام
- الإسلام والديمقراطية
- مساهمات في النقد العربي
- وضع المرأة الحقوقي بين الثابت والمتغير
- حقوق وواجبات المرأة المسلمة في لبنان (بالاشتراك مع آخرين)
- الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر سمو الذات وخلود العطاء

السيد بحر العلوم
القاسم المشترك للمعارضة العراقية

شهادة سماحة السيد حسين بركة الشامي(*)

عائلة في مجد التاريخ

عندما نتحدث عن علاقة الفرد بأسرته نتحدث عن علاقة الإنسان بالأصالة، ولا نتحدث بالمجاملات العرفية والمجتمعية والمدح والثناء لأسماء معينة.

عندما ندرس مدرسة آل البيت(ع) عبر التاريخ منذ الإمام الصادق(ع)، نراها قامت بفضل جهود عوائل معينة تمكّنت من الإمساك بحبال التاريخ والتمسّك بمدرسة وأركان وقواعد آل البيت(ع). من هذه العوائل آل نوبخت وآل أعين وسواها ممّن التفّ حول الإمام الصادق(ع). فعندما تدرس عن الميثمي فهذا لقب عُرف به عبر التاريخ أتباع ميثم التمار وأبناؤه وأحفاده من الذين يهتمون بالرواية والفقه والحديث عن الأئمة(ع)، وينطبق الأمر نفسه على آل الصّدر وآل بحر العلوم وآل الحكيم وآل الخميني. هذه العوائل لم تكن مجرد أسماء طارئة وإنما لها جذور عميقة وارتباطات ولها حلقات موصولة بالتاريخ.

سمعت أحد أفراد عائلة بحر العلوم يقول: منذ السيّد مهدي بحر العلوم - الجدّ الأعلى لآل بحر العلوم الذي عاش منذ ما يزيد على ٢٥٠ سنة - لم تخْلُ هذه الأسرة الشريفة من عالم. كان فيها على الدوام علماء يربطونها بالحوزة

العلمية وخاصةً في الجيل المعاصر، حين برز فيها علماء كبار أمثال السيّد محمّد تقي بحر العلوم والسيّد حسين بحر العلوم والسيّد علاء بحر العلوم والسيّد عز الدين بحر العلوم، وجميعهم أساتذة كبار في الحوزة، وآخرهم هو المحتفى به في هذا الفيلم: العلّامة الدكتور السيّد محمّد بحر العلوم (رحمه الله)، حيث كان صوتاً جميلًا ووجهاً مشرقاً وعِمّةً ناصعةً وحركةً دائبة وشخصيةً محبّبة في هذه الأسرة الكبيرة، فهو يستند على هذه الأسرة ليستمدّ منها روح الأصالة والقوة والثقة في مواجهة التحديات والأحداث.

تلميذ في المدرسة المظفرية

لاشك ان مشروع محمّد رضا المظفّر اثرّ تاثيرا كبيرا ليس في صقل مواهب وشخصية العلّامة بحر العلوم وحدها بل، في سلوكية جيل من الاعلام والمنارات ومنهم الشيخ الخطيب الدكتور أحمد الوائلي والعلّامة الدكتور مصطفى جمال الدين والسيّد الدكتور محمّد بحر العلوم.

وإذا أردنا أن نؤرخ لحركة الوعي الإسلامي الجديد الذي بدأ منذ النصف الأول للقرن العشرين، لرأينا أن الشيخ محمّد رضا المظفّر (رض) يمثل الرجل المجتهد والمصلح الحركي المجدّد سواء كان على مستوى الفقه والأصول والعقائد أم على مستوى الدراسة والحوزة، وكذلك على مستوى التعليم الإبتدائي والأوّليّ والعالي كذلك.

قطب الرحى

وإذا أردنا أن نتلمّس وأن نستقرئ كل رجالات الحركة الإسلامية في العراق أو في البحرين أو في لبنان أو في إيران أو حتى في أفغانستان وباكستان، لوجدنا أنّ رموز هذه الحركة الإسلامية الممتدّة والعميقة والواسعة ترتبط بالنواة الأولى والعشّ الأول الذي شكّله الشيخ محمّد رضا المظفّر وهو منتدى النشر. فمنتدى النشر يعتبر المنطلق والجامع والحاضن لكل تلك الأذهان

المتفتّحة في الوعي، ولكل هؤلاء الرجال الذين كانوا يتطلّعون نحو الإصلاح. لهذا السبب، واجه الشيخ المظفّر الكثير من العنت والمعارضة والجدل عند تأسيس هذه المدارس، فقد وقف الكثيرون في مواجهة هذا المدّ الجديد من الإصلاح، ولكنه كان مصراً على المضيّ بمشروعه. وتجمّع حوله هؤلاء الشباب أمثال السيّد محمد بحر العلوم وأحمد الوائلي وجمال الدين ومحمد مهدي الآصفي وحسين فضل الله، وشخصيات أخرى كثيرة، وكانت منزلة المظفّر بينهم كالقطب من الرحى. حتى حزب الدعوة الإسلامية - وهو الحركة الإسلامية الواسعة التي تأسست في تلك المرحلة - ترجع في جذورها وبذورها وشخصياتها من عبدالصاحب الدخيل إلى القاموسي والشيخ عارف البصري وسواهم، إلى تلك النفحة المظفّرية الرائعة التي انطلقت من النجف وامتدّت إلى سائر العراق ومنه انتشرت في المنطقة بأكملها.

غرسة مباركة

السيّد محمد بحر العلوم هو غرسة مباركة من أغراس الشيخ المظفّر، لأن الشيخ المظفّر لم يُعد رجلًا محدوداً بالدم واللحم، وإنما هو يمثّل قضيةً ومبدأً ورسالةً وخطاً ومنهجاً. لقد نفخ من روحه في الأجواء الراكدة للحوزة العلمية واستطاع أن يكوّن منها شيئاً رائعاً هو منتدى النشر، ويكفي بمنتدى النشر شرفاً أنّ السيّد محمّد باقر الصّدر درس في مدارسه الابتدائية التي انتشرت في مدن العراق ومنها الكاظمية المقدسة. والسيّد محمّد باقر الصّدر هو حسنةٌ من حسنات هذا الزمان، وهو الشخصية الفذّة التي أحدثت هذه النقلة الفكرية والروحية والحضارية في جسم الأمة، ليس في العراق والنجف فحسب، وإنما في الأمة الإسلامية الواسعة بأكملها.

بحر العلوم يحلق في جناح الشعر

النجف عموماً هي حوزة علمية وجامعة عريقة، تهتم بالفكر والفلسفة والفقه والأصول والحديث والتفسير، أما الشعر، فكان يعيش على هامش

النجف وداخل أوساط معينة فيها، وإن كانت النجف هي المتذوق الأول للشعر في العراق بل في المنطقة كلها. النجف مدينة شاعرة ومدينة قارئة، والسيّد محمّد بحر العلوم (رحمه الله) خاض هذه الغمرات والمعتركات بشكلٍ واسع، وكان لفصاحة لسانه وقوة بيانه وجمال شاعريته يرشح منه مبكرا فأهله ذلك لأن يكون عريفاً للحفلات الأدبية في أكثر المناسبات الدينية، والمتكلم باسم المرجعية والناطق بلسانها، وكان هو الذي يلقي الكلمات إلى جانب السيّد مصطفى جمال الدين الذي كان من الشعراء الكبار آنذاك.

السيّد محمّد بحر العلوم يمتاز بحيوية وحركية وكاريزما جعلته نجماً في كل منتدى وملتقى ومجتمع وتأسيس جمعية ومؤسسة، لأنه كان يحمل روحاً شفافة وخُلُقاً رفيعاً وتواضعاً جمّاً وكلماتٍ طيبة.

نماذج التحدي

السيّد محمّد بحر العلوم كان شاعراً من القلائل الذين أدخلوا الشعر الحر إلى جامعة النجف التي لم تكن عادة تستسيغ هذا النمط من الشعر. كان السيّد بحر العلوم ناثراً بالدرجة الأولى، وقد أخبرني بنفسه بأنه ألّف كتابه «ضحايا العقيدة» - وهو من أول كتبه في هذا المجال - بإرشادٍ وإشارة من السيّد محمد باقر الصّدر (رض)، فقد كان السيّد الصّدر يكرّر أنّ الأمة تحتاج إلى رفع الإرادة والمعنويات، وكذلك إلى نوع من التحدي. فإنك عندما تذكر حجر ابن عدي وميثم التمار وزيد بن علي ورشيد الهجري وأمثال هؤلاء، فإنما أنت تقدّم مثالًا للإنسان المضحّي والمتحدّي، بهدف أن يصبح هذا المثال نبراساً للأمة والشباب والناشئة الجديدة. بدأ بهذا المخطط في «ضحايا العقيدة» ثم طوّره في كتابه، «بين يدي رسول الله»، وكذلك «من مدرسة الإمام علي(ع)»، و«سلسلة في رحاب الائمة» فأصبحت هذه الكتب اليوم معالم أدبية مكتملة تحتوي تحليلًا تاريخياً جيّداً، ولعل أحداً لم يسبقه إلى هذا الأسلوب.

بحر العلوم الحركي

إنّ المخاضات الأولى للحركة الإسلامية حصلت في النجف، وقد واكب السيّد محمّد بحر العلوم بداياتها بالتاكيد. وكان له دورا مهما في هذه المخاضات العسيرة ومبادرات تاريخية ومفصلية لعزة الحركة الإسلامية في بداياتها الجنينية الاول.

كما إنّ انطلاق حزب الدعوة الإسلامية من النجف الأشرف كان أمراً لا يخلو من التحدّي، ونستطيع القول بأنّ حزب الدعوة قد مرّ بمرحلتين من التأسيس: المرحلة الأولى هي مرحلة التنادي والإرهاصات ومرحلة التمهيد واللقاءات الكبيرة والصغيرة هنا وهناك، ولا شك أن السيّد بحر العلوم شارك في الجدل والحوار والتشاور الواسع لغرض إحداث مؤسسة سياسية تحمي النجف وتدافع عنها، وتحمل فكر النجف في مرحلة الغزو الثقافي الذي بدأ يتمكّن من العقول والقلوب والنفوس في العراق. فالسيّد بحر العلوم كان له دور مؤكّد في هذا الأمر، وذاك من جانبين؛ الجانب الأول هو شخصيته الحركية المتميزة، والجانب الثاني أنه كان محسوباً على مرجعية السيّد محسن الحكيم، وقد كانت مرجعية السيّد الحكيم هي القاعدة الحاضنة لهذه الحركة ولهذه الدعوة. عندما تطور الأمر وأصبح التأسيس رسمياً وبدأت الحياة السرية في حركة حزب الدعوة الإسلامية أخبرني (رحمه الله) أنّ الشهيد الصّدر طلب منه أن يعمل بالأعمال العامة والعلاقات العامة وأن يمثل النجف في المحافل وأمام الحكومة والمحافل الأدبية، وأن يترك الشكل التنظيمي في داخل حزب الدعوة. واقترح عليه ترك الدعوة كتنظيم على أن يبقى معها كحركة عامة وتيار في النجف الأشرف.

نستطيع القول بأنّ السيّد بحر العلوم كان من الأفراد الأساسيين في انطلاق الحركة الإسلامية، ولكنه لم يكن عنصراً تنظيمياً بشكل رسميّ في مرحلة التأسيس التي بدأت من خلال مؤتمر كربلاء الذي عقد بقيادة السيّد الصّدر، حيث أدّى القادة القَسَم الخاص بتأسيس حزب الدعوة. كان السيّد

الصّدر (رحمه الله) مع مجموعة مكوّنة من: السيّد مهدي الحكيم، والسيّد مرتضى العسكري، والسيّد محمد باقر الصّدر، والقاموسي، وصالح الأديب، ود.جابر عطا، هم روّاد المرحلة التأسيسية الرسمية، وجاء من بعد ذلك جيلٌ آخر والتحق بالقيادة، منهم الشيخ الآصفي وآخرون، مع أنهم لم يكونوا حاضرين في جلسات التأسيس..

تتميّز شخصية السيّد محمّد بحر العلوم بأنها حيّة ومتحركة، كان ينسجم مع الجميع، فكان يعمل داخل حزب الدعوة بحركية معمّمة ومعقّدة، وكان في نفس الوقت منفتحاً على الأجواء الأدبية ويحضر الجلسات الشعرية مع جمال الدين الذي ربما كان بعيداً عن هذه الأجواء تماماً.

بحر العلوم معتمد مرجعية الإمام الحكيم

كان السيّد محمّد بحر العلوم (رحمه الله) الممثّل الأساسي للسيد محسن الحكيم في العلاقات العامة. فكان يلتقي مع المسؤولين في الدولة ويحضر الاحتفالات في كل المناطق، مثلا في البصرة. كانت الاحتفالات تقام يوم ولادة الإمام الحسين(ع) في فترة الخمسينات، وكان يحضرها الأدباء والمثقفون وكبار الشخصيات، وكان بعض هذه الاحتفالات يعقد في البصرة. وقد وُثِّقَت فعاليات هذه المناسبات في كتاب اسمه «يوم الحسين(ع)» وقد قمنا بطباعته طبعة ثانية. كان السيّد بحر العلوم صغير السن في تلك الفترة لم يتعدّ العشرينات، وكان يرعى هذه الاحتفالات باسم المرجع الحكيم في صف كبار الأدباء في البصرة وبغداد والنجف، فالسيّد بحر العلوم كان مسؤولًا عمّا يسمى اليوم بالحركة الإعلامية والعلاقاتية التي تمثل المرجعية في مختلف الأوساط البعيدة عن الجو الحوزوي الخاص.

بحر العلوم في مواجهة النظام العفلقي

لقد أخذ حزب البعث على عاتقه مهمّة تصفية الحركة الإسلامية منذ وصوله إلى الحكم، وبشكل مُعلَن، سواء كانت متمثلة بالمرجعية العليا للسيد

الحكيم أو متمثلة بالخط الثاني المتحرك كالسيّد محمّد باقر الصّدر والسيّد مهدي الحكيم والسيّد بحر العلوم وأمثالهم. كان وجود هؤلاء العلماء هاجساً مخيفاً للبعث، فإنّ وجود السيّد الحكيم ومساعديه من العلماء كان يحول دون تمكين البعث من المضيّ في مشروعه: عملية استئصال الإسلام من داخله، وتشويه وتحريف وتزوير الفكر الإسلامي عن طريق تطعيمه بنظرية حزب البعث.

روحان في جسد

وضع النظام العفلقي منذ بدايته المريبة عدة مخططات تهدف إلى إضعاف مرجعية السيّد الحكيم (رحمه الله)، كان أحدها اتهام نجله المرحوم الشهيد الخالد السيّد مهدي الحكيم بالتجسس. كانت علاقة السيّد محمّد بحر العلوم بالسيّد مهدي الحكيم تشبه علاقة روح واحدة في جسدين، وكانا يكادان لا يفترقان، فهما يعملان معاً ويجلسان معاً ويتشاوران معاً في كل المراحل، ويتشاركان ذكريات طفولةٍ وشباب. كان السيّد مهدي الحكيم أكبر سنّاً من السيّد بحر العلوم، ولكنهما شبّا معاً في أزقة النجف وحلقاتها، ثم بعد ذلك في بغداد. لذلك، عندما اتُّهِم السيّد الحكيم، كان المرشّح الثاني للاعتقال من الناحية المنطقية هو السيّد بحر العلوم، وعندما داهمت السلطات منزل السيّد مهدي، توارى السيّد بحر العلوم عن الأنظار بتوجيه من السيّد الحكيم (رحمه الله) ثم غادر العراق إلى الكويت في قصةٍ معروفة.

السيد في منافيه

عندما وصل السيّد بحر العلوم (رحمه الله) إلى الكويت، كانت توجد فيها أُسر وعوائل شيعية محترمة ومرموقة ومقربة لدى السلطة، فاعتنت هذه الأُسر بالسيّد واهتمّت به وقرّبته وعرفّت السلطة بمنزلته وعِلْمِه، فأوكلت السلطة إليه منصب القضاء. ليس من السهل أن يكون عالم عراقي من علماء الشيعة قاضياً

في دولة خليجية، فقد اختلفت الحياة بالنسبة له عمّا كانت في العراق. عاش السيّد بحر العلوم في الكويت ولم يطلب شيئاً من أحد، وإنما اعتاش من كدّه وجهده. بقي السيّد بحر العلوم في الكويت مدة ثمان سنوات أو تسع، وانتقل بعدها لمدن عديدة من طهران للقاهرة ثم انتقل نهائيا إلى لندن ليؤسس مع السيّد مهدي الحكيم مركز أهل البيت الإسلامي، وهو من المؤسسات الأولى التي كانت ملتقىً للمعارضة العراقية، واحتضن كل أطيافها وأصنافها ومشاربها واتجاهاتها، فكان من أكثر المراكز الإسلامية انفتاحاً وكان له دور كبير في معارضة صدّام حسين في تلك المرحلة.

قاسم المعارض الاعظم

ما تمثّله رمزية السيّد بحر العلوم في لمّ شمل هذه المعارضة، يمكنني القول بأنّه العنصر المشترك الأعظم في المعارضة العراقية. لا تستطيع المعارضة الإسلامية أن تصادر أصالته أو أن تتهم شخصيته فكان هو القريب منها والحبيب لديها، وكان يحضر حتى في الجلسات الخاصة بحزب الدعوة الإسلامية في لندن، وكان يحافظ على علاقة ممتازة مع رموزها، خاصةً الدكتور حيدر العبادي والدكتور ليث كبة وغيرهم من الإسلاميين الذين كانوا يقطنون في المهاجر. كان السيّد بحر العلوم قريباً منهم ويعيش معهم وبين ظهرانيهم السرّاء والضرّاء. إنّ شخصيته وطبيعته جعلته منفتحاً على معارضين غير إسلاميين كسعد صالح جبر وعلى آل الجلبي وعلى العلمانيين، وحتى على الشيوعيين كماجد الياسري وحميد مجيد موسى، كل هؤلاء كانوا يلتقون عند نقطة واحدة اسمها محمّد بحر العلوم، فهذا يُظهِر لك طبيعة هذه الشخصية المنفتحة غير المعقّدة.

السيّد بحر العلوم كان قلباً واسعا وعقلًا منفتحاً على الجميع، وقد عقد عدة مؤتمرات مشتركة للمعارضة العراقية بشقّيها الإسلامي والعلماني. بالإضافة إلى ذلك، كان يحضر المؤتمرات التي تعقد خارج لندن مثل مؤتمر

نصرة الشعب العراقي الذي عُقد في طهران، بالإضافة إلى مؤتمراتٍ عديدةٍ في فيينا وأمريكا وكندا وسوريا وألمانيا. لم يكن بوسع أحد أن يستغنيَ عن حضور السيّد محمّد بحر العلوم، ولا عن رأيه وشيبته وخبرته وتاريخه المضمّخ بالنضال والتحدي.

العراق في قلبه وروحه

كان النظام قد كشّر عن أنيابه الوحشية بعد قيام الانتفاضة الشعبانية المباركة في ربيع ١٩٩١وكان السيّد قد قدّم تسعة وعشرين شهيداً من أفراد عائلته، من بينهم إخوته، فذهب يحمل هذه الآلام مع مجموعة من السياسيين المدنيين في رحلة للولايات المتحدة الاميركية، وهو العمامة الوحيدة وربما العمامة الأولى التي دخلت الكونغرس الامريكي. طبعا رافق ذلك حملات من التشويه القاسية والافتراءات الباطلة.

السيد إلى الكونغرس

كان دأب السيّد بحر العلوم أنه اذا اقتنع بشيء نفّذه غير عابئٍ بقول القائلين ولا بجهل الجاهلين. قراره بزيارة أمريكا ودخول الكونغرس كان نابعاً من معرفته العميقة بتأثير العامل الدولي في القضية العراقية، وكان يرى أن هذا العامل لم يكن هامشياً وإنما كان خطوة أساسية وربما حاسمة في عملية التغيير. لقد خبِرنا نحن كمعارضة تأثير هذا الأمر أثناء الانتفاضة التي انحسرت بسرعة أمام النظام البوليسي المجرم، وتعرّفنا كذلك إلى الموقف الإقليمي الخائن للشعب العراقي. فالسيّد بحر العلوم (رحمه اللّه)، كان من الذين يمتلكون الجرأة الكافية لأن يعبُر إلى الضفّة الأخرى لكي ينقل قضيته ويحمل ملفاته وينادي بنصرة الشعب العراقي وتخليصه من براثن المجرمين وسياسة التنكيل والترويع التي كان يتبعها نظام صدام حسين. مَن كان على هذا النحو من الثبات والرسوخ لا يهمه ما يدور حوله من جدل، لأنّ الهدف الذي

يصبو لتحقيقه ماثلٌ أمام ناظريه لا يغيب. ولذلك كان هو أول عمّة تدخل الكونغرس بهذه الجرأة والصراحة والقوة، لا لشيءٍ سوى تحقيق قول الإمام علي(ع): «إن خفت أمراً فقع فيه»، وكذلك قوله(ع): «إذا ظنت بك الرعية حيفاً فأصحر لهم بعذرك»، فكان واضحاً في عذره وواضحاً في رسالته، وواضحاً في مهمته.

بحر العلوم فوق بساط العودة

في لحظة من سعادته التي لا توصف سقط صدام وتهاوت تماثيله أمام أنظار العالم كله، وعاد بحر العلوم لوطنه كما حلم لسنوات طويلة، وكنت ارافقه معه في رحلته. بعد سقوط النظام ومقتل السيّد الخوئي (رحمه الله) وانعكاس هذا المقتل على لندن وحدوث حالة من الإحجام والخوف، كان السيّد بحر العلوم (رحمه الله) عازماً على الرجوع. نصحه كثير من الناس بترك هذا الأمر، وكنا نتشاور في ذلك، فقررنا أخيراً أن نأتي إلى الكويت ومعنا مجموعة من الإخوان والأصدقاء بمن فيهم نجله الأكبر الدكتور إبراهيم بحر العلوم. وصلنا إلى الكويت واستقبلتنا الحكومة الكويتية استقبالًا رسمياً، وقضينا هناك أكثر من عشرين يوماً كنا نتابع خلالها أحداث العراق يومياً ونتشاور في كل شيء، وعقدنا جلسات وندوات ولقاءات ومهرجانات في دواوين الكويت بشكل رسمي وغير رسمي. عندما دخلنا العراق، كاد السيّد بحر العلوم أن يفقد توازنه وهو يقترب من حدود العراق ويتنفس نسيمه، وعندما عبرنا الحدود، أذكر أني كنت أدمدم معه بأبيات له يقول فيها:

تصفّحت أيامي فهاجت بيّ الذكرى ... وصبّرت آلامي فلم تطق الصبرا
أحبتنا، عشرون عاماً تصرّمت ... فما هجع الحادي ولا أنكر المسرى
أحبتنا، يا من إذا ليلة دجت ... أعيش بذكراهم إلى الليلة الأخرى

عندما دخلنا العراق افترقنا، هو ذهب إلى السماوة قبل النجف، ملبّياً دعوة الشيخ الحاج سامي عزارة آل معجون، وذهبت أنا إلى الناصرية لأزور بعض

الأصدقاء. في اليوم الثاني انطلقنا إلى النجف الأشرف، والسيّد بحر العلوم لا يكاد يصدق كيف تعود السمكة إلى مائها، وكيف يعود بحر العلوم إلى صباه، حيث أزقة النجف وبيوتها القديمة والجميلة وسراديبها الباردة. لقد انتابته حالة عاطفية فظيعة، فالآلام لم تنتهِ وما زال الطريق حافلًا بالتحديات: فهناك اغتيالات وشحّة في المياه وانقطاع في الكهرباء ولائحة طويلة من المشاكل لا يُعلَم آخرها، ولكنه لم يُعُد يعبأ بشيءٍ منذ اللحظة التي وقع نظره فيها على قبة عليٍّ(ع) ومنائرها المضيئة التي اهتزت لها اوتار قلبه واحاسيسه كلها وملات مآقيه بدموع الحنين والاشتياق.

رئيس مجلس الحكم

إنّ تجربة مجلس الحكم ليست بالأمر الكبير في حياة السيّد بحر العلوم، وإنما هي مرحلة شكلية كبيرة، مرحلة عبور من الفوضى والنظام المتجبّر البوليسي الصدّامي المجرم إلى مرحلة لملمة الأشياء وتجميع الطاقات والمواهب لغرض تشكيل حكومةٍ جديدةٍ ودولةٍ جديدة وتأسيسٍ جديد، لأنّ العراق كان قد انهار إنهياراً كاملًا بإنسانه قبل أن ينهار ببنيانه. لم تمضِ فترة قليلة على رجوع السيّد بحر العلوم إلى العراق حتى أصبح رئيساً لمجلس الحكم، وهذا بنظري ليس بالشيءِ الكبير قياساً برفعة السيّد وتميّزه. لقد رافقتُه في رحلة إلى الكويت وهو في مقام الرئاسة، حيث استُقبِل كرئيس دولة، وكان له أداؤه ودوره في هذا المجال، وكذلك رافقته إلى إيران وهو في هذا المنصب، والتقينا بالرئيس خاتمي. كان لا يهتم بشيءٍ غير العراق ولا يرضى بالمساومة على بلده، كان العراق هاجسه وروحه وفكره وخطّه وذكرياته. كان إسناد مهمة تشكيل الحكومة للسيد بحر العلوم (رحمه الله) أمراً طبيعياً، باعتبار سنّه وخبرته وتجربته وتاريخه، فوُضِعَ في هذا الموقع الذي لم يزِده شيئاً بل هو قد شّرف هذا الموقع بعِمّته الناصعة وبما يحمله من تاريخ مشرق ومبارك.

العودة للنجف

السيّد بحر العلوم هو ابن النجف البار وحامل شعلتها ورسولها، وقد أدّى رسالته كاملةً غير منقوصة. عاش في القاهرة وطهران والكويت ولندن وعاد محمّلًا بالحب والأشواق والحنين، رجع إلى أرض أسلافه التي أحتضنت كلية الفقه ومنتدى النشر. وبعد أن أسس مركز أهل البيت الإسلامي في لندن، أسس في العراق معهداً وصرحاً كبيراً هو معهد العَلَمَين: الشيخ الطوسي والسيّد بحر العلوم، فهنيئاً للسيد بحر العلوم هذه الرحلة الطويلة من النضال والجهاد والتاريخ المشرق، وهنيئاً له العودة إلى اللّه، نقيّ الثوب طاهر الأردان وضّاح الجبين، فسلامٌ عليه في الأولين والآخرين.

خسارة العراق بامثال بحر العلوم خسارة جسيمة، لأنهم رجاله الحقيقيون والمبدئيون؛ هم رجاله الذين حملوه على الأعناق عقوداً من الزمن. لقد خسر العراق اليوم كثيراً في غياب وفقدان بحر العلوم، وكذلك في بقية العلماء الافذاذ من امثاله، لكنهم عبروا إلى الضفة الأخرى ليعانقوا شجرة النور حيث الضياء السرمدي لكي يبقوا خالدين في الأرض والسماء. أما أولئك الجُناة، أولئك المجرمون البعثيون فما زالت تطوقهم أشجار العلقم بالقهر والذل والمهانة.

سماحة السيد حسين بركة الشامي في سطور

* هو السيد حسين بن السيد إبراهيم بن السيد بركة الشامي الغالبي، ويرجع نسبه إلى السيد الشريف غالب بن الشريف الرضوي شمس الدين، ويعود نسبه إلى السيد موسى المبرقع، بن الإمام محمد الجواد(ع).
* ولادته ونشأته:
* ولد السيد الشامي، في مدينة الشامية وهي من توابع محافظة القادسية، وذلك في ٢٠ من شهر صفر عام ١٣٧٢هـ ١٩٥٣م وأكمل دراسته الأبتدائية والثانوية فيها، وكان في تلك الفترة من رواد المسجد الجامع للمدينة، كما أنه كان كثير المراجعة والترداد على مكتبة الإمام الحكيم في الشامية، لغرض المطالعة واللقاء مع الأصدقاء، في أجواء الثقافة والأدب والتدين.
* دراساته:

عام ١٩٧٠م التحق بجامعة النجف الأشرف الدينية التابعة للإمام السيد محسن الحكيم، فدرس فيها علوم اللغة العربية وآدابها، والمنطق، والفقه، والفلسفة، وعلم الأصول. وكان من أساتذته السيد الشهيد محمد محمد صادق الصدر، والسيد كاظم الحائري، والسيد محمود الهاشمي الشاهرودي، والسيد حسين بحر العلوم، والسيد أحمد المددي، وغيرهم من اساتذة السطوح العالية والبحث الخارج. كما تلقى دروس التفسير الموضوعي على يد الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر رضوان الله عليه.

* حركيته:

وكيلاً للمرجعية الدينية، ومعتمداً لديها منذ شرخ شبابه، خصوصاً مرجعية الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر في مدينة الشامية، وعدة قرى ونواحي في محافظة ديالى، فكان إمام الجماعة وخطيب الجمعة، ومرشدا دينيا.

* إعتقاله:

تعرض للإعتقال مع المجموعة القيادية الأولى، وحكم عليه بالسجن المؤبد مع الشهداء الخمسة وهم الشيخ الشهيد عارف البصري وأصحابه. وقضى أربع سنوات في سجن (أبو غريب) بدأت من ١٩٧٤م إلى ١٩٧٨م.

* المنجزات الثقافية والأدبية:

١ - التوازن في الشخصية الإسلامية.

٢ - الزمن في حركة العاملين.
٣ - تهذيب التفسير الكبير / ٧ مجلدات.
٤ - المختصر من الكافي.
٥ - ملحمة قوافل النور.. ملحمة شعرية في سيرة النبي(ص) وأهل بيته.
٦ - المرجعية الشيعية من الذات إلى المؤسسة.
٧ - حزب الدعوة الإسلامية.. دراسة في الفكر والتجربة.
٨ - محمد باقر الصدر.. دراسات في حياته وفكره.. بالاشتراك مع آخرين.
٩ - الصدر الثاني.. دراسات في حياته وجهاده.. بالإشتراك مع آخرين.
١٠ - التعدي على الأوقاف في العراق.
١١ - كتاب الصلاة الجامع لروايات حريز بن عبد الله السجستاني الكوفي.
١٢ - البرنامج الأمثل لإدارة الدولة وقيادة المجتمع في ضوء عهد الإمام علي لمالك الأشتر.
١٣ - مقدمة في الإصلاح والتجديد للشعائر الحسينية.
١٤ - مقدمات في قضايا الفكر والتراث والسياسة والأدب.
١٥ - محمد مهدي الآصفي المفكر الداعية والإنسان.
١٦ - كان يشرف على إصدار مجلة الفكر الجديد الفصلية التي تعنى بالفكر وقضايا المسلم المعاصر في المهجر. ومجلة جامعة الإمام جعفر الصادق(ع) العلمية المحكمة في العراق.

* المؤسسات الثقافية والإجتماعية والخيرية:

- أولاً: المدير العام لمعسكر الشهيد الصدر في المهجر ١٩٨٠م:
- ثانياً: مدرسة عشرة الفجر ١٩٨٢م في مدينة قم المقدسة:
- ثالثاً: الحسينية الحيدرية في الشام ١٩٨٤م:
- رابعاً: حسينية المصطفى في لندن ١٩٨٧م - ١٩٩٢م:

خامساً: مؤسسة دار الإسلام الثقافية الخيرية في بريطانيا ١٩٩٢م:

- سادساً: ديوان الوقف الشيعي عام ٢٠٠٣م:
- سابعاً: هيئة الشهيد العراقي للخدمات الإنسانية ٢٠٠٣م:
- ثامناً: جامعة الإمام جعفر الصادق الأهلية ٢٠٠٤م:
- تاسعاً: مجمع دار الإسلام الثقافي الخيري في بغداد ٢٠٠٧م:

* الوظائف والمواقع

- عضو شورى جماعة العلماء المجاهدين في العراق عام ١٩٨١م.

- الأمين العام لمؤسسة دار الإسلام الثقافية الخيرية. منذ تأسيسها عام ١٩٩٢م.
- عضو الهيئة العامة للمجمع العالمي لأهل البيت(ع) منذ تأسيسه عام ١٩٩٠م.
- عضو الهيئة العامة لاتحاد علماء المسلمين في العراق.
- رئيس ديوان الوقف الشيعي منذ تأسيسه عام ٢٠٠٣م لغاية ٢٠٠٥م.
- مستشار رئيس الوزراء للشؤون الثقافية، من عام ٢٠٠٥ لغاية ٢٠١١م.
- عضو اتحاد الكتاب والأدباء العراقيين.
- رئيس مجلس الإدارة لجامعة الإمام جعفر الصادق(ع)الأهلية.
- عميد عشائر السادة الغوالب في عموم العراق.

السيد بحر العلوم:
شخصية في ثلاثة أبعاد

شهادة الدكتور الأستاذ عبد الأمير زاهد(*)

ريادة وتمرد

تميزت عمامة بحر العلوم بأنها رائدة ومتمردة، وثمة تماهٍ بين الريادة والتمرد. لدينا وفرة من العمائم كما لدينا وفرة من الساسة المثقفين، ولكن في تصوري، إنّ الذي يصنع التاريخ هو الذي يستطيع أن يمسك بناصية الريادة وناصية التمرد، الريادة عبر اقتحام مسالك جديدة وغير مألوفة يخشاها الآخرون، والتمرد على ما هو سائد ومألوف. تميزت عمامة بحر العلوم بأنها رائدة وهذه الريادة متماهية مع التمرد.

إصلاح سياسي

إنّ تمثّل بحر العلوم بالشيخ المرحوم محمّد رضا المظفّر امتاز بشيء هو التمثّل السياسي الرائد، ولعلّ تغير الأوضاع والمناخات والتجارب السياسية والتحديات أبرز هذا البعد لدى بحر العلوم بشكل أوضح.

نحن نرى هذا التأثر في آلية التفكير وخطوات الإصلاح ومنهجية التجديد، ولكن المفصل الأهم في تصوري هو أنّ بحر العلوم تلقّى فكرة الإصلاح السياسي وهي لم تتعد طور البرعم، فأضاف إليها وأكمل وتميّز فيها، فهو استلم بداية الخط من المظفّر ولكنه أصبح رائداً بذاته في النهاية.

وثيقة حقوق الإنسان

ظاهرة المبادرة في التجديد ومباداة الفعل والشغف بالجديد تطفو دوماً عند سيرة السيّد بحر العلوم في الكثير من المواقف، فمثلا كان السيد بحر العلوم أول معمم يوقع على وثيقة حقوق الإنسان في ثمانينيات القرن السابق وهذه الوثيقة وثيقة مدنية بامتياز. وهي خطوة رائدة ومتمردة، أفصحت عن طينته وخميرته المدنية. بحر العلوم أنا أقرؤه كخامة مدنية في ذاته، وقد حسم بتوقيعه على هذه الوثيقة في تصوري، الصورة النهائية لبحر العلوم لدى الآخرين، والتي تُتَرجَم بأنّها شخصية مدنية الفطرة، تحمل رمز الرؤية والسلوك المدني، وأنّ بحر العلوم هو أيضاً مدني في التطلع والريادة.. لقد أثبت أنه ينحاز إلى المدرسة الإنسانية التي تؤصّل لخيارات الإنسان وإرادته وحريته. من المعلوم أن هناك الكثير من الآراء والدراسات التي تثبت بأن الأعمّ الأغلب، إذا لم نقل أن كل بنود وثيقة حقوق الإنسان، قد أصّل لها الإسلام، ولكن وفق القراءة المدنية للإسلام وليس القراءة الراديكالية. نحن نعتقد بأن السيّد بحر العلوم أفصح بعمله هذا عن إيمانه بأنّ الدين هو مشروع يلبّي جميع نوازع وتطلعات الإنسان ويؤصل لحرية الإنسان، فهي أصل جميع التكاليف، وإنّ التكليف يصبح باطلًا وفاسداً إذا صُودرت حرية الإنسان، فلا معنى للخيارات بدون حرية وبدون تأصيل الحرية. وجوهر وثيقة حقوق الإنسان يكمن في أنها تؤصل الحرية: حرية المعتقد والضمير والاختيار، بالإضافة إلى الحريات العامة من حرية العمل وسواها.

رسالة للطاغية

من المعروف أنّ السيّد كان يهدف طيلة حياته إلى التأثير على السلطة والمجتمع في كل ما اتخذه من مواقف، ولكن في نظري، السبب العميق الذي حدا بسماحة السيّد إلى التوقيع على وثيقة حقوق الإنسان هو رمزية العمامة وما تحمله من إرث وثقل ومكانة تاريخية. لقد بَعَثَ ذلك برسالة واضحة إلى

الوسط الحاضن مفادها أننا نحتاج إلى تأصيل القيم المدنية في حياتنا، بالذات ما يتعلق منها بالتجربة الإنسانية، سياسية كانت أم اجتماعية أم ثقافية.

إنّ الأصل في رؤية السيّد بحر العلوم لمدنية الإسلام في تعاطيه مع مشروع الدولة وجوهرها يقبع في مفهوم الحريات، لأن جوهر الدولة يتأسس على أرضية من الحريات التي يتمتع بها المواطن في ظل مشروع الدولة.

بدأ اصلاحيا وانتهى ثوريا

في تصوري، توجد ثلاث مرجعيات: المرجعية التقليدية الموجودة لدينا، والمرجعية الإصلاحية والمرجعية الثورية. كانت مرجعية الإمام الحكيم حسب الكثير من الآراء المتخصصة مرجعية إصلاحية، وكان السيّد محمّد بحر العلوم أحد أعمدتها في أكثر من مقطع تاريخي. أرى أنّ سماحة السيّد بحر العلوم، بسبب وجوده في كنف المرجعية، قد أمسك برأس الخيط في مسيرة الإصلاح وبوادره، والتخطيط للمشاريع الإصلاحية على مستوى الأمة والدولة، بل إنني أزعم بأنّ السيّد بحر العلوم قد بدأ إصلاحياً وانتهى ثورياً. لقد بدأ السيّد محمّد بحر العلوم إصلاحياً متأثراً بهذه المدرسة، ولكنّه أظهر لاحقاً في مقارعته للسلطة المستبدة وفي رؤاه أنه كان رمزاً ثورياً وراديكالياً بالمعنى الإنقلابي الجذري على مستوى المفاهيم وعلى مستوى الأداء. لقد استفاد بحر العلوم من المشروع الإصلاحي للإمام الحكيم، ولكنه طوّره إلى مشروع سياسي رائد ومتمرّد على ما هو سائد سواء في وسطه الإسلامي الذي كان متقوقعاً على مقولاته ونظرياته وأدائه، أو السلطة المستبدّة، أو استحقاقات التاريخ في تطور حُقبه.

مشروع خاص لوحده

خرج السيّد من العراق بطريقة قسرية في العام الأول من حكومة البعث الثانية عام ١٩٦٩. إذا راقبنا أداءه كمعارض، وهو الذي بقي مستقلًا ورفض

الانضواء تحت عنوان أو يافطة، وكان صوتاً مدوياً ومؤثراً في حركة المعارضة العراقية سواء الإسلامية التي كان ينتمي إليها أو العلمانية التي لا ينتمي إليها، لكنه في كل مراحل معارضته لنظام السلطة الدكتاتورية كان صوتاً منفرداً ولم ينضوِ تحت عنوان أو حركة، وكان مع كل ذلك مؤثراً وفارضاً نفسه بدليل وجوده وحضوره الفاعل في جميع مؤتمرات المعارضة تقريبا.

ثلاث أبعاد في شخصيته

لقد اجتمعت في شخصية السيّد بحر العلوم ثلاثة عوامل حوّلته إلى رمز ومشروع بحد ذاته منذ عام ١٩٦١ وحتى نهاية حياته، فإنه لم ينضوِ تحت أية خيمة بل كان هو خيمة استظلت بها سائر القوى والحركات.

البُعد الأول في شخصيته الذي أهّله لهذا الدور هو أنّ عمامة بحر العلوم عمامة تاريخية لها ثقل كبير فهي لم تكن عمامة طارئة، بل كانت لها رمزية كبيرة في مجتمعاتنا.

العامل الثاني هو أنّ هذا الرجل أنتجه الوجع والمعاناة والمسير الشاق، وعندما لم يكن مؤسساً كان مشاركاً، وعندما لم يكن مشاركاً كان شاهداً على المرحلة بتحولاتها وتقلباتها. لذلك كان عندما يتكلم أو يبادر، يستحضر هذا التاريخ العميق من تجربته.

البعد الثالث الذي أهّله أيضاً هو أنّه كشخص، مشروعٌ قائم بذاته بسبب رؤيته ورمزيته العلمائية ولأنه ابن المرحلة وابن التاريخ والتجربة ومكابداتها، فلم يكن طفيلياً أو تابعاً أو مقيماً على الهامش، وصاحب الرؤية لا يمكن ان يكون ذيلًا ولا تابعاً. رؤيته لم تصدر من استنكاف أو تكبّر، ولكنه كان جريئاً اندفع نحو تجسيد رؤيته في وقتٍ انعدمت فيه الرؤى الجريئة والمتمردة، وهنا أعود وأؤكد على شخصيته الرائدة المتمردة. كان هناك الكثير من الرؤى التي كانت رائجة في الساحة، ولكنها كانت كذلك على مستوى الحلقة الحزبية أو الثقافة الحزبية أو في الأوساط الراكدة. كان بحر العلوم مشروعاً تأصيلياً

متمرداً ورائداً لاسيما في البعد السياسي، لذلك بقي رمزاً لم ينضوِ تحت أية خيمة، بل أنّ هذه الخيم هي التي انضوت تحته لأكتساب الشرعية والمباركة منه، وفي بعض الأحيان، من أجل تسويق وجودها من خلال شرعيته هو. وأثبت التاريخ أيضاً بأن من ناوأه وناوأ هذه الخيمة وشكّك بها في أدق مراحل المواجهة مع النظام والتجربة الاستبدادية، اعترف بأنه كان على خطأ، وإذا لم ينطقها بلسانه فقد نطقت بها أفعاله.

لماذا ذهب للكونغرس؟

رحلته للكونغرس الامريكي برفقة بعض ممثلي الطيف السياسي العراقي المعارض آنذاك، أقرأه ضمن فهمي لشخصيته ومزاياها المتفردة، فأهم عناصر شخصية محمّد بحر العلوم كانت الريادة والتمرد المقدس الهادف وليس العبثي. إنّ الخطوة التاريخية التي قادته إلى أمريكا كانت فاتحة لعهد جديد من السلوك المكتنز لكل قيم الأصالة، ولا أحد يمكنه التشكّيك بهذه العمامة ولا بهذا التاريخ ولا بطهارة الرمز. هذا الرجل أخذه وجع العراقي الإنسان والدولة والفكر، ووجع التاريخ الذي غذّته يد المستبد معه في هذه الرحلة. تلك كانت خطوة رائدة ومتمردة. رائدة لأن هذا الطريق ممنوع ومحرم بسبب الثقافة والقوالب والفهم النمطي الذي يصرخ بوجهك: دعك من الأمريكي، الأمريكي هو الأمريكي. هذه القوالب النمطية حاكمة للثقافة العامة عن طريق تسلطها على النخب والأوساط، ويحتاج التمرد عليها إلى ريادة؛ لا بدّ أن يكون التمرد هادفاً ومقدساً وقادراً على دفع الضريبة ومواجهة سهام النقد والتشكيك بهذا الثقل من الأصالة وبهذا الثقل من الطهر. عندما لا يكون الإنسان طاهراً ولا يملك ثقلًا من الرمزية يفعل التشكيك فعله. ولكن رمزية بحر العلوم وعمامته وطهره وسنّه، ولا أعني بذلك ما عاشه من عمر على وجه الأرض، بل هو سنّ التجربة والخبرة والوجع، حوّلت هذا التشكيك إلى تفاهة لا قيمة لها.

سفير للوجع العراقي

لقد أراد السيّد بهذه الخطوة أن يحمل الوجع العراقي إلى العالم لأنه يعي بأن العالم وحدة متكاملة متداخلة المصالح، فلا يمكن لهذا الشعب أن يعاني بمعزل عن العالم. دق الباب بكل ثقة وعزّة لكي يوصل رسالة الوجع إلى العالم، وطالبه بأن يتحمل مسؤولياته تجاه هذا الألم والنزف المستمر للإنسان العراقي وللدولة العراقية وللحلم العراقي.

هي خطوة أقل ما يقال فيها أنها رائدة، لأن الكثير من الناس كانوا يخافونها ويخشونها وهي متمردة تمرداً مقدساً على الرتيب من المفاهيم والرتيب من السلوك السياسي.

رؤيته للديمقراطية

إذا لم تُخَنّني ذاكرتي، فالسيّد العلّامة بحر العلوم تحدث عن الديمقراطية عام ١٩٨٦، ومن عاش مرحلة المعارضة العراقية وبالذات الإسلامية، يعي ما شهِدَتْه حقبة الثمانينات من ثقافة ومفاهيم وسيادة لنماذج سياسية حاكمة على الضمير وعلى السلوك السياسي. كان السيّد من أوائل الذين تكلموا عن الديمقراطية، وليس فقط كمصطلح وشعار. هنا، لا بدّ من التذكير بأنّ العديد من الذين يلهجون باسم الديمقراطية حالياً كانوا يكفّرون من يستعمل مصطلح الديمقراطية حتى قبل أن ينظّر لها. لقد اخترق السيّد المألوف والسائد وعمل لإحلال الديمقراطية. في هذا المفصل، أعود للتأكيد على أنّ خامة هذا الرمز، بحر العلوم، هي خامة مدنية إصلاحية بشكل عميق. ولكنها إصلاحية ترى بأن الدين في عمقه هو مشروع إنساني، وأنّ الإيمان بالله يختلف عن الدين. الإيمان بالله إيمانٌ يتحقّق باستحضار الله بالسلوك والضمير، ولكن الدين مشروع يخضع لكل الاعتبارات الأرضية. إنّ قراءة بحر العلوم للدين، كما أفهمها، هي أنّ الدين خطٌ متصل من الإنسان إلى الله وليس من الله إلى الإنسان، فالإنسان هو الغاية والهدف؛ الإنسان هو مأوى التجربة المدنية التي

هي خير مصداق لفهم أنسنة الدين، كما أنّ الديمقراطية خير مثال لعقلنة الدولة، لكي لا تصبح الدولة ملعباً تمارس فيه السلطة غرائزها، وصنماً لحاكمٍ مشتغلٍ بتكريس النفوذ وجمع الثروة. إنّ عقلنة الدولة تحتاج إلى مشروع، وأهمّ مشروعٍ متاحٍ هو الديمقراطية، وتقبّل السيّد هذا الأمر ونظّر له. ينظر السيّد إلى مفهوم الدولة من باب عقلنة السلطة وتوظيف قيم الدين فيها والاستفادة منه، وهو ما هو من ثقلٍ علمائي ورمزية قوية، هنا، يؤنسن بحر العلوم الدين لكي يصالح بين الدين والدولة. هذه ثنائيةٌ ذات نهاية قاتلة دفعنا ضريبتها ولا زلنا، بالقتال الموهوم الذي أنتجه الطلاق الموهوم بين الدولة والدين. لقد تكفّل مشروع الديمقراطية الإسلامية التي أنسنت الدين وعقلنة الدولة بإيجاد مساحة مشتركة من الفهم، ورتّبت عليه التحرك السياسي المنادي بأنّ الدين لا يمكن أن يختلف ويتعارض مع الدولة لأن جوهر الدين هو الإنسان بالفهم المدني، وجوهر الدولة هو الإنسان بالفهم المدني السياسي أيضاً.

السيد بحر العلوم لم ينته ولم يغيب انه هنا حيث تتجول روحه بين حجرات هذا المعهد العلمي الذي ارسى حجره الأول واختاره ليكون مثواه الأخير قريباً من انفاس العلماء ومسك قراطيس العلم، يصغي لاصوات الطلبة ومحاضرات الاساتذة ويبتسم من مثواه المنور لاستمرار وتواصل درب العلم والتجديد الذي كان قد بدا خطواته الأولى برفقة معلمه الأول محمد رضا المطفر.

الأستاذ الدكتور عبدالامير كاظم زاهد في سطور

* ولادة النجف الأشرف ١٩٥٠
* أستاذ الدراسات العليا في كلية الفقه /جامعة الكوفة
* بكلوريوس في اداب اللغة العربية والعلوم الإسلامية كلية الفقه /الجامعة المستنصرية ١٩٧٦
* ماجستير في الاقتصاد الإسلامي في أطروحة (التنمية في الاقتصاد الإسلامي)كلية العلوم الإسلامية /جامعة بغداد ١٩٨٧
* دكتوراه في القانون الدولي الإسلامي بأطروحة (احكام المياه الدولية في الفقه الإسلامي والقاانون الدولي العام) كلية العلوم الإسلامية جامعة بغداد ١٩٩٥
* دكتوراه في الفكر الإسلامي المعاصر كلية العلوم الدينية /جامعة القديس يوسف لبنان ٢٠١٥
* له (٥٥) بحث علمي منشور في مجلات علمية محكمة
* اشرف على أربعين رسالة وأطروحة جامعية في العراق والوطن العربي
* يجيد اللغتين العربية والانكليزية
* من مؤلفاته:

- دراسات في الاقتصاد الإسلامي دار الغدير /بيروت ١٩٩٩
- المدخل إلى النظرية العامة للقانون الدولي الإسلامي دار الغدير /بيروت ١٩٩٩
- قضايا لغوية قرانية انوار دجلة بغداد ٢٠٠٣
- التنظير المنهجي عند السيد محمد تقي الحكيم دار البشائر ٢٠٠١
- تأملات في النص القراني دار القضاء /نجف ٢٠٠٣
- المياه: التصور والحلول في الشريعة الإسلامية بيت الحكمة /بغداد ٢٠٠٣
- دلالية المفردة القرانية بيت الحكمة بغداد ٢٠٠٧
- احكام النهر الدولي في الفقه الإسلامي دار العارف /بيروت ٢٠٠٨
- قراءات في الفكر الإسلامي المعاصر المنتدا الوطني /نجف ٢٠٠٨
- مقدمات منهجية في تفسير النص القراني المنتدا الوطني ٢٠٠٨
- مقتربات في الفقه الإسلامي المقارن دار العارف /بيروت ٢٠١٢
- الفكر السياسي الإسلامي دار العارف /بيروت ٢٠١٣
- اشكالية الخطاب الشيعي النبراس /النجف ٢٠١٣

* المناصب العلمية والوظائف التي شغلها:

- المنسق الاكاديمي بين بيت الحكمة وجامعة الكوفة
- عميد منتخب لكلية الاداب /جامعة الكوفة من ٢٠٠٣ - ٢٠٠٥
- رئيس امناء بيت الحكمة من ٢٠٠٧ - ٢٠٠٦
- رئيس قسم الدراسات العليا في قسم الفقه واصوله من ٢٠٠٩ - ٢٠٠٧
- عميد كلية العلوم الإسلامية /جامعة كربلاء من ٢٠١١ - ٢٠٠٩
- مستشار رئيس جامعة الكوفة للدراسات العليا والشؤون العلمية ٢٠١٦
- مستشار اكاديمي في رئاسة الوزراء من ٢٠٠٦ - ٢٠٠٥

بحر العلوم صانع للتأريخ

شهادة الباحث حسين درويش العادلي(*)

أنقى من التجربة

إنّ تجربة السيد بحر العلوم في مجلس الحكم كانت في تصوري واقعة ضمن مفهوم إنقاذ ما يمكن إنقاذه. هذه التجربة هي لحظة مأزومة وقلقة ومعقدة جداً، هي لحظة كونية خارج السياق الطبيعي لبناء الدول. هناك احتلال وبلدٌ متداعٍ منهار؛ هناك رؤى وسياسات وإرادات داخلية وإقليمية وكونية. تجربة مجلس الحكم لم يُسلَّط عليها الضوء كما ينبغي وقد حان الوقت لكي تُفَكّك هذه اللحظة. في تصوري أنّ سماحة السيد محمّد بحر العلوم هو أكبر وأشمل من هذه التجربة، وبدقة أكبر، هو أنقى منها، ولكنها لحظة في تاريخ دولة، وهي لحظة تأسيسية لا يمكن المرور عليها دون مبالاة.

لقد عاصرت بعض الأنشطة لسماحة السيد في هذه المرحلة بالذات، فقد تولى مهمة كتابة قانون إدارة الدولة وغير ذلك من الأمور، وكانت له مواقف صارمة وراديكالية تجاه بعض المسائل.

إنقاذه ما يمكن

أذكر أنه في إحدى الأمسيات طلب مني ومن أحد الأصدقاء الحضور إلى منزله من أجل العمل على تحديد الموقف النهائي من مسودة قانون إدارة

(*) باحث وكاتب، ماجستير علوم سياسية.

الدولة، وتناقشنا في العديد من الأمور. كان السيد يملك رؤية واضحة تجاه آلية بناء الدولة والمعالم التي تستند عليها تلك التجربة، ولأنّ هذه اللحظة قلقة ومعقّدة وكونية، فإنه عَلِمَ أنه لن يتمكن منفرداً من تغيير منحى التاريخ، لذلك مارس سياسة إنقاذ ما يمكن إنقاذه. فهل أن هذه التجربة لبّت طموحه؟ أم أنها شكّلت وعاءً لرؤاه التاريخية والسياسية والفكرية والقيمية؟ أتصور أنها لم تكن كذلك، ولكنه استطاع أن يحفر فيها العديد من البصمات تحت عنوان «إنقاذ ما يمكن إنقاذه».

دورة حياة العالم

بعد أن انتهت هذه المرحلة وعاد إلى النجف، إلى موطنه الأول، وكان قد بذل كل جهده لإخراج معهد العَلَمَين إلى حيّز الوجود، وأن ينتهي هناك، لا على سدّة السلطة أو في عاصمة ما، وإنما في ذلك الصرح الكبير، حيث بدأت دورة حياته بمنتدى النشر في الأربعينات وانتهت في الصرح الذي شيّده في مكان قريب من منتدى النشر، هذه كانت دورة حياته الفكرية والمعرفية.

أظن أنّ ما ذكرتَه هو خير عنوان/ مانشيت لمسيرة السيد محمّد بحر العلوم: من دار النشر إلى معهد العَلَمَين. عقودٌ فصلت هاتين المرحلتين كانت جُلُّها عقود ألم ووجع وكفاح ونضال وجهاد وريادة وتمرّد مقدس. خاض بحر العلوم تجارب كان يخشاها أغلب مَن تجرّأ الآن فقط على ركوب الموج. حياة بحر العلوم ترجمة حقيقية فاعلة وحيّة تخبرنا بأنّ هذا الرجل كان ظاهرةً قائمة بذاتها. عندما ختم حياته بهذا المشروع، أراد بذلك إيصال رسالة مفادها أنه ابن هذا المشروع. بحر العلوم هو إنسان يحمل فكراً ورؤية، وهو كاتب قبل أن يكون سياسياً محنّكاً أو صاحب سلطة أو شخصاً يقيم توازناً في ظروف مستحيلة. هو ابن الكتاب والثقافة والفكر والتغيير، التغيير الذي أسس له في دار النشر وأصّله في معهد العَلَمَين.

المظلة والسند

في اللحظات الأولى من سماعي لنبأ وفاة السيد محمّد بحر العلوم، أحسست بأنني قد فقدت رمزاً كنت ألوذ به لكي أتقوّى. أنا أشاغب كثيراً في ما أراه من بعض الأفكار والممارسات، نحن نعيش - كنا ولا زلنا للأسف - زمن سوء نحتاج فيه إلى العون والرمز والسند، وكان السيد بحر العلوم رمزاً نستقي منه القوة ومظلة نتفيّؤ بها في الشدائد. شعرت بأنّ صدورنا أصبحت مكشوفة للسهام؛ شعرت بأن الحامي الذي كان يضفي الشرعية على كل أمر يرتضيه من أمورنا، قد رحل، ذهب وبقي الرمز والمشروع. كانت عمامته تسترنا وتقينا من الأذى حين كنا نقول ما نقول ولا نخشى أن تصيبنا السهام. عمامة بحر العلوم كانت الخندق الذي امتنعنا به. أعترف هنا: لقد تلقّى السيد محمّد بحر العلوم الكثير من السهام بالنيابة عنا، وبرحيله كُشِفَت صدورنا للسهام، وكذلك صدر كل رائد ومتمرد على السائد والمألوف، وعلى المقولب من الأفكار والمدنّس من التجارب والمرتهن من الإرادات.

فجيعة لعامة الناس

إنّ إجماع الناس على الإحساس بأنّ رحيل بحر العلوم فجيعة هي ظاهرة غريبة لم نجدها توفّرت لسواه مع احترامنا لكل الرموز الأخرى. لقد جمع محمّد بحر العلوم الناس ببعضهم، واجتمع حوله الكثيرون، وجاء الكل لتوديعه فكان التأبين كونياً ضمّ اليسار واليمين، الإسلامي والليبرالي. تمثّل التنوع الطائفي والديني والقومي بكامله في المحفل الذي التقى للوداع، فلم نجد فراغاً في مسيرة التشييع الذي جاء ليقدّم الاحترام للمشروع والرمز والقامة الشامخة. لقد حضر الجميع، كل الطوائف وكل القوميات وكل الإثنيات وكل الخطوط السياسية المتعارضة والمتضاربة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار كانت حاضرة على أعلى المستويات، هذا سوى من حضر من المحيط الإقليمي

والعالم. أنا أعتقد أن بحر العلوم كان رمز الأمة، لذلك احتفت به الأمة بكل رموزها وكل طوائفها وبكل قومياتها وإثنياتها ومدارسها السياسية.

في عرس موته

هذا الاحتفاء ببحر العلوم أرى أنه زفّة: الأمة تزفّه من دار الدنيا إلى دار الآخرة. لم يجتمع هذا الموكب لوداعه لأنه معمّم، ولا لأنه سياسي، ولا حتى لأنه رجل فكر، وإنما في الحقيقة لأنه جمع كل خير، بل وصنع تاريخاً، ومن يصنع التاريخ يخلده التاريخ. محمّد بحر العلوم صنع تاريخاً لأنه تصدّى لمعالجة إشكاليات كبرى على مستوى الدولة والفكر والمجتمع. كان رائداً صابراً مثابراً في أفعاله غير خانع ولا قابع. كثير من الرواد أصحاب الإشكاليات لا يواصلون طريقهم، وبقي السيد بحر العلوم لآخر يوم من عمره ثابتاً على الطريق. رشّحته هذه الصفات لكي يصبح ناسفاً للراكد والمقولب من الفكر والتجارب، وللخانع وللخائر من الإرادات السياسية والاجتماعية. عندما تجاوز بحر العلوم هذه المرحلة، تأهّل لمخاضه الثالث، وهو مرحلة الشاهد والشهيد: الشاهد على تجارب العصر الذي عاشه وثقافاته وإراداته، وهو عاش عصوراً. الشهيد على وسطه وأمّته ودولته والتجارب التي عاشها. إنّ دوره هذا كشاهد وشهيد هو الذي أهّله لكي يصنع التاريخ ويصيغ هذه الإشكالية، فكان رائداً ومواصلًا ومبطلًا للسائد الذي لا يستقيم به الأمر، ومتحدّياً للحاكم المستبد وداعياً مجتمعه إلى اكتساب الإدراك.

وهنا تأتي المسؤولية الكبرى لمحبيه والمؤمنين بخطه؛ كيف يتعاملون مع هذا الرمز وهذه الرسالة التاريخية التي تركها؟ هل نطوي هذه الصفحة التاريخية ونقول أن رمزها قد غادر بمغادرته المشروع؟ تأتي هنا برأيي مسؤولية النخبة ومسؤولية الأمة بمواصلة المشروع، مشروع حياة محمّد بحر العلوم.

يجب إبقاء محمّد بحر العلوم حيّاً كرمزٍ عن طريق النهوض بمشروعه،

وهذه مسؤولية من عاصره ومن تأثر بمدرسته ومسؤوليتنا نحن. وهي كذلك مسؤولية المراكز البحثية والأكاديمية، ومسؤولية القوى السياسية والنخب الوطنية التي عمل من أجلها ونصَرَ قضاياها كرمز وطني يمتاز بالحب والتسامح والريادة والتمرد المقدس.

السيد بحر العلوم وشجاعة الخطوة

شهادة الدكتور السيد عادل عبد المهدي(*)

مؤسس بامتياز

لقد كانت للسيد بحر العلوم في كل أعماله وحركاته مرجعية دائمة هي مرجعية السيد محسن الحكيم (قدس). السيد بحر العلوم هو بامتياز، من المؤسسين الأوائل للحركة الإسلامية في العراق. وقد سمعت منه مراراً، وكذلك سمعت من الشهيد السيد محمّد باقر الحكيم وصَفَهُما للجلسات الأولى التي كانت تعقد قبل ثورة ١٤ تموز، ربما في عام ١٩٥٧،وكيف اجتمع ثلة من العلماء للتداول في فكرة مفادها أنّ العمل الإسلامي، وخاصةً الشيعي، بحاجة إلى تنظيمات لم تكن موجودة آنذاك. كانت هناك منتديات، وجهد السيد بحر العلوم في أوساطها غني عن التعريف، فقد شارك في المنتديات الفكرية والمجلات الثقافية وكان له دور كبير في أواخر الأربعينات وحتى أواسط الخمسينات.من المعلوم جيداً أن العمل السياسي لكي يتبلور وينضج يجب أن تسبقه أعمال فكرية ولذلك هو بامتياز من مؤسسي الحركة الإسلامية العراقية الراهنة.

علماء مؤوسسون

بحسب علمي، لم يسبق أحدٌ هذه الثلة من السادة - أعني السيد بحر العلوم والسيد الصّدر والسيد الحكيم والسيد مرتضى العسكري - إلى تأسيس أي تنظيم أو تحرك إسلامي في تلك الفترة. كانت الحركة الإسلامية العراقية عند نشوئها آنذاك تستظل بمظلة المرجعية التي لم يزل السيد بحر العلوم

ملازماً إياها. تفرعت عن النواة الأولى للحركة الإسلامية أحزاب وحركاتٌ عدة منها حزب الدعوة، وهو من أشهر الحركات الإسلامية التي ظهرت حينذاك. وبرزت منتديات باسم علماء النجف وعلماء بغداد تتحرك بشكل واسع جداً.

رفيقا درب

لقد تعرفتُ على السيد بحر العلوم عبر السيد الشهيد مهدي الحكيم، وكانا متلازمين لا يكادان يفترقان، رغم أنّ من يعرفهما جيداً يعرف أنهما كانا دائماً في جدل حول أمر ما. كانا صديقَي طفولة ورفيقَي طريق، فكان أحدهما يطمئنّ للآخر تماماً، واشتركا في المشاريع سويةً، وعندما كنا نحضر الجلسات معهما، كان بينهما مزاح ومرح ومشادات وخلافات، وكان ثالثهما السيد مصطفى جمال الدين (رحمه الله). كانا يشكّلان على الدوام فريق عمل مشترك في كل شيء، على الأقل كما أذكر عنهما في الستينات في بغداد ثم لاحقاً في المهجر في لندن ودمشق وأحياناً في طهران. كانت لقاءاتهم كثيرة في لندن ودمشق، وكان الثلاثة متلازمين، وبقي السيد بحر العلوم والسيد مهدي الحكيم صديقين ورفيقي درب إلى آخر عمريهما.

مرجعية واحدة للعمل الحزبي

لم تكن الفواصل بين العمل الحزبي والعمل العلمائي واضحة تماماً آنذاك، وإنما كانت مختلطة جداً، حيث كنت تجد الإنسان الواحد ينتسب لجماعة ولكنه يعمل مع جماعة أخرى والعكس صحيح أيضاً. والسبب في ذلك هو أنّ العمل الحزبي بدأ تحت مظلة مرجعية النجف الأشرف واستمر على هذه الحال إلى أن برزت بعض الاجتهادات المختلفة مثل مسألة جواز اشتراك العلماء في عمل حزبي وسياسي أو عدمه.

لم أكن في العراق عندما استولى حزب البعث على السلطة عام ١٩٦٨، فقد غادرت البلاد قبل ذلك. لكن الأحاديث واللقاءات كانت تسمح باستشراف تلك المرحلة. كان أول مشروع في مخطط البعث هو التصدي للنظام، وقد أخذ هذا

الأمر أشكالًا متعددة، أهمها الالتفاف حول المرجعية. لقد حصلت تعبئة عامة للشعب العراقي، ليس فقط للشيعة وإنما للسنّة أيضاً والأكراد. أفتَت المرجعية بتحريم مقاتلة الأكراد، وكان هناك جهد وطني واسع لتطويق الحقن الطائفي الذي تطور مع عبد السلام عارف. عندما جاء البعث الثاني لاحقاً كشف عن هويته الطائفية بوضوح وقام بتصفية أعداد كبيرة حتى من البعثيين بسبب انتماءاتهم المذهبية، لذلك كان من اللازم محاربة هذا النظام والتصدي له.

عند عودة المرجع الأعلى السيد الإمام الحكيم (قدس) من لندن التي قصدها للعلاج، حدثت مظاهرات واسعة في العراق، تطالب بأن يتولى أبناء المذهب الجعفري مواقع أعلى وأهم في الدولة، بل تمت الدعوة إلى إقامة الحكم الجعفري، وكان شعار: «(ماكو ولي إلا علي، نريد حاكم جعفري») من ضمن الشعارات العفوية أو المنظمة التي انطلقت، ولكنها كانت بدايات تأسيس لطموح الشيعة بالوصول إلى الحكم. فقد كان هناك عزل متعمد للشيعة منذ تأسيس المملكة العراقية مروراً بالمراحل المتعاقبة، عن الوصول إلى مواقع رئيسية في السلطة والدولة والحكم. فنما هذا الاتجاه في الوسط الشيعي، وأعتقد أننا نجد جزءاً من ملامح المرحلة الحالية في هذا المشهد الذي بدأ في الستينات والسبعينات.

كان السيد بحر العلوم من أبرز قيادات هذه المرحلة سواء الإسلامية منها أو غير الإسلامية، وكان يحاول أن ينظم الصفوف في عمل دؤوب ونشط. إنّ كثيراً من القوى التي لم تكن تنتمي إلى العمل الإسلامي كانت تناصر هذا العمل دفاعاً عن مظلوميتها أكثر من أي شيء آخر، وهذا الأمر هو من الأحداث التي تحتاج إلى بحث وتعمّق وأرشفة وتفصيل كثير، لأن الظلم والاستبداد الذي أعقبها أخفى الكثير من ملامحها. هناك الكثير من الأسماء التي اختفت من الذاكرة، وهناك الكثير من المواقف التي لا نعرفها نحن، فما بالك بالأجيال اللاحقة، فهذا التاريخ بالتالي يحتاج إلى أرشفة، لكنّ المؤكد هو أنّ السيد بحر العلوم كان له دور أساسي في هذا العمل، وإذا أحصينا عشرة أسماء هي الأبرز في تلك المرحلة، فالسيد بحر العلوم يأتي في مقدمتها.

تهمة الجاسوسية

إذا أردت أن تحرق إنساناً فاتّهمهُ بالتجسس. هذا دأب السلطات الأحادية المتفرّدة: يقوم النظام بنشر صورٍ وترويج أقاويل أو اعترافات، وقد تم إعدام مئات إن لم أقل آلاف العراقيين بهذه التهمة المفبركة. تحضرني حادثة وقعت في منطقة الديوانية في الفرات الأوسط، عندما اتهمت الحكومة آنذاك السيد مهدي الحكيم والسيد محمّد بحر العلوم بالتجسس، فاشتعلت النيران وتصدى أبناء المنطقة للقتال دفاعاً عن أبناء المرجعية، وحملت العشائر السلاح. فحشدت الدولة قوات عسكرية في الفرات الأوسط بهدف الهجوم على العشائر المحتجة. اقترح المتصرف حينئذٍ الوساطة للوصول إلى تفاهم بدلًا من القتال. فتشكّل وفد من طرف الحكومة قام بزيارة زعماء العشائر، فبدأ المتصرف يشرح بأنّ الاتهام بالخيانة لم يُوَجَّه إلى المرجعية، فالسيد محسن الحكيم مرجع والكل يحترمه. لكنّ ابنه، بحسب قول المتصرّف، متهم بأشياء كما اتهم ابن نوح بأشياء، وهذا منصوص في القرآن الكريم. فقام أحد الفلاحين البسطاء وقال له: قصة ابن نوح مذكورة في القرآن الكريم، ولكن أحضر لنا كتاباً باسم السيد محسن الحكيم مذكور فيه أنّ ابنه جاسوس، فأُخذ على المتصرف هذا القول وهذه المقارنة، وفشلت هذه المفاوضات وبالفعل وقفت العشائر وانتفضت.

الغاية من الاتهام بالخيانة هي إسقاط الإنسان، وكان الحكم في ذاك الوقت متفرداً ولا مَن ينازعه، فكان قادراً على فبركة ما يشاء. اضطر السيد مهدي الحكيم والسيد بحر العلوم بعد ذلك لمغادرة العراق والذهاب إلى دول عربية وخليجية، ثم استقر المقام بالسيد بحر العلوم في لندن.

دمشق قلب المعارضة العراقية

قبل انتصار الثورة الإسلامية، بدأت اللقاءات بين أطراف عدة لتفعيل العمل الإسلامي والوطني، وكانت دمشق هي المكان الأساس لالتقاء العناصر

المعارضة. حدثت عدة محاولات لجمع كافة الأطراف، أي الإسلامية والشيوعية والوطنية والقومية والناصرية، بالإضافة إلى المجموعة البعثية المعارضة للبعث الحاكم، كان كل هؤلاء يلتقون في دمشق. لم يكن هناك مكان غير دمشق يرضى باستقبال المعارضة العراقية، فلا أوروبا كانت تستقبلهم ولا الدول العربية الأخرى، حتى ولا إيران قبل الثورة الإسلامية. بل إنّ اتفاقية الجزائر التي أُبرِمَت سنة ١٩٧٥ ألزمت كلًا من العراق وإيران بتسليم الأفراد الذين يمارسون نشاطاً معادياً لنظام الدولة الأخرى إلى حكوماتهم، وعليه، فالإيراني المعارض على الأراضي العراقية يُسَلَّم إلى إيران، والعكس صحيح.

لذلك كانت دمشق هي الملتقى، وبدرجة أقل لبنان، فهو بلد يعطي مساحة للحريات العامة، لكن المكان الذي كان يمنح رعاية من الدولة للمعارضة كان دمشق، وهناك تشكلت أول نواة للمعارضة الخارجية - بدأت الأمور تتغير بعد ذلك عندما انتصرت الثورة الإسلامية في إيران، فقد استقبلت إيران أعداداً كبيرة من العراقيين، ربما حتى أكثر من سوريا.

لولب مؤتمرات المعارضة

اندلعت الحرب الإيرانية العراقية بعد فترة قصيرة من عودة الإمام الخميني (قدس)، وعُقِدَت عدة مؤتمرات للمعارضة العراقية نتيجة لذلك، كلها ساهم بها السيد بحر العلوم. منها مؤتمر الكوادر ومؤتمر نصرة الشعب العراقي في بداية الثمانينات، بالإضافة إلى مساهمته في كل اللقاءات اللاحقة. لم يكن المجلس الأعلى بشكله الحالي قد تكوّن بعد، فالمجلس الأعلى آنذاك كان يضم كل الفصائل: منظمة العمل، جند الإمام، فصائل من السنة والأكراد، وليس حزب الدعوة فقط إضافة لمجاميع من العلماء والمثقفين كان السيد بحر العلوم من أهم المنظرين والمتحدثين والخطباء في هذه الاجتماعات، وبالتالي لعب دوراً أساسياً في هذه الحركة إلى جانب القادة الآخرين. ثم تطور العمل الإسلامي بالتدريج مع تطور الأحداث في المنطقة وبدأ يأخذ أبعاداً كثيرة كذلك استعاد

(الدعوة) ومنظمة العمل والتشكيلات في العمل السياسي، وأصبح (المجلس الأعلى) عنوانا لعمل السيد محمد باقر الحكيم واخوانه. حدثت حركة مهمة في لندن تختلف عن سواها من البلاد حين بدأ عمل المعارضة العراقية بتقنين نفسه عبر مركز أهل البيت(ع) التي كان السيد مهدي الحكيم والسيد بحر العلوم من أهم رعاته، وكان لحزب الدعوة نشاطات على غرار بقية الفصائل، إضافة إلى الفصائل الوطنية والكردية التي بدأت تتشكل، وبدأت صحف معارضةٌ مهمةُ بالصدور كتلك التي أصدرها المرحوم سعد صالح جبر الذي كان أيضاً يلقى رعاية من السيد بحر العلوم وبقية أخوانه، وبدأت حركةٌ معارضةٌ كبيرةٌ بالظهور لعب فيها السيد بحر العلوم والمجلس الأعلى دورا مهما.

نقلة نوعية

كان اجتياح الكويت هو النقلة النوعية التي حصلت بالنسبة إلى العمل المعارض العراقي، فقبل ذلك كان هناك تضييق واسع جداً على عمل المعارضة العراقية باعتبار أنّ أوروبا كانت داعمة للنظام القائم إلى حد ما والدول العربية كذلك. بعد اجتياح الكويت تغيرت الحالة تماماً وتبدّلت المناخات، وأصبح العنصر العراقي المعارض مقبولًا أكثر مما كان في السابق، واستطاع أن يعرّف الآخرين بمظلومية الشعب العراقي بشكل أفضل. رفعت الأمم المتحدة - خصوصاً بعد الانتفاضة - تقارير كثيرة بعضها عن السيد بحر العلوم وأسرة بحر العلوم التي كانت من الأُسَر التي لعبت دوراً أساسياً في الانتفاضة وفقدت الكثير من أبنائها المعروفين في هذا الطريق، فقُدّمت تقارير عن اختفاء مئات العلماء وآلاف المواطنين. هذه التقارير بدأت بتعرية النظام الصدّامي خصوصاً بعد الانتفاضة، فتشكلت نتيجة لها مساحات عمل أوسع فأوسع للمعارضة العراقية، وكان السيد بحر العلوم في صدارة كل النشاطات، فلم يتخلّف يوماً عن حضور لقاء، وكان على الدوام جسراً بين القوى يستطيع أن يوصل بين المختلفين، وصمام أمان ومظلة يستظل بها الجميع. عندما كان السيد بحر

العلوم يحضر في مكان، يطمئن الجميع إلى أنّ هذه الأجواء أجواءٌ صحيحة. هو رجل أدبٍ ونكتةٍ ومرحٍ وتاريخ، ورجل علمٍ ونضال وجهاد، ومزاياه هذه أكسبته احتراماً تامّاً من الجميع. أنا لا أعرف إنساناً له عداءٌ مع السيد بحر العلوم، مهما كان توجهه السياسي. قد يكون للبعض خلافٌ فكري مع السيد بحر العلوم، لكن لا يوجد له أعداء. الكل كان يحترم السيد بحر العلوم والكل كان يقبل دعوات السيد بحر العلوم.

شجاعة الخطوة

ذهاب السيد بحر العلوم ضمن الوفد العراقي المعارض للكونغرس الامريكي بعد فشل الانتفاضة الربيعية المباركة خطوة تتصف بشجاعة كبيرة، وكان على الكل أن يُدرك أن القضية العراقية ارتقت إلى مستوى عالمي لا غنى فيه ولا منأى عن التعامل مع الدول خاصة الكبرى منها. للأسف الشديد، الثقافة العامة الموجودة في البلد كانت ولا تزال ثقافة معارضةٍ بمعنى المعارضة الداخلية لنظامٍ كسرَ حرمة العلاقة بشعبه وحوّلها إلى إقصاء وتهجير وقتل. يجب أن يعيَ الناس أنّ هذه الجرائم جعلت من الملف العراقي قضية عالمية. وعندما يكتسب ملفٌ ما بُعداً عالمياً في الزمن الحاضر، يكتسب المعارضون بدورهم أبعاداً عالمية. إنك تحتاج إلى شجاعة كبيرة لكي تكسر نمط التفكير في الثقافة السائدة وتدخل في المساحات التي يُصنَعُ فيها القرار. العراق لم تعد معادلتُه معادلةَ حاكم لشعب فقط، وإنما أصبحت معادلة إقليمية، والحرب العراقية - الإيرانية معادلة إقليمية، واجتياح الكويت معادلة إقليمية، وكذلك ضرب السعودية بالصواريخ، ومثلها المسألة النووية. لقد أصبحنا جزءاً من معادلة دولية كاملة، فوجبت بالتالي إقامة العلاقات التي بوسعها نزع دعم وتأييد الدول للنظام الصدّامي. أعتقد أن هذا الأمر يعدّ من مواصفات النضج الكامل لدى أي قوة سياسية ووطنية تريد خير شعبها ومصلحته. ربما تكون هناك معادلات مسلّمٌ بها لفترة من الزمان، ربما لعشرين أو حتى أربعين سنة، ولكن المعادلات تتغير عند تدويل

القضايا وتوسُّعها، فينبغي التحلّي بالشجاعة حينئذٍ وكسر المسلّمات التي لم يعد التقيّد بها مجديا.

الأمور بخاتمتها

أذكر أنّ السيد بحر العلوم والسيد مهدي الحكيم كانا دائماً يؤكدان على أن الأمور بخواتيمها ويدعوان اللّه بحسن العاقبة. النظرة السليمة للمستقبل تقضي بأن لا نحكم على ردود الفعل اليوم، وإنما يكون الحكم على ما ستؤول إليه الأمور بعد القيام بأمور شجاعة كهذه. ها نحن اليوم نشهد بالفعل كيف أنّ الأمور كانت فعلًا بخواتيمها، فالشعب العراقي تخلص بتخلصه من النظام الصدّامي، من حالة كانت تغلق عليه المسارات الإقليمية والإسلامية الدينية. لقد انقلب الوضع، فالعراق اليوم ليس تابعاً لدولة من الدول. لقد امتلك العراق الآن إرادته وسيادته خصوصاً بعد انسحاب القوات الأجنبية وبعد إنهاء الاحتلال في العراق بإرادة الشعب العراقي وليس بإرادة أخرى. إنّ كسر هذا الطوق كان خطوة عملية شجاعة جداً في مسيرة الانتصار. وأنا أذكر في وقتها أني استلمت الكثير من الرسائل التي كانت تنتقد السيد بحر العلوم، ومازلت أحتفظ بها، وقد ردَدْتُ على مرسليها بقولي أنه يجب النظر للمستقبل وعدم المكوث في الماضي، لأنّ ما كان صحيحاً في وقتٍ ما لم يعد كذلك اليوم، فالصحيح اليوم هو أن نخرج إلى العالم ونشرح القضية ونتواصل مع الآخرين. كان للسيد بحر العلوم والسيد مهدي الحكيم قول مشهور: نحن كالبحر تدخل فيه خنازير الدنيا ولا يتنجس. يجب أن يندفع الإنسان إلى تحقيق ما يعتقده صحيحاً والأمور بخواتيمها ونرى كيف تنتهي المسائل، وقد انتهت - الحمدلله - على خير. كان السيد بحر العلوم رجلًا نقياً وصافياً، كان بحراً رائقاً بالفعل، ولم تكن تأخذه في الحق وفي اللّه لومة لائم. لم يكن يستعلي عن الاعتراف بالخطأ إذا حصل خطأ. هو رجل مستقيم وتفكيره العميق له بُعدٌ استراتيجي، وكان دائم الاستشراف للأمور التي ستحدث. في فترة مجلس الحكم كان دائماً

يسأل: ماذا بعد ذلك؟ عندما توقفت الحرب العراقية - الإيرانية كان لنا اجتماع مهم في لندن، وكان كل البحث مسلّطاً على المستقبل، ماذا سيحدث الآن؟ من عاش تلك المرحلة يعرف أنّ الشعب العراقي أصيب بإحباط شديد في عام ١٩٨٨ لأن الكثير من الناس كانوا يعتقدون أن هذه الحرب يجب أن تنتهي بتغيير سياسي في العراق، فكان الانطباع الذي تولّد عندما توقفت الحرب هو أنّ النظام سيستبد أكثر فأكثر وهكذا كان بالفعل. خسر السيد بحر العلوم صديق عمره وحليفه السيد مهدي الحكيم عندما تم اغتياله في الخرطوم من قبل عملاء صدام، وبعد توقف الحرب مع الجمهورية الإسلامية بأشهر قليلة جلسنا في دار السيد بحر العلوم وبدأنا نحلل: نظام بمليون جندي لا يستطيع أن يسرّحهم، وخزينة مفلسة وديون متراكمة، يُضافُ إلى ذلك إحجام الدول العربية عن تقديم المال إلى العراق: سوف لن يتمكن النظام من تحمل هذا الوضع وهو يدّعي الانتصار، فليس أمامه سبيل سوى الهروب إلى الأمام، واستنتجنا حينها أن النظام سيقوم بعملٍ ما، وأنه سيصنع بنفسه الفرصة للانقضاض عليه. البعض في تلك الجلسة ذكر اجتياح الكويت كاحتمالٍ مناسب للخطوة التالية التي قد يُقدِم عليها النظام ليحاول التخلص من هذا العبء الذي ترتب عليه، وحصل اجتياح الكويت بالفعل. كان السيد دائم التفكير بالمستقبل، ويسأل الإخوة عن آرائهم بكل بساطة. وكان إذا جلس مع أي إنسان له خبرة في التاريخ والأدب أو العلوم والسياسة، وجّه له سلسلة من الأسئلة؛ كان هو السائل دائماً وليس الملقّن. كان بحثه هو السؤال، ويطرح أفكاره عبر السؤال وليس عبر التلقين والخطابة وفرض الرأي، كان ذلك في الحقيقة من أهم أخلاقيات السيد بحر العلوم إلى آخر يوم في حياته. في آخر جلسة أمضيناها معاً قبل رحيله كان دائماً يسأل؛ كان يسأل كثيراً ويستمع جيداً ويعبّر عن رأيه بالسؤال ويضمّن رأيه فيه. فزيارته للدول العظمى كانت خطوة شجاعة جداً وتستحق التقدير والاحترام خصوصاً اليوم، بعد مرور أكثر من ربع قرن على هذه الحادثة.

مؤتمران مهمان

قبل الحديث عن دور السيد بحر العلوم في مجلس الحكم، ينبغي تذكّر أنّ السيد بحر العلوم شارك في مؤتمرين مهمّيَن قبل سقوط النظام. الأول كان مؤتمر فيينا عام ١٩٩٢، وكان بحر العلوم أبرز شخصية في هذا المؤتمر لأنّ المجلس الأعلى لم يشارك في مؤتمر فيينا بالرغم من تمثيله لأهم فصائل المعارضة الإسلامية. الثاني هو مؤتمر صلاح الدين عام ١٩٩٣ حيث انتُخِبَ السيد بحر العلوم للقيادة إلى جانب شخصَين آخَرَين هما السيد مسعود البرازاني وحسن النقيب، فهؤلاء كانوا أعضاء رئاسة الحكم الوطني العراقي في أوائل التسعينات، وهذا الإطار بقي فاعلًا بالرغم من أنه تفكك لاحقاً. ثم عُقِد مؤتمر لندن في ديسمبر ٢٠٠٢ وكان للسيد بحر العلوم منه موقف، وصولًا إلى التغيير الذي حصل بتدخل القوات. بالإضافة إلى ذلك، قام السيد بحر العلوم بعدة زيارات إلى واشنطن وغيرها من الدول الغربية تصحبه وفود عراقية منذ أوائل التسعينات.

بعد العودة إلى العراق، كلّف السيد محمّد باقر الحكيم شقيقه السيد عبد العزيز الحكيم مهمة التصدي للأمور السياسية، وكان السيد عبد العزيز والسيد بحر العلوم اثنين من الأعضاء الستة الذين أرسلهم المؤتمر الوطني العراقي إلى واشنطن في عام ٢٠٠٢. كان القرار قد اتُّخذ في داخل المجلس الأعلى بأن يقيم السيد باقر الحكيم في النجف بينما يتولى السيد عبد العزيز الحكيم قيادة العمل السياسي. وكان للسيد بحر العلوم نشاطا مستقلا عن ذلك رغم التشاور والتداول المستمر.

فتوى السيستاني

إنّ وجود السيد بحر العلوم في مجلس الحكم كان عملًا شجاعاً وكبيراً، فقد كان بإمكانه أن يبقى في النجف ويتفرغ لكتاباته كعالمٍ وأديبٍ ومفكرٍ ومؤرخٍ وعالم لغة. لكنه اختار التصدي للعمل العام، وكان في الحقيقة من أهم القوى

التي رفعت فتوى الإمام السيستاني في عدم إقرار دستورٍ سوى ذاك الذي يصدر عن جمعيةٍ وطنيةٍ منتخبة، وكان بحر العلوم يطرح هذه الفكرة باستمرار بالرغم من أنّ السفير بريمر كان ضدها. كان السيد بحر العلوم والسيد عبد العزيز الحكيم وعدد آخر من أعضاء مجلس الحكم المدافعين الأساسيين عن هذه الفتوى، وكانوا يرون أن لا سبيل لإقرار الدستور إلّا عن طريق جمعيةٍ وطنيةٍ منتخبة. في ١٥ نوفمبر ٢٠٠٣ حصل اجتماع في بيت الرئيس جلال طالباني، وكان عقد الاجتماع في بيت السيد الطالباني بدلًا من انعقاده في مقر مجلس الحكم احتجاجاً على موقف القوات الأمريكية، وكان السيد بحر العلوم وهو في طريقه إلى مجلس الحكم في جلسة سابقة، استوقفته القوات الأميركية، وحصلت مشادة اطلق فيها الجندي الأميركي على سيارة السيد بحر العلوم التي لم تكن مدرعة فأخترقت الرصاصة السيارة ليس بعيدا عن السيد.. فأحتج أعضاء مجلس الحكم ونقلوا اجتماعهم لدار السيد الطالباني، اما الاجتماع في دار الطالباني فقد ذهب في معظمه لتشكيل مجمّعات انتخابية مهمتها اختيار عناصر يقومون بإعداد مسوّدة الدستور. هذا الوضع كان أقرب إلى تجربة المضابط التي قامت بها بريطانيا في استفتاء عام ١٩١٩ في العراق خلال بداية الحكم الوطني الملكي. المجمّعات الانتخابية عبارة عن مجموعة من الأفراد، بعضهم يتم اختياره من الجامعات، وبعضهم من النقابات، وآخرون من بين الأهالي والعشائر. هؤلاء ينتخبون مرشحيهم لعضوية جمعية وطنية تقوم هي بإعداد مسودّة الدستور والتصويت عليه. اعترض ثلاثة أشخاص فقط على هذا الترتيب، واحد منهم كان السيد بحر العلوم بينما وافق البقية فتم المُضيّ بهذا المشروع. في وقت لاحق، تم خوض معارك في داخل مجلس الحكم حول هذا الأمر، وتمخّض عن ذلك أنّ المجلس أصبح مؤيداً لفكرة أنه لا مجال لصياغة الدستور إلا عن طريق جمعية وطنية منتخبة، وانصاع السفير بريمر وواشنطن لهذه الإرادة. بعد ذلك دخلت الأمم المتحدة على الخط، وتم نقل السيادة في حزيران ٢٠١٤ إلى الشعب العراقي، ثم أُجريَت انتخابات من أجل انطلاق جمعية وطنية بداية عام ٢٠٠٥.

كاتب الشباب المحبوب

السيد بحر العلوم في جلساته وضمن محيطه الخاص هو رجل منفتح. هو رجل ينقل رسالة الإسلام عبر الانفتاح وعبر تقديم الأطروحات التي تجتذب الآخرين ولا تنفرهم. هو رجل انفتاح ورجل علاقات عامة وترى أثر ذلك في شعره، في نكتته وفي مرحه، في كتاباته الجدية العلمية وفي كتاباته الدينية، في شخصيته وطبيعته وفي تواضعه. فهو ليس فقط نفسه وإنما المحيط الكامل في مجالسه وبين المحيطين به ومحبيه المقربين، هو يعيش في جو الانفتاح وفي جو كسب الناس إلى قضية وإلى فكرة وإلى ما يعتقد أنه الحقيقة. لم يكن يفرض رأيه كما يفعل البعض، وإنما يعبّر ويستمر ويشدّ اهتمام الناس إلى الحقيقة، وإذا فشلت طريقة يستخدم طريقة أخرى. كان السيد بحر العلوم في كل كتاباته رحب التفكير واسع الاطلاع. كان يؤلف وينشر كتباً بسيطة وأخرى معقّدة في كل مكان يعيش فيه، وهو حامل دكتوراه من جامعة راقية بالقاهرة بجانب دراسته الحوزوية.

قريبا من منتدى النشر وعبق الرابطة الأدبية

نهايته في معهد العلمين هي الخاتمة الطبيعية لشخص بهذه السيرة. بدأ بمشروع وانتهى إلى نفس المشروع، لم يبدأ كشخص وينتهي كشخص. الرجال العظام يخلّدون لأنهم أصحاب مشاريع خالدة. لقد انتصر مشروع بحر العلوم الوطني والإسلامي، فهو معزز وكريم وموجود. يتمتع ملايين الناس اليوم بما لم يتمتع به السيد بحر العلوم قبل خمسين عاماً أو ستين، من أجواء رحبة وحريات عامة ودينية. كان لبحر العلوم مشروع في المجال الإصلاحي وآخر في المجال السياسي، وكذلك في المجال العلمي والفكري، لم يكن شخصاً عابراً، ألّف بعض الكتب ثم مضى ونسيه الناس. عندما رحل بحر العلوم كان مؤسسة. لقد خرّج معهد العَلَمَين حتى الآن المئات من الطلاب وسوف يخرج الآلاف، وهو معهد جادّ مرتبط بمؤسسات عربية كالجامعة الإسلامية في لبنان التي يديرها الدكتور حسن الشلبي، المعروفة بمستواها العلمي. عُرِف بحر العلوم

بحرصه على دقة العمل واحترافيته، وأن يُعطى كل شيء قيمته الحقيقية. هذا المعهد لم يُبْنَ ليكون مصدراً مُدِرّاً للمال، بل صرح فعليّ من صروح العلم. يقدّم العَلَمَين اليوم لطلابه مجال الاختصاص في العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ولكنه لن يكتفي بذلك في المستقبل، فهناك توجّه ونية لإضافة الدراسات الطبية التي يدعمها تأسيس مستشفى. فأعتقد أن دار العَلَمَين مشروع سيذكّر بالسيد بحر العلوم وسيخلّده في الاتجاهين، وهو جهدٌ حمله السيد بمفرده، فلم تكن وراءه دولة ولا حزب ولا مؤسسة توفّر الإمكانيات من أرضٍ وعمارةٍ وأساتذة، وصولًا إلى سائر التجهيزات الراقية الموجودة فيه، وهذا جهد هائل. كان السيد يشرف بنفسه على الأطروحات والدراسات، وكذلك على قبول الطلبة وامتحاناتهم، ويتجول من قاعة إلى قاعة ويدعو الزوار وكبار القوم للتعرّف على هذا الصرح العلمي الكبير. لذلك، عندما يختار أن يكون مرقده في هذا المعهد، فهو يخبرنا أنّ هذا هو إرثه، أنه ذاهب إلى جوار ربه ولكن هذا المشروع سيبقى وسيعطي للعراقيين آلاف العلماء والمفكرين الذين يخدمون شعبهم، وأنّ هذه الشجرة معطاءة راسخة في الأرض، وسينعم بها أهل النجف وأهل العراق، بل كل العالم الإسلامي والعربي.

في طريقه للخلود

عندما شهدت مراسم الدفن، انتابتني مشاعر وأفكار عن الإنسان المجبول من التراب كيف يعود إليه. كيف أنّ مراسم دفن الإنسان تكون درسا قاسيا للتواضع في الحياة. كيف يواجه الإنسان قدر الموت الذي لا محيد عنه لأحد. في نفس الوقت، هناك شعور بعَظَمَة هذا الإنسان الذي احتضنه التراب واعتنقته الأرض، بحر العلوم فوق هذا القبر يتعملق بهذا الصرح الكبير. هو لم يبنِ مركزاً تجارياً قد يصيبه الإفلاس أو الربح أو تكون فيه منفعة خاصة للعائلة والأسرة من بعده، إنما بنى دار علمٍ تصديقاً للحديث: «لكل شيء زكاة وزكاة العلم في نشره». لقد قام بحر العلوم بعملٍ عملاق وكبير سيقوده إلى الخلود.

السيد عادل عبدالمهدي في سطور

* عادل عبدالمهدي من مواليد بغداد ١٩٤٢
* ينحدر من أسرة علوية سكنت الناصرية اصلها من الكوت
* أبوه السيد عبدالمهدي شغل منصب وزير المعارف في عهد الملك فيصل الأول لأكثر من مرة وكان عضوا في مجلس الاعيان وممثل لواء المنتفك في البرلمان العراقي بالعهد الملكي ومن هنا اكتسب لقبه (السيد عبدالمهدي المنتفجي)
* درس إلى الصف الخامس ثانوي في كلية بغداد وانهى البكلوريا في إعدادية التجارة في بغداد.
* غادر العراق لفرنسا ١٩٦٨ لاكمال دراساته العليا في العلوم السياسية والاقتصاد.
* عمل سكرتيرا ثالثا في الخارجية العراقية حتى فصله وسحب جوازه عام ١٩٦٩.
* عاش في دمشق وبيروت حتى اجتياحها من قبل العدوان الاسرائيلي عام ١٩٨٢ فعاد لفرنسا مرة أخرى حتى رجوعه للعراق ما بعد ٢٠٠٣
* رسالته في الدكتوراه التي لم تناقش كانت عن التشكيلات الاقتصادية/الاجتماعية للبلدان الإسلامية، والتي نشرت بالعربية في كتاب (الثوابت والمتغيرات).
* شغل منصب عضو مناوب في مجلس الحكم عن عبدالعزيز الحكيم
* شغل منصب وزير المالية في حكومة اياد علاوي
* شغل منصب نائب رئيس الجمهورية في البلاد منذ ٢٠٠٥
* تم تعيينه وزيرا للنفط في حكومة د.حيدر العبادي ٢٠١٤ ومازال
* قيادي في المجلس الاعلى الإسلامي منذ تاسيسه في ايران ثمانينيات القرن السابق
* تبنى الفكر الاشتراكي في بدايات حياته وانتهى به الأمر للإيمان بالفكر الشيعي المعتدل
* أصدر في باريس مجلة المنتقى بثلاث لغات وينابيع الحكمة باللغة الفرنسية، وله عدة اعمال ومؤلفات منها الموسوعة الاقتصادية، والثوابت والمتغيرات في التأريخ الاقتصادي للبلدان الإسلامية، ومقاربات في الاجتماع السياسي والاقتصادي، واشكالية الإسلام والحداثة وغيرها من مؤلفات وكتب مترجمة، واسس صحيفة (العدالة) وله افتتاحية يومية فيها.

رفيق الدرب
في إسقاط النظام الدكتاتوري

شهادة الدكتور أحمد الجلبي(*)

كان السيد محمّد بحر العلوم رجلًا صادقاً ذكياً ذا معرفة، منفتحاً على العالم، مؤمناً بدينه وبشعبه ويحب العراق وأهله، كما كان بعيداً عن الفئوية والطائفية. كان شجاعاً مقداماً يدخل في الغيب إذا ما اعتقد أنّ هذا الشيء يخدم مصلحة الشعب العراقي.

جذور الاعتدال

السيد محمّد بحر العلوم هو ابن عائلة بحر العلوم وهي عائلة علمائية معروفة في النجف، ولم يكن يوماً بحاجة لأن يثبت صحة مذهبه أو دينه، ولذلك كان يتصرف بمنطقية وبشعور بالمسؤولية في عمله الديني والسياسي. وعلى الرغم من أن السيد بحر العلوم هو ابن النجف، إلا أنه كان يعلم في الوقت نفسه أن العالم قد تطور وتغيّر، كما يعلم أنّ هناك من يتّخذ قراراتٍ تخص العراق ومصلحته وتتعلق بمستقبل الشعب العراقي ممن ليسوا في العراق وليسوا من المسلمين أصلًا، فقد كان ملمّاً بالأوضاع الدولية، وكان يعتمد على من يثق به في تفسير وشرح واقتراح العمليات التي يجب أن يقوم بها العالم إذا كان هناك ضرورة لذلك.

في اطار العراق وحده

لا يمكن للسيد بحر العلوم أن ينتميَ إلى حزب ذي مبادئ سياسية بعيدة عن الإسلام، فهو كما ذكر لي مرات عديدة، قد قارب الأحزاب الإسلامية وحتى ساهم في تأسيس بعضها، لكن أمله خاب من الممارسات التي حصلت. واستطاع أن يخرج من هذا الإطار الحزبي المحدود إلى الإطار الوطني العراقي ويعمل منفرداً في داخل هذا الإطار. كانت لديه قناعة ثابتة بأنّ الأحزاب هي التي ستسبب المشاكل للعراق في المستقبل، وكان يكره أن يكون الانتماء الحزبي فوق الانتماء الوطني.

صوت المعارضة في الخارج

كان خروج السيد بحر العلوم الاضطراري من العراق ١٩٦٩ناتجاً عن رؤية لمستقبل العراق يمكن ان يكون له دور فيها، فعندما احتدمت الأمور وجنح النظام في اعتدائه على أبناء الشعب العراقي، كان السيد قد توقع ذلك. وكان منسجماً مع الفكرة التي تقول: يجب أن يكون هناك صوت عراقي من النجف في خارج العراق. فكان السيد بحر العلوم يجمع، ويحاول أن يجمع العلماء الآخرين ويعمل معهم، وتعاون بشكل قوي وفعّال مع المرحوم السيد مهدي الحكيم ابن المرجع الكبير السيد محسن الحكيم، كما تعاون مع كل من السيد مصطفى جمال الدين والشيخ محمّد مهدي شمس الدين نائب رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان (رحمهم الله جميعاً). وكان يعمل دائماً لجعل صوت النجف مسموعاً بشكل حضاري في داخل المحافل السياسية العراقية والعالمية.

علاقة من الطفولة

إنّ علاقة أسرتنا (ال جلبي) مع أسرة آل بحر العلوم الكريمة علاقة قديمة تعود إلى القرن التاسع عشر، وكان اسم عائلة بحر العلوم معروفاً لديّ منذ طفولتي.

التقيت بالسيد محمّد بحر العلوم في النجف في شهر حزيران من عام ١٩٦٦، حين كنت طالباً أحضّر لشهادة الدكتوراه في الرياضيات في أميركا. كنت قد تعرفت قبل ذلك إلى السيد مهدي الحكيم وكذلك السيد محمّد باقر الحكيم خلال موسم الحج في سنة ١٩٦٥ في مكة المكرمة، حين ذهبت مع والدي لأداء فريضة الحج في تلك السنة، وكان والدي مدعواً من قبل الملك فيصل سعود لحضور مؤتمر إسلامي تزامن وقته مع موسم الحج. فتعرفت إلى السيدَيْن الكريمين في جلسات عديدة ونشأت بيننا علاقة طيبة. جئت من بغداد إلى النجف للسلام على المرجع الحكيم دون موعد مسبق سنة ١٩٦٦، وعندما دخلت البرّاني، استقبلني السيد محمّد بحر العلوم وكأنه يعرفني وسألني من أنت؟ فأجبته: فلان الفلاني، فأخذ بيدي وأدخلني لمقابلة السيد محسن الحكيم على الفور، وتشرفت بلقاء المرجع الذي حدثني ونصحني. بعد نصف ساعة أستاذنت من المرجع للخروج، وعند خروجي تحدثت مع السيد بحر العلوم وشكرته على ما قام به فقال لي: أبلغ سلامي لوالدك وأخيك، فشكرته مجدداً وقلت له: هذا الاجتماع بالنسبة لي هو من أهم ما حصل في حياتي فقال لي: يجب أن تهتم بالأوضاع في العراق لأنها صعبة. وكان ذلك أول لقاء لي به.

هجرته إلى بريطانيا

تواصلت علاقتي مع السيد بحر العلوم منذ ذلك الحين وقبل الثمانينات، فقد ذهبت للقائه في القاهرة حيث كان يدرس لإعداد اطروحته في الدكتوراه عام ١٩٧٩، وتحدثنا كثيراً حول تطورات الأمور في العراق وما سيجري فيها، وحول مخاوفنا من الوضع بسبب الاتجاهات التي ينحى إليها النظام من جهة تسلطه وتهديده لتاريخ العراق وتراثه بل وحتى تهديد المذهب فيه. بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، ذهبت للقائه ثانيةً وقلت له: يجب تأسيس مركز إسلامي عراقي في مكان يُسمَح لنا بالعمل فيه بحرية فقال لي: وأين يكون

ذلك؟ فقلت له: ليس في البلاد العربية ولا في أي بلد من بلدان الشرق الأوسط، وليكن في بريطانيا. فاستغرب هذا الكلام، وقال لي: كيف سأذهب إلى بريطانيا وأنا ابن النجف ومن عائلة تاريخها ديني ومرجعي، وكيف يمكنني الذهاب إلى بريطانيا وهي بلد غير إسلامي؟ فقلت له: هذا أمر يعود لك من ناحية ضميرك وتفكيرك وقبولك لهذا الشيء، أما من جهة المصلحة العامة لمن تمثله في العراق والشعب العراقي، فأعتقد بأنه من الضروري أن تؤسس شيئاً في بريطانيا، فقال لي وكيف يكون ذلك؟ فقلت له: هناك شخصيات وعوائل من جميع البلاد العربية ستقوم بدعمك. فطلب مهلة للتفكير في هذا الأمر، ووافق بعدها. توجّه السيد بحر العلوم إلى بريطانيا في بداية الثمانينات وكان له حضور مهم هناك. وفّر له أصدقاؤه ومحبوه من أهل الكويت مكاناً للإقامة، ثم بدأ بتأسيس مركز أهل البيت(ع) بالتعاون مع المرحوم السيد مهدي الحكيم وتكاتفت أيدي الخيّرين العراقيين لمساعدته على إقامة هذا المركز في لندن.

مركز أهل البيت

كان مركز أهل البيت أول مركز كبير ومهم يجمع العراقيين والمسلمين غير العراقيين، مثل الباكستانيين والأفغان والإيرانيين. كانوا جميعاً يتوافدون إلى هذا المركز حبا واكراما لمؤوسسه وراعيه السيد بحر العلوم وكذلك اكراما لرفيق دربه السيد مهدي الحكيم. كانت تقام فيه ندوات دينية وسياسية وعلمية بالإضافة إلى الاحتفالات الخاصة في المناسبات الدينية. كان السيد بحر العلوم يشجع دائماً على المعرفة، وكان له إلمام كبير بالقانون وعلاقة الشريعة الإسلامية بالقوانين الحديثة، وكان له دور كبير في نشر الفهم لهذه العلاقة، وكنا نتحدث، السيد وأنا، لساعاتٍ طويلة حول هذه المواضيع، أمسياتٍ كاملةٍ حتى ينتصف الليل. كان يسعى إلى بناء مكتبة علمية تضم المراجع المهمة التي تتعلق بتاريخ الإسلام والفقه والأصول، واستطاع في النهاية أن يبني هذه

المكتبة، فاشتهر هذا المركز وأصبح محطة للقاء العراقيين من جميع المذاهب والمشارب السياسية، لأنه كان يملك وجوداً مضيئاً، وكان حضوره مهماً بالنسبة للحركة السياسية العراقية التي انتهت بإسقاط النظام.

الى الكونغرس

كنتُ في تلك الفترة ما قبل الانتفاضة المباركة عام ١٩٩١ أعمل في الأردن، وأقصد بريطانيا بانتظام لزيارة والدَيّ. وفور وصولي إلى هناك، كنت أذهب إلى بيت السيد بحر العلوم وكثيراً ما ألتقي بالسيد مهدي الحكيم هناك، وكان يرافقني عند عودته إلى بيته في نهاية الجلسة كلٌّ من السيد بحر العلوم والسيد مهدي الحكيم اللذين كانا مهتمين غاية الاهتمام بكيفية تحرير العراق من النظام الظالم، وكنا نتباحث بهذا الأمر. وجرَت محاولات كثيرة من أطراف مختلفة للقيام بحركات تصب في هذا الشأن، فحصلت حركة الانتفاضة العراقية نتيجة لتراكم الظلم على الشعب وبتشجيع من بعض الدول التي وجدت خطرا في استمرار نظام صدام حسين، وذهب بعض العراقيين إلى كردستان لإنشاء مقرات لهم هناك، إلا إنّ هذه العلمليات لم تدم طويلًا، وكانت الحرب العراقية - الإيرانية طاغية على كل شيء في تلكم الأيام العصيبة.

في ذلك الحين، كان الأميركيون ينظرون إلى المعارضة العراقية، مع الأسف، على أنها إما تحت تأثير إيراني أو سوري، وهذان الطرفان كانا غير مرغوبين لدى الأميركيين. فتكوّنت لدينا قناعة كاملة بنظرية وصلنا إليها معاً وهي أن نظام صدام مرتكز على ثلاثة أمور:

أولًا، الاضطهاد والقمع في داخل العراق.

ثانياً، المال الكثير الذي يستعمله لدعم بقاء هذا النظام.

ثالثاً، التأييد والدعم الغربي والشرقي، وبالأخص الدعم الغربي لنظام صدام.

كنا نبحث عن كيفية إحلال التغيير وكانت هناك مقاومة وطنية للنظام في

الداخل، إلا أن المقاومة لنظام صدام في الداخل كانت مصحوبة بتضحيات كبيرة من الناس وتقديم الكثير من الشهداء، ولم يكن أثر هذه العمليات المقاوماتية البطولية على زعزعة النظام قوياً ومؤثرا بشكل كافٍ لأسقاطه. فعلى سبيل المثال، كان يُقتل مفوض شرطة في العمارة أو يحصل إنفجار في مكان ما من العراق، وباستثناء الحركات التي حصلت في كردستان وأنهكت نظام صدام، فإنّ العمليات الأخرى التي كانت تحصل داخل المناطق العربية في العراق لم تكن ذات تأثير كبير على الرغم من أنّ كلفتها من جهة الضحايا والتضحيات التي كان المجاهدون يقدمونها عالية جداً.

لهذه الأسباب، وصلنا جميعا إلى القناعة بضرورة العمل على تقويض العمودين الآخرين وهما المال المتدفق على صدام والتأييد الغربي الذي يسمح لنظامه بالبقاء، وبحثنا كثيراً حول كيفية اختراق هذا الأمر.

وثيقة الديمقراطية وحقوق الإنسان

كان السيد بحر العلوم عندما يثق بشخص فإنه يستمع إليه. فكنا نجتمع باستمرار ليس مع من هم يتوافقون مع آرائنا فحسب، بل حتى مع سائر الأطراف السياسية العراقية كالحركات القومية والحزب الشيوعي العراقي والحركات الإسلامية، بالإضافة إلى ممثلي الحركات الكردية كالأستاذ هوشيار زيباري، وكان أحد الأشخاص الذين نجتمع بهم كثيراً، وكذلك الحال بالنسبة للأستاذ المرحوم سليم الفخري وهو أحد الشخصيات المهمة التي كنا نتعاون معها ونستمع إلى آرائها. أذكر كذلك الأستاذ لطيف رشيد الذي كان يمثل الأستاذ جلال طالباني، وآخرين من حزب الاتحاد الوطني الكردستاني، والدكتور أياد علاوي، والأستاذ هاني الفكيكي الذي كان صديقاً مقرباً من السيد بحر العلوم. وصلنا في النهاية إلى قناعة راسخة هي أنّ علينا التحرك. فقام الأستاذ المرحوم سليم الفخري بالتعاون مع الأستاذ هاني الفكيكي والمرحوم السيد مصطفى جمال الدين والسيد بحر العلوم بإعداد وثيقة في شهر شباط سنة

١٩٩٠، أي قبل غزو الكويت، تحت اسم «وثيقة الديمقراطية وحقوق الإنسان في العراق»، وتم التوقيع عليها من قبل ٢٧ شخصية، وقد دعاني السيد مصطفى جمال الدين إلى التوقيع على هذه الوثيقة وكنت حينها في دمشق، فاستشرت السيد بحر العلوم الذي وافق على أن أوقع معهم. كانت هذه الوثيقة هي بداية العمل الجدي لتغيير النظام نحو نظام ديمقراطي في العراق.

كنا نتابع احتدام الأمور في العراق، ونجحنا في إغلاق باب الائتمان المالي العالمي لنظام صدام، وكان هذا الإنجاز كبيراً جداً، وكان السيد بحر العلوم مقتنعاً بهذا الأمر وداعماً لهذه الجهود.

إنّ إغلاق باب الائتمان المالي هو الذي دفع صدام لغزو الكويت. وعندما وقع الغزو، انفتحت أمامنا الأبواب، وبدأنا نطالب بأن يكون هناك عمل جدي لاستغلال هذه الفرصة لإنهاء النظام واسقاطه، فتواصل السيد بحر العلوم بشكل مكثّف مع المرحوم الأستاذ سعد صالح جبر، وكان هناك تنسيق أيضاً مع السيد محمّد باقر الحكيم والمجلس الأعلى في إيران بعد اغتيال المرحوم السيد مهدي الحكيم غدراً في السودان - وكنا قد نصحناه بعدم المشاركة في ذلك المؤتمر المشؤوم لكنه أصرّ على الذهاب فقتلته كواتم المخابرات العراقية هناك.

مؤتمر لدعم صدام في لندن

أما موقف السيد بحر العلوم حول إغلاق أبواب الائتمان العالمي أمام صدام حسين فكان سماحته مؤيداً. وأذكر أنّ النظام العراقي أعدّ مؤتمراً عُقد في لندن في آذار من سنة ١٩٩٠ وشاركت فيه شركات النفط الكبيرة، وكان الغرض منه هو تمكين النظام مالياً، فتصدينا لهذا المؤتمر، وكان الاشتراك فيه مقابل مبلغ مالي، فأرسلنا مجموعة من الإخوان للمشاركة والحديث ضد هذا التوجه. وقمنا كذلك بحملات في الصحف البريطانية والغربية ضد نظام صدام، وأبرزنا مخالفات النظام في مجال حقوق الإنسان واضطهاد الشعب

العراقي وتعذيب السجناء، وكانت مشاركة السيد بحر العلوم في هذه الأمور فاعلة وأساسية.

بعد ذلك، وقع الغزو العراقي على الكويت في شهر آب عام ١٩٩٠، فاجتمعنا وتحدثنا وبدأنا بالاتصال بالأطراف العالمية لكي ندعو الجميع إلى عدم الاكتفاء بإخراج صدام حسين من الكويت، بل إلى مساعدة الشعب العراقي على الخلاص من هذا النظام. عندما انهار وضع النظام العسكري في الكويت والعراق أثناء الحرب وحصلت الانتفاضة، قمنا بمحاولة دعم الانتفاضة.

كنا في شهر شباط من هذا العام قد بدأنا بالحديث عن الاتصال بالولايات المتحدة، وكانت الحكومة الأمريكية قد أوصدت الأبواب أمام الاتصال بالمعارضة العراقية حتى أثناء استعدادهم لقتال صدام حسين.

العمل المشترك

في سوريا، كانت هناك لجنة اسمها لجنة العمل المشترك، وكان الأستاذ فخري كريم هو الداينمو المحرك لها، فاقترح بأن يعمل بعض أفراد المعارضة العراقية في بريطانيا باسم اللجنة وينسقوا معها، لكن بشكل مستقل ودون أن يكونوا خاضعين لقرارات اللجنة في دمشق. فاتصلت بأصدقاء لي في الولايات المتحدة ممن ليسوا في الحكومة، وكان هناك شاب لبناني اسمه الدكتور «شبلي ملاط»، وهو صديق للسيد بحر العلوم، بالإضافة إلى شخص مهم جداً يعمل في جريدة الفايننشل تايمز اسمه «إدوارد مورتيمر»، والذي أصبح لاحقاً المستشار الأول لكوفي عنان في الأمم المتحدة. قمنا سوياً بتأسيس حركة لدعم العراق والشعب العراقي ومحاولة إسقاط نظام صدام حسين. فاتصلنا بمجلس العلاقات الدولية «Council on Foreign Relations» في نيويورك، وهو مجلس مهم، وأهميته مستَمَدة من أنّ الكثير من موظفي وزارة الخارجية الأمريكية الكبار يكونون في هذا المركز أولًا ثم يتم تعيينهم لاحقاً في وظيفة داخل الحكومة الأمريكية، وبعد نهاية عملهم يعودون إلى هذا المركز. كان

السيد بحر العلوم مدركا لمسألة العلاقات مع الغرب من اجل تخليص الشعب العراقي من الديكتاتورية، وضرورة التواصل مع هذه النخب من اجل القضية العراقية، اضف إلى ذلك، فهو وجه إسلامي معروف تتوفر فيه مقومات كثيرة ويمثل اتجاهاً جديداً بالنسبة للأميركيين، فوجوده ضروري لمصلحة العمل السياسي العراقي وتغيير الوضع القائم. كنا في حديث دائم حول التواصل مع الغرب، وكان السيد بحر العلوم يتحسس من ذلك ويتسائل: كيف يمكنني الذهاب إلى أمريكا وأنا ابن النجف، ولدينا تاريخ سيّء معها، فهي التي تدعم نظام صدام وهي السبب في بقائه قائماً، وهم من تركوه لاحقاً بعد أن قاموا بضرب العراق. ولكنه من جانب آخر كان مؤمنا بضرورة العمل على كافة الاصعدة والمستويات لاسقاط النظام وعلى استعداد ان يضحي بكل ما يملك ومن ضمنها سمعته من أجل إنقاذ هذا الشعب. وكان عارفا بأن الكثير من الانتقادات ستوجه اليه، ولكنه كان مقتنعا بضرورة أن يتضح أمام هؤلاء في تلك البلاد بأن النجف ليست مكاناً لتشجيع الإرهاب، بل هي منبر الحضارة الإسلامية ومحور لتوحيد حركة الشعب العراقي نحو الخلاص من هذا النظام.

وضعنا في خطر

ذهبنا إلى واشنطن في وفد ضم كلًا من السيد بحر العلوم، الأستاذ هوشيار زيباري وأنا. وعندما وصلنا إلى هناك، اتصلنا بالسيد محمّد باقر الحكيم (رحمه الله) وتحدث معه السيد بحر العلوم ثم تحدثت معه بعد ذلك وقلت له: سمعنا بأن هناك انتفاضة في الوسط والجنوب، ومن مصلحتنا أن تكون هذه الحركة وطنية الطابع، فلا تدخلوها في مجال فئوي ولا تقولوا بأنها ثورة إسلامية أو شيعية، لأن الأمريكان لديهم مئات الآلاف من الجنود والغرب موجودون هناك، ونحن لا نريد القيام بأعمال تجعلهم يبتعدون عنا ويقومون بأعمال قد تساعد صدام حسين في هذا الوقت الحرج، فقال لي السيد الحكيم: نعم، فلتقولوا إنها حركة وطنية. بعد أن أكملت حديثي مع السيد

الحكيم، أخبرت السيد بحر العلوم بجواب السيد الحكيم فقال لي: إنهم لن يستطيعوا ذلك، فقلت له: إذاً وضعنا في خطر، لأن هذا الأمر سوف يؤدي إلى دعم صدام حسين، وبالفعل، كان الأمر كما قال السيد بحر العلوم وأتضح فيما بعد أن وجهة نظره كانت صحيحة.

قمنا بترتيب لقاء مع لجنة العلاقات الدولية في مجلس النواب الأمريكي تضم ممثلين من كلا الحزبين الجمهوري والديمقراطي، وكان رئيس اللجنة أحد أعضاء الحزب الجمهوري لأنهم كانوا في ذلك الوقت هم المسيطرون على الكونغرس الأمريكي. ذهبنا إلى هذا الاجتماع وتحدثنا فيه، واستمعوا إلى حديث السيد بحر العلوم وكنت أترجم حديثه، فاستغربوا كثيراً من التفكير المنفتح والتمسك بالتراث وعدم التفريط به، وكان له أثر كبير. فقاموا بتوجيه عدة أسئلة له من ضمنها: هل أنتم خاضعون لإيران؟ فأجابهم السيد بحر العلوم: لا على الإطلاق، فالنجف هي مقر المرجعية الأساس والتاريخي، ونحن عراقيون عرب وهم إيرانيون، وذكر لهم أمثلة عديدة منها، هل الكاثوليك في أمريكا خاضعون للبابا؟

كان لحديث السيد بحر العلوم أثر كبير في تحسين أوضاعنا وصورتنا لديهم، وفي أثناء هذا الحديث، رأيت أنّ من المناسب نقل وجهة نظر السيد الحكيم، فقلت لهم: إن هذه الحركة في العراق جديرة بتأييد عالمي، لأنها حركة وطنية بعيدة عن الفئوية، فما كان من الشخص الذي قام بترتيب هذا اللقاء لنا إلا أن أومأ إليّ ثم قام بتأجيل الاجتماع، وقال لي: لا تتحدث بهذه الطريقة معهم لأنّ ذلك سينال من مصداقيتك أمام اللجنة، فسألته لماذا، فأجاب: لدينا عشرات الآلاف من الجنود هناك، وهم يرون بأعينهم الشعارات والصور التي يتم رفعها في هذه الانتفاضة. فأخبرت السيد بحر العلوم، فقال لي: قد أخبرتك بهذا الأمر.

أنهينا الاجتماع الذي كان له أثر كبير عليهم، فقالو لنا: هل قمتم بالاتصال بوزارة الخارجية الأمريكية؟ فأجبناهم: لا نرى فائدة من ذلك، فتساءلوا عن

السبب، فقلنا لهم: لأنهم لا يريدون رؤيتنا، فأجابوا: سوف نقوم بتكليف رئيس هذه اللجنة بالاتصال بوزارة الخارجية. ذهبنا مع مدير اللجنة إلى مكتبه، وهناك اتصل بالفعل بوزارة الخارجية وأبلغهم أن وفداً عراقياً من المعارضة جاء إلى واشنطن، يضم الأشخاص التالية أسماؤهم، فقالوا له: متى سوف يغادرون واشنطن؟ فأجبناه بأن لدينا موعد في نيويورك غداً، فقالوا له: لا توجد لدينا مواعيد لهذا اليوم، وأغلق الهاتف، الأمر الذي دفع بمدير اللجنة إلى الاستغراب الشديد، لأن هذه اللجنة لها أهميتها في الكونغرس الأمريكي وتعتمد عليها وزارة الخارجية كثيراً، ولكن في هذه القضية لديهم موقف سيء ورافض. فخجل رئيس اللجنة من الموقف الذي حصل واعتذر منا وقال أنه سوف يبلغ اللجنة بما جرى.

توجهنا بعدها إلى نيويورك، وكان للسيد بحر العلوم كلمة طويلة ورائعة في ذاك المحفل أيضاً، قام بترجمتها الدكتور شبلي ملاط، وكان لها وقع كبير.

بعدها ذهبنا إلى جامعة هارفرد في كامبرج التي تقع في ولاية «ماساتشوستس» وتحدثنا مع العراقيين المقيمين هناك.

غادرنا الولايات المتحدة إلى بيروت، حيث عُقد مؤتمر للمعارضة العراقية. كان السيد بحر العلوم يرى بأنّ مؤتمر بيروت سوف لن يأتي بنتائج، لأن كل من كان في المؤتمر يتكلم بحديث مختلف ومتناقض، فتجد أحدهم يقول بأنّ قواتنا تحارب في الكرادة، والآخر يقول غير ذلك، وكان من الواضح أن هذا المؤتمر سوف لن يخرج منه شيء مثمر.

صور الخميني هي السبب

ليس الصبغة الطائفية للانتفاضة الشعبانية كانت وراء افشال مساعينا في الحصول على الدعم الامريكي لاسقاط النظام في لحظات ضعفه، بل كان رفع صور الإمام الخميني والهتاف بشعارات الدولة الطائفية هما السببان الرئيسيان. والمشكلة تكمن في أننا لم نستطع كسر الطوق الأمريكي على

الاتصال بالمعارضة العراقية، وهذا الأمر بحاجة إلى وقت وتاريخ. لقد بدأت محاولاتي معهم على هذا الأمر منذ عام ١٩٨٦، وحصلت قضية مهمة في هذا العام تستحق الذّكر، ومن خلالها سوف تدرك كم كان السيد بحر العلوم واعياً لهذا الأمر.

نفاق وتناقض

في عام ١٩٨٢ وفي خضم الحرب العراقية - الإيرانية، كانت قوات النظام الصدامي قد أُخرجت من منطقة الأهواز في إيران، وبعد ذلك من منطقة ديسفول على أثر العمليات العسكرية للجيش الإيراني، حتى وصلنا إلى شهر أيار/مايس من العام نفسه، وكنت حينها اعمل في الأردن. اتصل بي السفير الأمريكي في الأردن، وشعرت بأنهم يريدون إنهاء الحرب عن طريق التغيير في العراق، فسألني: من هم الأشخاص الذين يمكن التعاون معهم من العراقيين؟ فقلت له: أعطني بعض الوقت كي أجيبك، وذهبت في اليوم الثاني إلى بريطانيا مباشرة والتقيت بالسيد بحر العلوم وأخبرته بأن الأمريكان يبحثون في مسألة التغيير، وعليه ينبغي الاتصال بالأحزاب الإسلامية، فضحك السيد بحر العلوم وقال لي: زُرْني في الغد. في اليوم التالي، جاء أحد ممثلي الأحزاب الإسلامية واجتمعنا معه وأخبرته بأن الأمريكان يسعون للتغيير فكان جوابه: من الذي كلفك بالحديث مع الأمريكان؟ فانهال عليه السيد بحر العلوم بالانتقاد وأنهى الاجتماع. بعد ذلك، أصبح هذا الشخص من أكبر المقربين للأمريكان بعد سقوط النظام! كان السيد بحر العلوم يسعى دائماً من أجل إيجاد طريق.

بالعودة إلى عام ١٩٩١، وعندما انتهى اجتماع المعارضة العراقية في بيروت، عدنا إلى بريطانيا، فقال لي السيد بحر العلوم: هؤلاء سوف لن يخرج من أمرهم شيء، وعلينا التفكير جديا بمشروع وطني، بدأنا بالتحضير لمشروع النهوض بالعمل السياسي العراقي، لكنه لم يكن مشروعاً من أجل الحصول على

مكاسب في المعارضة والوصول إلى تزعّمها، بل العمل لتغيير الوضع بشكل جدي في ظل التناقضات الموجودة في وسط المعارضة في ذلك الحين.

بعد أن انتهينا من اجتماع بيروت وقمنا بإنشاء لجنة العمل في بريطانيا بحضور السيد بحر العلوم وكانت تضم (١١) شخصاً، اتصلت بأحد الأصدقاء في أمريكا، وعلمت أنّ شيئاً خطيراً قد حصل وهو أنّ الولايات المتحدة الأمريكية قررت عدم مساعدة الانتفاضة، واتُّخِذ هذا القرار في مجلس الأمن القومي وكان ذلك في الأسبوع الثالث من شهر آذار. وفي الوقت نفسه، قرروا السماح لطائرات الهليكوبتر التابعة لصدام حسين بالقصف مع علمهم بأنّه سوف يقوم بقصف الناس الابرياء العزل وجماهير الانتفاضة، لكنهم لم يعترضوا على هذا الأمر. إلا أنهم، ولكي يمتصوا الانتقادات الموجهة إليهم في أمريكا، أعلنوا استعدادهم لاستقبال المعارضة العراقية، ولكنهم لم يتصلوا بأحد منا. في هذه الأثناء، قُمعت الانتفاضة في جنوب العراق باشد الاساليب وحشية وبربرية من قبل صدام حسين ومرتزقته وامام انظار الامريكان وبعلمهم.

السفيرة غلابسي

قبل أن تعطي امريكا الضوء الاخضر لنظام صدام بابادة الانتفاضة الشعبانية بشكل وحشي، تم تعيين سفيرة أمريكية في العراق هي«أبريل غلاسبي»، وكان لي صديق يرعى المصالح الأمريكية في العراق قبل أن تكون هناك سفارة أمريكية فيه بعد. كان اسم هذا الصديق هو «إيغلتون»، وقد عُيّن لاحقاً سفيراً للولايات المتحدة في سوريا. فعرض عليّ إيغلتون التعرف على هذه السفيرة قبل ذهابها إلى العراق، وذهبت بالفعل إلى وزارة الخارجية والتقيت بها هناك بحضور إيغلتون مع شخص آخر لا أعرف اسمه، وتحدثت معهم عن اضطهاد المعارضة، فانبرى هذا الشخص وقال لي: كونك شخص تتمتع بالخبرة الكافية ولديك القدرة على الحديث بطريقة مقنعة بالنسبة لنا،

فمن هم المعارضة في العراق؟! المعارضة هم كلًا من: الحزب الشيوعي، الأحزاب الإسلامية، حزب البعث السوري، والأكراد. إذا ما استثنينا الأكراد، هذه الأطراف الثلاثة لديها فكر شمولي ورغبةٌ بالاستئثار بالسلطة. فأحزابهم سرّية وقياداتهم غير معروفة، وكلّهم منغلق ويدّعي امتلاك الحقيقة كاملة، فإنهم من الناحية المعنوية شأنهم شأن صدام ويشبهونه في هذا الأمر، وإذا ما استلموا السلطة فأنا واثق من أنهم سوف يمارسون الاضطهاد نفسه الذي يمارسه صدام حسين، فهم أصحاب سوابق في تاريخ العراق، وبالتالي فهم لا يختلفون عن صدام من الناحية الأخلاقية، والفرق الوحيد بينهم وبينه هو أن الأخير شخص ناجح بينما أهل المعارضة فاشلون.

تفاجئت كثيراً بهذا التحليل؛ هم إذاً كانوا يرون بأن هناك أشخاصاً لهم الشكل نفسه، منهم من هو ناجح ومنهم من هو فاشل، فلمَ يدعمون الفاشل منهم إذاً؟

لهذا السبب، عملنا على تغيير هذه الفكرة، فبعد أن بدأ تدفق اللاجئين من العراق وخاصة من شمال العراق، حيث غادر ملايين الأكراد العراق باتجاه تركيا وإيران، التقيت بالسيد بحر العلوم وتداولنا بالامر وتوصلنا إلى فكرة، وهي كتابة رسالة لوزير الخارجية البريطانية «دوغلاس هارت» حينها، يُذكّر السيد بحر العلوم فيها: إنّ هناك لاجئين تبلغ أعدادهم الملايين قد خرجوا من العراق، الأمر الذي يهدد الأمن والسلام في المنطقة والعالم، ولذلك ينبغي أن يتخذ مجلس الأمن قراراً حول هذا الموضوع من أجل إيقاف اضطهاد الشعب العراقي، ولتكن بريطانيا هي من تقود هذه العملية. وبالفعل كتبنا هذه الرسالة وقمنا بإرسالها إلى وزارة الخارجية. في غضون أيام، جاءنا جوابٌ من وزير الخارجية البريطاني يقول فيه: إنّ الخطة التي عرضها السيد بحر العلوم، على الرغم من احتوائها على شيء من الجسارة، إلا أنها لن تنفع في عقد مجلس الأمن.

إلا أنّ استمرار الأحداث دعا رئيس الوزراء البريطاني «جون ميجر» لأن

يدعوَ مجلس الأمن للانعقاد في جلسة اتُّخِذ فيها القرار (٦٣٨) الذي يعد القرار الأول من نوعه، فقد تم الفصل بموجبه بين الشعب العراقي والحكومة العراقية، ونصّ على مطالبة الحكومة العراقية بالتوقف عن اضطهاد الشعب العراقي. وكانت هذه المسألة كبيرة ومهمة، وقد ساعدتنا في المستقبل في مواضع كثيرة، فقد أصبح هناك قرار دولي يفيد أنّ الحكومة العراقية لا تمثل الشعب العراقي، وهي تضطهده.

بعد ذلك، وفي شهر حزيران من العام ١٩٩١، قررنا عقد اجتماع آخر للمعارضة العراقية بعد الاجتماع الذي تم في بيروت، إلا أنه لم تحصل أي حركة في هذا الاتجاه. فذهبنا في وفد إلى سوريا مع السيد بحر العلوم، وبعد أن حصلت بعض الإشكاليات في الدخول، تمكنا أخيراً من الدخول إلى سوريا وحضور اجتماع المعارضة العراقية. كان اجتماعاً كبيراً وصاخباً، ورأينا أنه سوف لن يؤدي إلى أيّة نتيجة، فعدنا إلى بريطانيا وبدأنا بالإعداد لاجتماع جديد للمعارضة العراقية. حصلت قضايا عدة في العراق منها إرسال مراقبين حول مسألة الأسلحة النووية وأمور أخرى قادت إلى عمليات التهديد بالقصف. فرأينا أنّ أهم ما يمكن أن نقوم به قبل عقد اجتماع للمعارضة هو إبراز اضطهاد النظام للشعب العراقي ومعاناة الناس. فبدأنا بالترويج لهذا الأمر وخاصة بعد الاعتداء الذي حصل على مدينة النجف عقب الانتفاضة والذي دفع فيه السيد بحر العلوم وعائلته ثمناً باهظاً، إذ استشهدت إحدى كريماته وإخوانه وأولاد عمه واغلب الرجال من اسرته. هذا الأمر أضفى حالة من التراجيديا على شخصية السيد بحر العلوم، لأنه قدم ضحايا وخسائر كبيرة نتيجة لهذا الاضطهاد، ولذلك كان وجوده يضفي على القضية مصداقية كبيرة.

معاً في الكونغرس

وصلنا إلى مرحلة استقبالنا في الكونغرس الأمريكي. طلب الكونغرس من الرئيس الأمريكي «بوش» الأب اللقاء بشخصيات من المعارضة العراقية، بعد أن

وصل الكونغرس إلى قناعة هي أنّ الاتصال بهؤلاء يصبّ في مصلحة الولايات المتحدة الأميركية، لأنهم يطرحون أفكاراً وقضايا مهمة جداً قد توفّر على أمريكا عناء قصف العراق وتضعه في مجال مساعدة الشعب العراقي في تغيير النظام. وبالفعل تم تحديد موعد للاجتماع في مجلس الأمن القومي، وعندها عدت إلى بريطانيا وأبلغت السيد بحر العلوم بما جرى وبأنني سوف أذهب إلى هذا الاجتماع، فضحك وقال لي: أنصحك بالحذر أثناء ذكر هذا الموضوع إلى الإخوان في المعارضة، فقلت له: ولماذا؟ فقال لي: لأنهم قد يستغلون هذا الكلام ضدك.

ذهبنا إلى الاجتماع، وطرحنا عليهم أفكارنا وقلنا لهم: الحكومة الأمريكية على استعداد للتعاون معكم إذا ما عقدتم اجتماعاً تبنيتم فيه هذه الأفكار. فبدأنا العمل على هذا الأمر، وقمت بنشر عدة مقالات في الصحف الأمريكية. بعدها، أبدَت بعض الأطراف في إيران اهتماماً بهذا النشاط، حتى إنهم اتصلوا بنا من السفارة الإيرانية واجتمعوا باطراف المعارضة العراقية في بيت السيد بحر العلوم، وقد رحبوا بالجهد الذي نقوم به وأكدوا تأييدهم لنا.

في بداية عام ١٩٩٢ تقدمنا بدعوةٍ لعقد مؤتمر للمعارضة العراقية في أوروبا، وقد لعب السيد بحر العلوم دوراً كبيراً في هذا المجال، إلا أنّ هذا المؤتمر أثار حفيظة الدول الإقليمية، لأننا نعمل على إنشاء كيان ننقض فيه تسلط الدول الإقليمية على حركة المعارضة، ولهذا السبب، كانت ردّة فعل هذه الدول فيها شيء من الفتور.

قمنا بإنشاء لجنة تأسيسية للدعوة إلى المؤتمر الوطني، وكان السيد بحر العلوم ركنا أساسيا في المهمة، ثم اتصلنا بأعضاء المعارضة العراقية الموزعين في أماكن مختلفة من العالم، فذهبنا إلى فيينا حيث كان الأستاذ مسعود البرزاني مقيماً، وكانت كردستان حينها على أبواب انتخاباتٍ برلمانية في شهر أيار من عام ١٩٩٢. اجتمعنا بالأستاذ مسعود في فيينا وانضمّ إلى الاجتماع الأستاذ أديب الجابر الذي سهّل الأستاذ مسعود مجيئه من سويسرا. فكان

جواب الأستاذ مسعود: نحن على استعداد للمشاركة في هذا المؤتمر، لكن إذا أردتم أن تكون هناك مشاركة حقيقية فعليكم الانتظار إلى ما بعد الانتخابات، فأخذنا هذا الرأي بنظر الاعتبار.

نجاح مؤتمر فيينا

بعد ذلك توجهنا مع السيد بحر العلوم إلى إيران، واجتمعنا بالسيد محمّد باقر الحكيم (رحمه الله) والسيد عبد العزيز الحكيم (رحمه الله) في بيت السيد محمّد باقر، فكان جواب السيد محمّد باقر بأنّ هذا النشاط جيد، ولكن يجب أن لا تثيروا استياء الدول المحيطة بالعراق وسوف أرسل لكم لجنة، وبالفعل جاءت هذه اللجنة واجتمعنا بها، وكان رأيها هو الانتظار في الوقت الحالي وعدم القيام بأيّ شيء، الأمر الذي أدى إلى استياء السيد بحر العلوم، ومؤكدا لي قناعته السابقة بعدم جدوى اللجوء إلى إيران؟ قلت له: كان من الطبيعي أن نتحدث معهم، فقال لي: كلا، هذا الكلام غير صحيح، ولا نقبل به، إذ أن علينا أن نمضي قدماً، فقلت له: دعنا نتريث قليلًا، ثم نحدد موعداً لا نتخلى عنه. عدنا إلى بريطانيا وبحثنا في موعد المؤتمر الوطني وقررنا أن يكون في فيينا في الشهر السادس من عام ١٩٩٢. وفي هذه الأثناء، تقرر الذهاب إلى السعودية لأداء العمرة، لكن لم يأتِ أحد لزيارتنا، فما كان مني إلا أن حجزنا موعداً للعودة، وفي اليوم الذي أردت فيه مغادرة السعودية، توجه نحوي أحد ضباط الأمن في المخابرات السعودية وطلب مني البقاء، فقلت له: لا أستطيع البقاء فلدي مؤتمر وعلينا التحضير له، وقد تركنا رسالة للأمير تركي الفيصل. فعدتُ إلى بريطانيا وعقدنا المؤتمر في فيينا ونجح نجاحاً كبيراً، وكان من أهم أسباب نجاحه هو وجود وتبني السيد محمّد بحر العلوم.

بعد ذلك، اهتم الأمريكان بتفعيل دور المعارضة، فوجهوا لنا دعوة للقاء وزير الخارجية الأمريكي «جيمس بيكر»، فقال لي السيد بحر العلوم: لا أود الذهاب مرة أخرى إلى أمريكا ولقاء وزير الخارجية هناك، فقلت له: ان وجودك

ضروري هناك، وبالفعل ذهبنا إلى الاجتماع وترأس الوفد السيد بحر العلوم، وكان اجتماعاً ناجحاً جداً. سألَنا «بيكر» عن سبب عدم حضور المجلس الأعلى في المؤتمر الوطني، فقلت له: نحن نسعى لعقد اجتماع آخر على أمل أن يشاركوا فيه، فذهبنا إلى طهران وأقنعنا السيد محمّد باقر الحكيم (رحمه اللّه) بمشاركة المجلس الأعلى في الاجتماع. وقمنا بعقد اجتماع آخر قررنا أن يكون في كردستان العراق، وقبل أن يعقد المؤتمر الثاني، عقدنا اجتماعاً في شقلاوة وآخر في صلاح الدين.

كان السيد بحر العلوم مشاركا وفاعلا في هذه الاجتماعات، وكنا نذهب إلى هناك جواً حتى نصل إلى الحدود العراقية عن طريق إيران، ونستقل بعد ذلك السيارت. كان الوضع هناك صعباً جداً بسبب الطرق الوعرة وخطر الملاحقة من نظام صدام حسين، لكن السيد بحر العلوم لم يتلكأ يوماً عن الحضور، وكان دائم الدفاع عن أي تحرك ضد نظام صدام حسين، وكان له دور كبير في إضفاء المصداقية على عملنا، بالإضافة إلى دوره الإيجابي في الكثير من القضايا والأمور التي حصلت.

اجتماع «ألْ غور»

بعد انتصار «كلينتون» في الانتخابات، وقبل أن يتسلم السلطة بأسابيع، أعلن بأنه مسيحي معمداني وأنه يؤمن بالصفح والعفو على فراش الموت، وقال: إن الحرب مع صدّام ليست حربي. هذا الأمر فتح نافذة أمام صدّام للخروج من عزلته. انزعجنا كثيراً من هذا التصريح، فاتصلت بمستشار المسؤول عن شؤون الشرق الأوسط وقلت له: ما هذا الكلام؟ يجب أن تكون هناك دعوة لاجتماع مع الإدارة الجديدة للمؤتمر الوطني في أول مائة يوم من استلام الرئيس، فقال لي: سوف أسأل عن هذا الأمر. بالفعل، ذهبنا إلى واشنطن وكان السيد بحر العلوم يترأس الوفد، وبعد الاجتماعات، اتصلنا بهم وطلبنا أن يكون للسيد بحر العلوم احترامه الخاص، فقالوا لنا: سيكون هناك

اجتماع مع «آل غور»، فسألني السيد بحر العلوم: عن محاور الحديث معه، مقترحا طرح مشكلة الاهوار؟ فقلت له: نعم، هذا الشخص مهتم بالبيئة، ونحن لدينا كوارث تحدث في الأهوار، لذا من المفيد الحديث عن تجفيف الأهوار. فركز سماحة السيد بحر العلوم حديثه حول هذا الموضوع، وأخبرني السيد بحر العلوم أن أنغور تجاوب بقوة. لقد ترك السيد بحر العلوم انطباعاً جيداً في ذلك الحين وكان له دور مهم.

على سبيل الطرفة، عند عودتنا إلى بريطانيا، ذهبنا لحضور الاجتماع الدوري للمؤتمر الوطني، وتأخر السيد بحر العلوم في الحضور فقالوا لي: أين هو سماحة السيد بحر العلوم؟ فقلت لهم: ثمة مظاهرة للعراقيين أمام السفارة الأمريكية في لندن، وأعتقد أن السيد بحر العلوم قد شارك فيها، وعندما اتصلت به، وجدت أنه هناك بالفعل فقلت له: ما الذي تنوي فعله هناك؟ فقال لي: أود تقديم ورقة بالمطالب التي نريدها إلى السفارة، فقلت له: كل ما بوسعك القيام به هو أن تقدم هذه الورقة إلى الشرطة الذين يقفون أمام السفارة، والذين سيقومون برميها في سلة النفايات، بينما أنت كنت في زيارة إلى البيت الأبيض! فقال لي: لكنني متعاطف مع هؤلاء الناس، فقلت له: لا بأس، ولكننا الآن في اجتماع مهم ونود حضورك، وبعد ان شارك مع اخوانه في التظاهرة، حضر إلى الاجتماع.

ذكرت هذه الحادثة لأقول أنّ السيد بحر العلوم كان يشارك جميع الناس بقضاياهم المختلفة، وتفعيل كافة الشرائح نحو الهدف المنشود.

كان للمعارضة العراقية مقر دائم في كل من كردستان ولندن. بلغ عدد الوفود التي أرسلناها إلى المجلس الدولي منذ عام ١٩٩٢ وإلى ما قبل سقوط النظام ٢٣ وفداً، وكان السيد بحر العلوم يقترح أسماء شخصياتٍ للمشاركة. كان يحاول على الدوام إضافة شخصيات إلى العمل المعارض، وعندما كانت المشاكل تقع بين فصائل المعارضة، كان هو من يصلح بينها.

قانون تحرير العراق

قمنا بحملة كبيرة في واشنطن حول قضية العراق، وكان هناك خلاف شديد بين الإدارة الأمريكية والكونغرس حول قضايا متعددة، فقمنا باستغلال موضوع العراق لإعطاء مصداقية للحزب الجمهوري، كيف قمنا بذلك؟

كانت لدينا مصادر في العراق تزودنا بمعلومات عن حالات الاضطهاد واستغلال النظام لبرنامج النفط مقابل الغذاء من أجل الحصول على مكاسب معينة بالإضافة إلى كثير من المعلومات الأخرى، فاستخدمنا هذه المعلومات كوسيلة للضغط، فما كان من الكونغرس إلا أن أقر قانون تحرير العراق في ١٤ آب ١٩٩٨، الأمر الذي أجبر الإدارة الأمريكية على تغيير توجهها نحو العراق ظاهرياً. عندما تغيرت الإدارة الأمريكية ووصل الجمهوريون إلى الحكم، وجدوا أنّ المجال غدا مفتوحاً أمامهم، فهناك قانون ينصّ على مساعدة المعارضة العراقية لإقامة نظام ديمقراطي في العراق، وقد سعيت شخصياً لإدراج «المجلس الأعلى» ضمن القوى المعترف بها في أمريكا، على الرغم من وجودهم في إيران وعلاقتهم بها.

بعد أن وقعت أحداث الأبراج في نيويورك والتدخل الأمريكي في أفغانستان، بدأ «بوش» بالحديث عن ضرورة تغيير النظام العراقي بالتعاون مع بريطانيا، وقد عملنا على هذا الموضوع. وفي شهر آب، دعت وزارتا الخارجية والدفاع الأمريكيتين وفداً عراقياً يضم أطراف متعددة من بينها المجلس الأعلى لزيارة واشنطن. ومع قرب موعد الزيارة، لم ألاحظ أيّة حركة من قبل المجلس الأعلى، فذهبت إلى طهران واجتمعت بمسؤولين إيرانيين وأبلغتهم بضرورة مشاركة المجلس الأعلى، فقالوا لي: لا مانع لدينا في ذلك؛ فالتقيت بالسيد «محمّد باقر الحكيم» وأخبرته عن الاجتماع، فقال لي: هذا الاجتماع ليس مهماً، فقلت له: هذا ما نقله لك البعض، لكن أود أن أخبرك بأن «جلال الطالباني» سوف يذهب إلى الاجتماع، فقال لي: كلا، سوف لن يذهب؛ فاتصل به وكان في طريقه إلى تركيا التي كان سينطلق منها إلى الاجتماع. قلت له:

يجب أن يذهب شخص من آل الحكيم، فإذا لم يكن أنت، فليكن السيد «عبد العزيز الحكيم». فقمنا بترتيب الزيارة وتهيأت تأشيرة الدخول إلى أمريكا عبر الكويت، وكانت للسيد «عبد العزيز الحكيم» مكانة خاصة في الوفد. فتعرف الأمريكان على السيد «عبد العزيز»، ورأوا أن هؤلاء الناس هم عراقيون وطنيون إلا أنّ لديهم وضعاً اضطرارياً، واتخذ الأمريكان القرار على إثر هذا الاجتماع.

التحضير لمؤتمر لندن

بعد هذا الاجتماع، قرر الأمريكان عقد مؤتمر لندن، وكانت لدى الأطراف الأمريكية المتصارعة أفكار مختلفة حول المؤتمر. بعدها، قرر اقطاب المؤتمر زيارة السيد بحر العلوم، وبالفعل ذهبنا لزيارته في بيته في لندن وعقد اجتماع مطول، وتحدثنا معه حول الكثير من الأمور، وقد استفاد أعضاء المؤتمر من هذه الزيارة. اجتمع أعضاء المؤتمر أيضاً مع بعض الأطراف الإسلامية التي لم تقبل بالمشاركة في المؤتمر، ثم ذهبت هذه الأطراف فيما بعد إلى أميركا في زيارة سرية.

كان من المقرر إقامة اجتماع في صلاح الدين في غضون (١٥) يوماً بعد مؤتمر لندن، إلا أن هذا الاجتماع تم تأخيره. فذهبت إلى إيران بتاريخ ١٧ كانون الثاني من عام ٢٠٠٣، ثم دخلت إلى العراق بتاريخ ٣٠ كانون الثاني ٢٠٠٣، وعقدنا الاجتماع المقرر في صلاح الدين والذي كان الأمريكان قد أخروه بسبب عدم حضور «خليل زاد» والمجموعة التي معه، ثم أبلغنا الأمريكان بأننا سوف نقوم بعقد الاجتماع حتى ولو لم يحضروا، فحضروا فيما بعد. كان همهم الأول هو عدم الإعلان عن حكومة عراقية مؤقتة، وهذا هو الخطأ الكبير الذي وقع، فتم عقد اجتماع صلاح الدين، ومن هناك ذهبت إلى الناصرية مع فوج من قوى الحماية ثم توجهنا إلى بغداد حيث كانت تُعقَد اجتماعاتنا. كانت عودة السيد بحر العلوم عن طريق الكويت ثم إلى النجف وعقدنا اجتماعات

كثيرة، حتى تأسس مجلس الحكم الذي ساهم فيه السيد بحر العلوم مساهمة كبيرة.

اسرار عن مؤتمر صلاح الدين واقتحامه

في شهر تموز من عام ١٩٩٦، دخلت قوات إيرانية إلى كردستان لضرب المعارضين الأكراد الموجودين في العراق والذين هم ضد إيران، وسهل دخولهم الأستاذ «جلال الطالباني» وحزبه حزب الاتحاد الوطني المتواجد في منطقة السليمانية. كان حزب الاتحاد الوطني هو من قام بتهريب هؤلاء الأكراد، فوصلت القوات الإيرانية إلى مقرات كبيرة في منطقة قريبة من شمال شقلاوة، فاعترضهم الحزب الديمقراطي الكردستاني وعلى رأسهم الأستاذ «مسعود البرزاني» ومنعهم من الدخول، فتراجعت القوات الإيرانية وانسحبت. هذا الأمر جعل الأمريكان يعتبرون أن بقاء الوضع في كردستان على ما هو عليه سيؤدي إلى التدخل الإيراني، كما أنّ «مسعود البرزاني» أصبح لديه قلق كبير لظنه بأنّ القوات الإيرانية تعتزم القضاء عليه.

كانت المعلومات تصل إلينا عن اشتباكٍ وشيك. وكان هناك احتفال يقيمه حزب التحالف الكردستاني في شهر آب من العام نفسه بمناسبة ذكرى تأسيس الحزب في لندن، وقاموا بتوجيه دعوة لي لإلقاء كلمة فيه. حضرت هذا الاحتفال وقلت لهم: إذا لم تتغير الأمور خلال أسابيع، فسوف ينشب اشتباك قاتل من شأنه القضاء على كردستان والمعارضة.

بدأت وتيرة المشاكل تتصاعد. الأمريكان من جهتهم، كانوا يحاولون إيقاف القتال عبر الهاتف، وعندما اتصلوا بي قلت لهم: الكلام سوف لن يؤدي إلى نتيجة، يجب أن تكون هناك حركة على الأرض، فإنّ علينا تشكيل قوة من المؤتمر الوطني نوكل إليها مسؤولية فضّ الاشتباك، تماماً كما أوقفنا القتال عام ١٩٩٤. اتصل الأمريكان بي لاحقاً وقالوا لي: نود أن نعقد اجتماعاً في لندن للأطراف الكردية ونرغب بحضورك في هذا الاجتماع. وبالفعل عقدنا

الاجتماع في يوم (٣٠) آب، واقترحنا فيه تشكيل قوة مؤلفة من (٦٠٠) شخص يتوزعون على (٢٤) نقطة تتوزع على الخط الممتد من الحدود الإيرانية المحاذية لشمال محافظة أربيل إلى جنوبها مع وضع خطة متكاملة لهذه القوة، وقد تم قبول هذا المقترح. أثناء تواجدنا في هذا الاجتماع وصل إلينا خبر يفيد بأنّ «صدّام حسين» قد دخل إلى «أربيل»، وأنّ (١٣٠) شخصاً من المؤتمر الوطني كانوا يقاتلون قوات النظام هناك قد استشهدوا بعد أن حوصروا ونفدت ذخيرتهم.

الحاضر معنا

كان السيد بحر العلوم يفضل الإنجاز على الدعاية لنفسه، وهذا الأمر مهم جداً، وأنا أُكبِر فيه هذا التوجه، فدائماً ما كان يفضل تحقيق النتائج على درء الكلام عن نفسه، ولا يهمه ما يتعرض له هو شخصياً إن كان ذاك يؤدي إلى نتيجة طيبة تفيد القضية العراقية. كانت علاقاتنا وثيقة ببعضنا وهناك ثقة كبيرة جداً بين الطرفين، وعندما نتكلم معه في بعض الأمور ربما يغضب وتضطرب مشاعره، لكنه يعود ويفكر بالموضوع فتغلب نزعته في المشاركة والإنجاز على التأزم من الحديث الذي قد يُثار ضده، وهذه المسألة مهمة جداً، فنحن كنا نريده أن يكون حاضراً معنا لا أن نكون تحت رعايته عن بُعد.

بالطبع. لقد أدى هذا الدور بشكل كبير جداً، وكانت هذه تضحية من قبله، فهو يعلم أنّ الأذى سيناله وأنّ هناك من سيتكلم ضده، لكنه استمر بالعمل.

كان هدفنا هو إقامة حكومة عراقية مؤقتة ذات سيادة كاملة تُلزَم بإجراء انتخابات، وذلك بقرار من مجلس الأمن وبالاتفاق مع الأمريكان، لكن وللأسف، كان الذين تولوا الإدارة في العراق من الأمريكان هم من كان يعارض إسقاط صدّام.

في أثناء عملنا في أمريكا على قانون تحرير العراق، كنا السبب في تغيير الكثير من مواقف السلطات الأمريكية ضدنا، وخصوصاً الأطراف التي كانت لا

تريد التغيير في العراق. وباعتقادي، لم تكن أمريكا لتتحرك لو لم نقم نحن بهذا العمل، فالذي حصل هو أنّ قسماً من الأمريكان أصبح يؤيدنا والقسم الآخر كان ضدنا. الأطراف الذين هم ضدنا بدأوا يخسرون الكثير، وبالمقابل فإن الأفكار التي كنا نريدها قد نجحت. بعد سقوط «صدّام حسين»، كان من تسلم الإدارة وتخطيط السياسة في أمريكا حول العراق هم أنفسهم الذين لم يكونوا يريدون إسقاطه، فاصطدمنا معهم مباشرة، وكانت المواجهة الأولى في تشكيل مجلس الحكم. أراد هؤلاء أن يعيّنوا في مجلس الحكم أشخاصاً كانوا يعملون مخبرين لدى الأمن العام، وهؤلاء المخبرون كانوا يتقاضون راتباً مالياً قدره (٢٥٠) ألف دينار عراقي، فتصدينا لهم ومنعناهم من أن يأتوا بهم فأثار ذلك حفيظتهم. حتى إنني ذهبت إلى بريمر وزودته بوثائق تثبت ما أقوله، فقال لي: أنت تتدخل في تفاصيل كثيرة وتعترض على أشخاص كُثُر، فقلت له: لا أريد أن يكون هذا المجلس بهذه الطريقة.

البيت الشيعي

بعدها، قمنا بتأسيس البيت الشيعي في مجلس الحكم، وكان يحضر فيه كل الشيعة الموجودين في المجلس وكانوا حوالي (١٣) شخصاً، وكان للسيد بحر العلوم دورٌ مهم في هذا المجال.

من القضايا التي حصلت في المجلس، قضية السيادة مثلًا. كان السيد بحر العلوم يؤيد قانون السيادة، وكنت دائماً ما أنصح بريمر بأن لا يوقع على قرار صندوق تنمية العراق - الذي يحتوي على جميع أموال العراق - بقرار منفرد، حتى انزعج من إلحاحي. كما تصديت لبريمر في أحد اجتماعات مجلس الحكم حول استخدام القوة لقمع الناس أثناء الأحداث التي حصلت في الفلوجة والنجف، الأمر الذي أدى إلى انزعاجه مني أيضاً.

تعرض السيد بحر العلوم لإطلاق نار أثناء دخوله إلى المجلس لحضور إحدى الجلسات، فقاطعنا مجلس الحكم ولم نجتمع في المنطقة الخضراء،

وبدلًا عن ذلك قمنا بعقد اجتماع في بيت «جلال الطالباني» الذي كان رئيساً للمجلس حينها.

تصاعدت وتيرة الأحداث، فوجه السيد بحر العلوم النصائح لي مراتٍ عدة قائلًا بأنّ الأمريكان منزعجون مني كثيراً وأنهم سيؤذونني في النهاية، فقلت له: وما الذي يمكنني فعله؟ هل جئنا كي نقتل الناس ونسمح للأمريكان بضربنا أم جئنا كي نحافظ على أموال العراق ونحفظ سيادته؟ فقال لي: أنا أوافقك الرأي، لكن ينبغي أن تأخذ حذرك.

بعدها، قامت القوات الأمريكية بمداهمة منزلي، فانتفض السيد بحر العلوم، وعقدنا اجتماعاً لمجلس الحكم في اليوم الذي يليه، هدد فيه السيد بحر العلوم الأمريكان وقال لهم بأنه لا يقبل بما جرى وقدم استقالته، فقدم الأمريكان اعتذاراً للمجلس.

لم يكن مجرد إيصال رسالة، بل كانوا على وشك قتلي، فقد أصبحنا شيئاً غير مرغوب به بالنسبة لهم، وخاصة بعد أحداث النجف مع السيد مقتدى والتيار الصدري.

عندما وقعت هذه الأحداث، ذهبنا إلى النجف وبقينا في منزل السيد بحر العلوم لمدة (١٢) يوماً، على الرغم من كل الكلام الذي كان يطاله، إلى أن تمكّنا من الوصول إلى حل للقضية وأوقفنا القتال. بعد القصف الأمريكي للنجف، قمنا بإصدار بيانات من قبل البيت الشيعي، إلا أنّ هذه البيانات لم تُجْدِ نفعاً، فاقترحت على البيت الشيعي الذهاب إلى النجف، فقالوا لي: إذهب أنت وسنقوم بإرسال ممثلين عنا. فذهبت، وقام حزب الدعوة بإرسال «فالح الفياض»، أما المجلس الأعلى فأوفد «هادي العامري»، وأقمنا جميعاً في ديوان السيد بحر العلوم.

كان السيد بحر العلوم على تواصل دائم معي، وكان يقدم لي النصائح والتوجيهات كما كان يقوم بترتيب اجتماعات لي مع العلماء، بالإضافة إلى أنه كان يُطلعنا عن تصوره حول فكر المراجع، وهو أمر أفادنا كثيراً.

ما بعد مجلس الحكم

ظلت العلاقة بيني وبينه قوية جداً بعد مغادرته مجلس الحكم واستقراره في النجف، فكنت آخذ بنصائحه واستمع إلى آرائه، نتشارك بقضايا ومناسبات متعددة. بقيت علاقتنا مستمرة على هذا المنوال حتى آخر سفرةٍ قام به إلى لندن بعد أن أصابه المرض. فتحدثت مع ابنه السيد إبراهيم بحر العلوم الذي قال لي: سوف نعود إلى بغداد، وكأنه أراد أن يخبرني أن لم يعد ثمة علاج يمكنه شفاء السيد. بعد عودته إلى بغداد، زرته وتحدثت معه، وعندما رحل، حضرت تشييعه في النجف.

أُحيّي السيد بحر العلوم تحية كبيرة في خطوة ارساء معهد العلمين والاستقرار هناك. في العراق، يعتقد الناس أن الأهمية تكمن في المنصب السياسي، لكن الأهمية الحقيقية تكمن في القضايا الأخرى غير السياسية كالعلم ومساعدة الناس. أنا أُكبِر السيد بحر العلوم على هذا الأمر وأسير على خطاه في هذا المجال، فأن يصبح الإنسان شخصيةً سياسيةً ويشغل منصباً ليس بأمرٍ ذي بال في مقابل سيرته العلمية. لقد خسر العراق خسارة كبيرة بفقده لشخصية جامعة قادرة على حل المشاكل ومحبوبة من الجميع. كان في أحلك الظروف إذا ما اتصل بأطراف متنازعة فإنهم يستمعون له، وهذا ما نحن بحاجة إليه الآن.

الراحل الدكتور أحمد عبد الهادي الجلبي في سطور

* أحمد عبدالهادي الجلبي ولد في ٣٠ اكتوبر ١٩٤٤
* رجل أعمال وأكاديمي جامعي وسياسي عراقي ليبرالي اشتهر بمعارضته المزمنة ضد نظام حزب البعث الذي حكم العراق لاربعة عقود
* لعب دوراً بارزاً ومؤثراً في استصدار قانون تحرير العراق ١٩٩٨ كما لعب دوراً في إقناع الولايات المتحدة وحلفائها بإسقاط نظام صدام حسين في نيسان ٢٠٠٣
* تخرج من جامعة هوبكنز في الولايات المتحدة بكلوريوس في علوم الرياضيات
* حصل على درجة الدكتوراه في الرياضيات من جامعة شيكاغو
* عمل أستاذاً للرياضيات في الجامعة الأمريكية ببيروت
* اختير عضواً ورئيساً لمجلس الحكم الانتقالي بعد سقوط الدكتاتورية
* كان له دور في تاسيس قائمة الائتلاف الوطني العراقي الموحد ذات الصبغة الشيعية
* عين رئيس لجنة الخدمات في مجلس الوزراء ٢٠٠٧
* وعين رئيس الهيئة الوطنية للمسائلة والعدالة
* فاز بعضوية البرلمان العراقي بدورة ٢٠٠٤ وانتخب رئيساً للجنة المالية فيه
* توفى عن عمر ناهز الـ ٧١ عاماً يوم الثالث من نوفمبر ٢٠١٥ في منزله بالمنصور إثر نوبة قلبية مباغته ووفاة حامت حولها الشبهات ودفن في مدفن جده النائب في العهد الملكي في الكاظمية المقدسة.

السيد بحر العلوم صديق الجميع

شهادة الدكتور عبد اللطيف رشيد(*)

السيد محمّد بحر العلوم شخصية عراقية قوية ومحبوبة من قبل كافة الجهات العراقية، وأنا أعتز وأفتخر بعلاقتي الوطيدة بشخصيةٍ سياسيةٍ بل وحتى اجتماعيةٍ كالسيد محمّد بحر العلوم (رحمه اللّٰه).

تعرفت على شخص السيد بحر العلوم في منتصف الثمانينات، وتوطدت علاقتنا خلال مناسبة العزاء باستشهاد السيد مهدي الحكيم الذي اقيم في لندن، فقد قام بدور كبير في جمع كافة الأطراف العراقية بعد حادثة اغتيال السيد الحكيم في السودان. وبعدها، بقيت علاقتنا قوية ومستمرة مع السيد بحر العلوم، فقد كان شخصية وطنية ومحبوبة، فضلًا عن كونه علّامة في جميع المواضيع الفقهية وحتى السياسية، وكان يحظى باحترام وتبجيل كافة الأطراف السياسية العراقية، لاسيما الأكراد الذين كانوا يحبونه بصدق. من دون مبالغة، كانت علاقتة قوية مع كل الأطراف السياسية ومع كل المجموعات الكردية في الخارج والداخل.

أتذكر أنّ مام جلال كان يتحدث بفخر واعتزاز عن السيد بحر العلوم في المناسبات واللقاءات، وكان يحبه حبّاً أخوياً ويكنّ له احتراماً عالياً جداً، وكذلك الحال بالنسبة للقيادات الأخرى. كان السيد بحر العلوم يعتبر نفسه جزءاً منا وليس بخارج عن الإطار السياسي والاجتماعي الكردي، وأعلم بشكل مؤكد أنّ المرحوم إبراهيم أحمد كانت له مكانة عالية جداً بالنسبة للسيد بحر العلوم، وقد حافظا على علاقة قوية ومستمرة عن طريق اللقاءات والمكالمات الهاتفية

إلى حين وفاته. وكان إبراهيم أحمد يحضر الكثير من النشاطات التي كان يقوم بها السيد بحر العلوم، وكذا الحال بالنسبة لسائر الشخصيات الكردية والقادة الذين كانوا يعيشون في بريطانيا أو أماكن أخرى، فهم كانوا دائمي الترحيب باللقاء مع السيد بحر العلوم، بل كانوا يواظبون على زيارته في غير المناسبات الاجتماعية والسياسية لكي يستمتعوا بلقائه ويعبّروا عن حبهم له.

المؤتمر الوطني العراقي

كان السيد بحر العلوم ذا شخصية قوية وحكيمة في الدفاع عن مطالب العراق من الناحية السياسية والاجتماعية وسائر النواحي. كان مناضلًا من أجل القضية العراقية، ليس في اللقاءات ومؤتمرات المعارضة فحسب، بل بالعمل الفعلي أيضاً. وكما تعلمون، كان له دور رئيسي في تشكيل جبهة هي «المؤتمر الوطني العراقي» ضد الدكتاتورية في العراق، وقد انتخب بالإجماع كأحد القادة في المؤتمر العراقي ورئاسته، ولم يغِب على الإطلاق عن أي نشاط فيه مصلحة للعراق، وكان يحضر كل الاجتماعات التي كانت تُعقد في بريطانيا وكردستان العراق وحتى في الدول الأوروبية والأمريكية. وفي بعض الأحيان، كان يقود الوفود العراقية من أجل طرح قضية العراق والشعب العراقي ضد الدكتاتورية والقساوة والعنف.

أُشيد هنا بدوره الكبير في الدفاع عن حقوق الشعب الكردي، وبالذات عن «حلبجة» بعد أن قصفها صدام حسين بالأسلحة الكيمياوية السامة، وقد بقي السيد بحر العلوم على نضاله الوطني وحكمته العالية حتى آخر يوم من حياته.

وأكرر، أفتخر بزياراتي له في بغداد والنجف، وكنت أستمتع بهذه اللقاءات إلى حد كبير. بكل أسف، رحل السيد بحر العلوم وقد خسرنا برحيله واحداً من عظماء الشعب العراقي، نذكره بالخير ونستفيد من آثاره وتجربته في الحياة.

عن زيارته للكونغرس

كانت شخصية السيد بحر العلوم قوية، ولم يكن يخجل من بذل شيء في سبيل مصلحة الشعب العراقي، والأمر لم ينحصر بزيارته الكونغرس الأمريكي فقط، بل إنّ السيد قد دخل إلى عدة محافل ودول من أجل الدفاع عن الشعب العراقي، وكان يفتخر بلقاءاته مع القوى الرئيسية في العالم والدول الأوروبية والعربية من أجل تحقيق هذه الغاية. ولم يكن يكترث للّوم الذي قد يتعرض له من جرّاء دخول المؤسسات السياسية المختلفة كالبرلمانات أو الحكومات أو الوزارات للدول الغربية واميركا لأنه يبذل ذلك في سبيل الدفاع عن الشعب العراقي ونصرة قضيته العادلة، وهذه كانت نقطة قوة السيد بحر العلوم، إذ كان يضحّي بأمور شخصية من أجل قضية العراق ومصلحته.

مكرهاً دخل لمجلس الحكم

لقد اتفقت كل الأطراف السياسية على الدور الكبير للسيد بحر العلوم ما بعد سقوط الدكتاتورية، وكان الجميع يصرّون على تواجده في المحافل السياسية والاجتماعية لاعترافهم بأنه يمثّل الشخصية العراقية الكاملة العادلة، ولم يكن يحسب نفسه تابعاً لفئة أو طائفة أو قومية، ويدافع عن طموحات الشعب العراقي بكافة ألوانه وطوائفة وقومياته. باعتقادي أنّ السيد بحر العلوم لم يكن يرغب في الانخراط مع بعض الجهات السياسية، إلا أن ضغط هذه الأطراف كان يؤدي به إلى المشاركة في بعض أنواع الحراك السياسي. الجميع يريده لأنه مقبول ومرغوب سياسياً. وبحسب خبرتي، رغم ذلك كان أداؤه جيداً، فقد رافقته في مهماتٍ خلال وجوده في مجلس الحكم، منها زيارة قام بها وفد من مجلس الحكم إلى الصين، وكنت أقدّر مواقفه مع الوفود الرسمية والحكومة الصينية، وكنت معجباً بأطروحاته دفاعاً عن الوضع الجديد في العراق، ودفاعاً عن الخطوات الجدية من أجل تنمية العراق وتثبيت الديمقراطية فيه.

معهد العلمين

السيد بحر العلوم لا ينتهي بموته وفناء جسده، فهو باق خالد بأفكاره وتوجهاته وآرائه وطيب علاقاته مع الاخرين. باق وخالد في كل حجر من حجر وطابوق معهد العَلَمَين الذي أرسى أساسه الأول بعد اعتزاله للعمل الجهادي والسياسي واقيم في إحدى قاعاته الكبرى مراسيم عزاؤه، وفي اثناء مراسم الدفن كنت اشعر بعظمة هذه السيرة التي ابتدات بمشوار العلم وانتهت اليه، فقد كنت على علم بفكرة إنشائه قبل بنائه، وكان السيد بحر العلوم متحمساً لهذا المعهد ويتباحث بالأمر دائماً مع فخامة الرئيس مام جلال. وبتصوري، إن فخامة الرئيس جلال لم يقصّر في دعمه له من أجل إنجاز هذا المشروع العلمي الضخم والذي سيتطور في المستقبل إن شاء الله كي يستفيد منه كل عراقي.

الدكتور عبد اللطيف جمال رشيد في سطور

* مكان الولادة السليمانية - العراق
* تاريخ الولادة: ١٩٤٤
* بكالوريس هندسة مدنية جامعة ليفربول ١٩٦٨
* ماجستير ودكتوراه من جامعة مانجستير - بريطانيا في علم الهايرولكس عام ١٩٧٢
* زميل معهد المهندسين المدنيين في بريطانيا وعضو في الهيئة الدولية للري والبزل ورئيس الهيئة الدولية للري والبزل في العراق.
* المشاركة ببحوث ومحاضرات في العديد من المنتديات الدولية والمؤتمرات الدولية والإقليمية للمنظمات والمؤسسات الدولية بشأن السدود وإدارة المياه الدولية من ٢٠٠٤ وحتى الان.
* ٢٠١٢ - وحتى الان المستشار الاقدم لرئيس جمهورية العراق، يمثل رئاسة الجمهورية في الندوات الاقتصادية والتنموية والمساهمة في برامج التنمية الحكومية في مجالات الزراعة والموارد المائية والطاقة.
* ٢٠٠٣ - ٢٠١٤ وزير الموارد المائية في جمورية العر اق
* ١٩٨٣ - ١٩٨٦ مدير مشروع / منظمة الغداء والزراعة الدولية، تطوير وادي جيزان في المملكة العربية السعودية
* ١٩٨٢ - ١٩٨٣ مهندس مقيم / منظمة الغداء والزراعة الدولية
* ١٩٨١ - ١٩٨٢ مدير مشروع/ منظمة الغداء والزراعة الدولية/ مدير مشروع وادي توبان في الجمهورية العربية اليمنية
* ١٩٧٩ - ١٩٨١ العمل في جمهورية الصومال في تطوير مشروع المرعى الشمالي
* ١٩٧٦ - ١٩٧٩ إجراء البحوث والاعمال الحقلية التي تخص دراسة مشروع الري والتنمية في المملكة العربية السعودية.
* ١٩٧١ - ١٩٧٩ العمل مع شركة سير وليام هالمور الاستشارية في قسم شؤون المياه بلندن
* ١٩٧١ - ١٩٧١ العمل تدريس في جامعة السليمانية

السيد بحر العلوم
الباحث المخلص عن المشتركات

شهادة الأستاذ حميد مجيد موسى(*)

الباحث المخلص عن المشتركات

السيد بحر العلوم شخصية اجتماعية وثقافية بارزة فضلًا عن كونه سياسياً بارعاً. إن تخصصه في العلوم الدينية وارتداءه للعمامة لم يمنعه من ممارسة ألوان أخرى من النشاط الفكري والاجتماعي والثقافي كالسياسة، وهذا الأمر يعطيه - في الظرف الذي عشناه وواجهناه - خصوصية، فإنّ المجتمع العراقي بكل تلاوينه قد عاش كارثة عظمى تحت نظام الاستبداد والدكتاتورية وظلال المقابر الجماعية التي افرزها حكمه المستبد، بحيث أن كل القوى السياسية - بصرف النظر عن الاختلافات الإيديولوجية - وجدت أنّ التعاون والعمل المشترك والنشاط من أجل بناء عراق جديد ضرورة لا مجال لتجاوزها. هذا الأمر يضع السيد الفقيد بحر العلوم في مكانه اللائق وفي موقعه الذي تميّز به عن غيره من المنكفئين والمترددين في دعم نضالات الشعب العراقي، أو المتزمتين والمتعنتين الذين بقوا أسرى الجمود وأبَوا البحث عن المشتركات التي تساعد شعبنا على الخلاص من مأساته ومن الكارثة التي حلّت به على يد الدكتاتورية والاستبدادية الساقطة.

طرفان في معارضة مشتركة

السيد بحر العلوم على الرغم من كونه محسوباً على تيارٍ أساسي إسلامي معيّن في المعارضة العراقية، لكنه كان يمثّل فكراً مستقلًا وسلوكًا خاصاً. تعرفت به في لندن، قبل قيام المؤتمر الوطني العراقي الموحّد، كطرفين في المعارضة العراقية، وتباحثنا وتناولنا الأمر العراقي بتعقيداته وبمأساته، ونُسجت بيننا في ذلك اللقاء أواصر صداقة وعلاقة استمرت حتى وفاته. هذا الأمر حصل في بداية التسعينات عندما التقينا في شقلاوة في مؤتمر صلاح الدين، حيث كانت أعمال المعارضة تتزايد وتتصاعد في كردستان الآمنة آنذاك والخارجة من قبضة النظام الموحشة، ثم التقينا في الشام، وأخيراً في بغداد.

مرة نكون ضيوفاً عنده، وأخرى يكن ضيفا عندنا، وفي كل هذه اللقاءات المتبادلة كان الهمّ المشترك بيننا هو البحث عمّا يساعد شعبنا على الخروج من مأساته وممّا يعانيه بسبب الدكتاتورية المنفلتة ونظامها البائس.

مرونة وانفتاح

الدكتورالعلّامة بحر العلوم كان شخصية منفتحة ومرنة، لم يسمح للخلاف الإيديولوجي أو التباينات الإيديولوجية أن تكون مانعاً أو عائقاً أمام التعاون والعمل المشترك السياسي، وهذا مؤشر نضج وواقعية سياسية يُحسَد عليها، لا سيّما إذا قُورن بكثير من الآخرين الذين كانوا يضعون العصي في عجلة توحيد المعارضة العراقية. كان حضوره، فضلًا عن دماثة خلقه ومشاعره الودية وصدق تعامله ومرحه، يضفي نكهة خاصة على أدائه السياسي. فبدلًا من أن يكون السياسي المتزمت والمتوتر، كان بحر العلوم يتميز بحضور يبعث الراحة والودّ والدفء في العلاقات الإنسانية الاجتماعية بين أطراف المعارضة. وهذه الميزة مكّنته من أن يحتل موقعاً بارزاً في قيادتها حيث انتخب لرئاسة المؤتمر الوطني العراقي الموحّد وكان دائماً في موقع الصدارة حيثما تُعقد اجتماعات المعارضة العراقية. عندما سقطت الدكتاتورية وترتب علينا أن نعمل كمعارضة

وفقاً لقرار الأمم المتحدة ومجلس الأمن في تشكيل مجلس أرادوه أن يكون استشارياً - وأردنا أن يكون ذا فاعلية أكبر من كونه استشارياً أي أن يكون مجلس حكم - عملنا سويةً على التقارب في مواقع الجلوس وأمكننا ذلك من التواصل الدائم والنقاش المستمر حول كل القضايا.

كان بحر العلوم حريصاً على أن يخلص العراق سريعاً من هيمنة المحتل، بحيث يتمتع البلد بكامل استقلاله وسيادته، وكان حريصاً على أن يأخذ العراقيون شأنهم بأيديهم وأن يقرروا مصائرهم وفقاً لمصالحهم. هذا ما عمل المرحوم من أجله، وعلى هذا الأمر تعاونّا في مجلس الحكم. وأعتقد أنّه كان دائم الحضور حتى في المجلس الوطني بعد انتهاء أعمال مجلس الحكم، ولاحقاً في العلاقات المتواصلة من الزيارات واللقاءات، وآخرها اللقاء الذي حصل في معهد العَلَمَين قبل ان يغمض اغماضته الأخيرة.

تكتيك مشروع

في تقييمي لرحلة العلّامة بحر العلوم للكونغرس الامريكي برفقة وفد من المعارضة العراقية عقب الانتفاضة الشعبانية انها تقع ضمن مسؤولية اخلاقية على عاتقه، وهو يدرك تماما ان من يعمل في الميدان العام السياسي يجب أن لا يفرض على نفسه محرّمات، على أن لا يكون ذلك مسوّغاً لتجاوز المبادئ والقيم الرئيسية بالطبع. فمن أجل قضايا الوطن والشعب ومصيرهما، يحقّ للإنسان العامل في الميدان العام السياسي أن يعتمد الكثير من التكتيكات السياسية وأن يقيم الكثير من العلاقات التي لا يمكن إدراجها في إطار ما هو خارج الأخلاق والشرع والدين والمبادئ السياسية. فأمريكا لاعب محوري في الحياة الدولية السياسية، وعامل رئيسي في مجلس الأمن وفي تقرير مصائر دول المنطقة وشعوبها، فتحتّم نتيجة لذلك على المعارضة العراقية أن تتعامل مع هذا الواقع وتتعاطى مع المؤسسات الرسمية الأميركية بالشكل الذي تُمليه

مصالح الشعب العراقي بشكل حصري، وهذا لا يؤدي لحصول خلل ولا تجدر الخشية منه، كما أنه ليس مصدراً للعار، كما يحلو للبعض أن يصوره.

صاحب الرسالة وصاحب الموقف من حقه بل من واجبه أن يتعاطى من موقع مصالح شعبه ووطنه وحمايتهما بالتعاون مع أي طرف له علاقة مباشرة بمستقبل بلاده. لقد اشترك السيد بحر العلوم مع إخوانه في المعارضة العراقية في إعطاء الولايات المتحدة صورة دقيقة وحقيقية عن الشأن العراقي وتعقيداته، والسعي لإحراز كل ما يؤمّن استقلال العراق واسترداد سيادته.

وختاما يمكن القول ان الصفات المؤثّرة التي اختصّ بها السيد بحر العلوم. لم تنفصل في الواقع الاجتماعي أو السياسي،لم يكن في إدارته في مجلس الحكم الذي عاصرته فيها عن قرب واقتربت من شمائله خارج هذه المميزات والطباع الاصيلة في روحه؛ كان دوره جامعاً وساعياً لتوحيد القوى ولجمع الرأي ولتفعيل مجلس الحكم في إطار توجهه الوطني لخلاص العراق من هيمنة الاحتلال ومؤسساته.

الأستاذ حميد مجيد موسى في سطور

* سكرتير الحزب الشيوعي الحالي
* ولادته في الحلة ١٩٤٢/٧/١
* دبلوم في الاقتصاد السياسي من معهد كارل ماركس للعلوم الاقتصادية صوفيا / بلغاريا ١٩٦٠لغاية ١٩٦٥
* أصبح عضوا في الحزب الشيوعي العراقي منذ عام ١٩٥٩
* عمل باحثا في شركة النفط الوطنية العراقية منذ عام ١٩٧٠ لاواخر ١٩٧٨
* أصبح عضواً مرشحاً للجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي في المؤتمر الثالث للحزب ١٩٧٦
* أصبح ممثل الحزب الشيوعي في هيئة تحرير وقضايا السلم والاشتراكية في براغ من ١٩٨٢ لغاية ١٩٨٤
* انتخب عضواً في اللجنة المركزية وعضو في المكتب السياسي في المؤتمر الرابع للحزب عام ١٩٨٥
* جدد ترشيح عضويته للجنة المركزية وترشيحه سكرتيراً لها في المؤتمر السادس للحزب عام ١٩٩٧
* عمل مقاتلاً ضمن فصائل الأنصار لمقارعة قوات النظام الدكتاتوري من ١٩٨٤ لغاية ١٩٨٩
* منذعام ١٩٩١ عاش في كردستان المحررة منتظراً لحظة سقوط النظام الفاشي
* في حزيران ٢٠٠٤ أصبح عضو في المجلس الوطني العراقي
* وفي كانون الثاني ٢٠٠٥ أصبح عضواً في الجمعية الوطنية
* وفي كانون الثاني ٢٠٠٦ دخل مجلس النواب مرشحاً فائزاً عن القائمة العراقية الوطنية

عراق بحر العلوم يسع للجميع

شهادة النائبة ميسون الدملوجي(*)

التقيت بالسيد محمّد بحر العلوم للمرة الأولى في الثمانينات، ربما أثناء مناسبة اجتماعية، تكون حفل زفاف أو عقد قران. إلا أنّ لقائي به في العمل السياسي كان في التسعينات، حيث كنت أنتمي إلى منظمة تدعى «الاتحاد الديمقراطي للعراقيين في بريطانيا». وكان السيد قريباً منا جداً، فهو بطبيعته منفتح على الجميع ولا توجد لديه عقدة تجاه طرف معين، وهو جزء من هذا التنوع العراقي. فعلى الرغم من أنه رجل دين شيعي معمّم ونجفي، إلا أنه لم يكن يلغي الآخر وهذه كانت إحدى أبرز صفاته. أذكر أن السيد بحر العلوم كان يحضر في الكثير من المناسبات، وكان له دور ورؤية لعراقٍ يتسع للجميع، ولم يكن يريد التخلص من الدكتاتورية كي ينتقم أو يقتصّ من طرف ما، وكان المرح من طبيعته، إذ كانت لديه روح النكتة والدعابة التي تجذب إليه الناس بسهولة، وكان الناس يكنّون له حباً كبيراً.

نصير المرأة والطفل

أذكر قصة حصلت في العام ١٩٩٤ أو ١٩٩٥، حين نظّمت المعارضة العراقية في لندن مظاهرة ضد الحصار الجائر على الشعب العراقي، وكانت هذه المظاهرة بمبادرة من الاتحاد الديمقراطي، لكن الجميع شارك فيها. كانت نقطة اللقاء والتجمع في مدينة ماربل ارج، حيث يصير الانطلاق منها إلى منطقة بيكادلّي. وعندما تجمّعت الحشود واستعدّت للانطلاق، بدأ أفراد ينتمون

إلى حزب معين من الأحزاب الإسلامية يحاولون الاستحواذ على المظاهرة ويملون علينا كيفية تنظيمها، على الرغم من أننا كنا قد حضرنا الشعارات واللافتات التي اتفقنا على رفعها، ومن جملة الأشياء التي حاولوا فرضها علينا هو أن تسير النساء والأطفال في الإمام والرجال في الوراء، وهذا ما لم نقبل به، وتطور الأمر إلى الإساءة لبعض السيدات الموجودات في المظاهرة، وكان الإسلامي الوحيد الذي يمكننا الحديث معه هو السيد محمّد بحر العلوم، فذهبنا إليه وشكونا له ما حصل، فقال لنا: سيروا أينما شئتم وأنا سأسير في وسطكم، وهكذا كان. وهذا عين ما حدث حينذاك.

مركز أهل البيت بيت للعراقيين

كانت هناك ثلاثة مراكز مهمة في لندن تجتمع فيها القيادة العراقية في التسعينات وهي:

«ديوان الكوفة» الذي أسسه الدكتور محمّد مكيّة، وكان يتولى الجانب الثقافي والفنّي والفكريّ.

«المنتدى العراقي» الذي أسسه الحزب الشيوعي، وكان يرعى الجوانب الاجتماعية والقانونية وخاصة تلك المتعلقة باللاجئين العراقيين، وكان يحتضن الجميع.

المقر الثالث والأهم كان «مركز أهل البيت» في جنوب لندن والذي يرعاه السيد محمّد بحر العلوم، وكان مركزاً دينياً وسياسياً في آن واحد.

نحن كنساء، كنا نتخوف من الذهاب إلى هناك، فكنا نسمع أنهم يفصلون الرجال عن النساء في الاجتماعات السياسية، وكنا نتساءل لماذا يفعلون ذلك وهو اجتماع سياسي؟ وكنا نمتنع عن الذهاب إلى هناك لهذا السبب. في أحد الأيام حيث صادف ان اقام السيد بحر العلوم مراسم عزاء لصديق عمره ورفيق دربه السيد العلّامة مصطفى جمال الدين، ذهبت الشاعرة لميعة عباس عمارة

إلى هناك، وإذا بالسيد محمّد بحر العلوم يقف لاستقبالها على الباب ويرحب بها ويُجلسها في الصف الأول، فاكتشفنا حينئذٍ أنّ مخاوفنا لم تكن مبرّرة.

بعد ذلك، فتحت الأستاذة لميعة الباب أمامنا لحضور هذه الاجتماعات في مركز أهل البيت.

كان السيد بحر العلوم عراقياً أصيلًا، ولم تكن لديه عقدة من شيء، إذ كان يكره الدكتاتورية والتطرف والعنف، وكان يُعدّ وجهاً من وجوه الاعتدال التي كنا نتمنى بأن تكون سمة العراق ما بعد ٢٠٠٣.

خسارة لتيار الاعتدال

كتبتُ في وفاة السيد بحر العلوم: إنّ خسارة السيد محمّد بحر العلوم هي خسارة للمعتدلين وللتيار المعتدل في العراق. بعد عودتنا إلى العراق عام ٢٠٠٣، استمرت لقاءاتنا به، وكان قد أصبح أول رئيس لمجلس الحكم، ثم الرئيس الدوري لمجلس الحكم مرة أخرى، وكنت آنذاك برفقة الدكتور عدنان الباججي. وفي الانتخابات الأولى التي حصلت في بداية العام ٢٠٠٥، كان ممتعضاً من استخدام الدين أداةً للحصول على الأصوات عن طريق الزجر والتخويف. فعلى سبيل المثال، كان يجري بثّ أقوال مثل «من لا يذهب إلى الانتخابات سوف يزجه الله في النار»، أو استخدام الدين لخداع الناس في القضايا السياسية، فتمّ ربط الانتخابات بالأمور الدينية، وهذا ما لم يوافق عليه السيد بحر العلوم ولم يرتضيه.

كان اتجاه السيد بحر العلوم هو إحلال الهدوء والاستقرار في العراق، وكان دائم القول بأن العراق يتّسع للجميع. كان صدره رحباً لكل الأفكار، فلم أره يوماً يحمل عقدة تجاه شخص علماني أو شيوعي، ولهذا نحن قد خسرنا بفقده خسارة كبيرة، وآسف شديد الأسف لأنه لم يأخذ دوره بعد ٢٠٠٣. في إحدى النقاشات التي أجريتها حول المجلس الاتحادي، كان هناك اتجاه نحو اختيار أربع شخصيات من كل محافظة عن طريق الانتخاب، وكانت لي مداخلة في

مجلس النواب قلت فيها: ثمة شخصياتٍ ينبغي أن تكون جزءاً من هذا المجلس خارجاً عن الانتخابات، وذلك تثميناً لدورها في محاربة الدكتاتورية كما يحدث في مجلس اللوردات البريطاني، حيث يتم اختيار طبيب ماهر أو شخصية سياسية أو حتى شخصية رياضية، واقترحت أسماء ثلاث شخصيات هم: سماحة السيد محمّد بحر العلوم، المرحوم سعد صالح جبر والدكتور عدنان الباججي. هذه الشخصيات قدمت الكثير للعراق، ولكنها لم تنَلْ ما تستحقه من اعتراف بالجميل بعد عام ٢٠٠٣، وعلينا أن نكرّمهم ونثمّن دورهم. فسليم الفخري مثلًا كان من أوائل المعارضين في الثمانينات، وكان مقرباً جداً من سماحة السيد بحر العلوم، وغيره من الشخصيات التي يجب ألّا تُنسى والتي ينبغي أن تبقى حاضرة في الذاكرة المجتمعية. مع الأسف، رحل السيد بحر العلوم ولم يَنَلْ المجلس الاتحادي شرف انضمامه إليه، فكيف سيكون بإمكاننا أن نرد الجميل لهذه الشخصيات؟

آلام السيد بحر العلوم

على الرغم من الآلام الشخصية التي عانى منها السيد محمّد بحر العلوم وأسرته الكريمة والتضحيات التي قدمها في سبيل حرية العراق، إلا أنه لم يشعر بأن نضاله ضد النظام هو قضية شخصية، بل كان يعتبرها قضية عامة. فحينما عاد إلى العراق، أقام مجلس فاتحة عن أرواح شهداء آل بحر العلوم، ولكنها كانت في الحقيقة فاتحة نيابة عن أرواح شهداء العراق كله، ولم يحاول أن يستثمر هذا الأمر في عمله السياسي أو يزايد عليه في الحصول على غنيمة سياسية أو مصلحة زائلة،كما فعل كثير من السياسيين.

إمضاء على وثيقة الديمقراطية

كان يملك رؤية منفتحة جداً وإدراكاً حادّاً، لأنه ابن أصيل للعراق وابن مدينة النجف التي هي إحدى حواضر العراق المهمة مثل بغداد والموصل والبصرة. كان

منفتحاً على الأفكار الأخرى، وهذه طبيعة أبناء المدن الأصيلين، أبناء مدينة النجف الأشرف. عندما وقّع على وثيقة السلم والديمقراطية، كانت رغبته بأن يتّسع العراق للمتدين وغير المتدين، المنتمي لهذه الطائفة أو لتلك، أو المنتمي لهذا الدين أو لذاك، فلم يكن يتصور أو يقبل - كما عبّر في أكثر من خطاب له - بأن يتحول العراق إلى عراقٍ شيعي دكتاتوري، وكان يقول: إذا ما تحول العراق إلى عراقٍ شيعي دكتاتوري فإنني أول من سيقف بوجه هذا الأمر، وهذا ما كان يردّده باستمرار وقد سمعته منه بلسانه. كان يرفض التعصب، ولهذا كان منفتحاً على العملية الديمقراطية بمفهومها الواسع وليس فقط بوصفها نظاماً يُجري انتخابات ينتج عنها فوز حزب معين يلغي الآخرين كما يحدث اليوم.

موقف شجاع

أما بالنسبة لدخوله إلى الكونغرس الأمريكي، فهو موقف شجاع في وقت كانت المعارضة العراقية منقسمة على نفسها حول هذه القضية، وأعتقد أنه كان محقاً في هذا الأمر، لأن نظام صدام حسين كان نظاماً جائراً، وقد قام بهذه الزيارة بعد أن انتفض العراقيون عام ١٩٩١ وبطش النظام بهم.

كان يدرك أن أمريكا لاعب مهم في عملية دحر الدكتاتورية في العراق، وكانت المعارضة التي كنتُ جزءاً منها، عاجزة، مع الأسف، عن بلورة رؤية حقيقية لعراق ما بعد ٢٠٠٣، وفي الوقت نفسه، لم تكن أمريكا حينها مستعدة لاستقبال الفكر الذي جاءت به بعض أطراف المعارضة، وعلى كل حال، فقد حصل ما حصل.

لقد كنتُ شخصياً ضد الحرب على العراق، وكنت أؤيد عملية التحول السلمي، لكنني كنت أدرك في الوقت نفسه، بأن هذا الأمر لن يحدث دون تدخل أو ضغوط خارجية عسكرية أو غير عسكرية وهذه الرؤية كانت واقعية لا سيما بعد الانتفاضة التي حصلت عام ١٩٩١.

عزاؤه الأخير في معهد للعلم

كان السيد بحر العلوم يشعر بأن العراق قد نحا منحىً غير الذي كان يتمناه قبل ٢٠٠٣، والذي ناضل وبذل عمره من أجله، فأصبح التطرف هو السائد في العراق، فلم يكن السيد راضياً، ولأنه رجل مثقف، فهو يدرك دور الثقافة والعلم والعقل المستنير في بناء الدولة. العراق بلد شديد التعقيد، ولا أتكلم من ناحية الأديان والمذاهب والإثنيات فحسب، بل حتى من ناحية الجغرافية وكل شيء آخر، فلن يتحمّل العراق أن يُحكَمَ بالحديد والنار كما في السابق، ولا بالتطرف الديني الموجود اليوم. كان السيد بحر العلوم بسعة فكره ومداركه يعي هذا الأمر بشكل كامل، ويريد أن يبنيَ العراق بحيث يتّسع للجميع عن طريق العلم، فهو من أسرة علمية، ويشعر بانتماء أكبر في مدينته النجف بين أهله وأصدقائه وكتبه. وهكذا اختار أن يقضي آخر أيام عمره بين صفوف معهد علمي وبين طلابه، وأعلم بأنّ فقد زوجته وشريكة عمره التي كان مخلصاً لها قد أثّر عليه كثيراً فكان تاسيس ذلك المعهد العلمي عزاءا له في فقدها.

طرائف في الذاكرة

أذكر بعض الحوادث الطريفة التي حصلت في مجلس الحكم. في إحدى المرات، أراد الدكتور أحمد الجلبي تشكيل لجنة مختصّة في أمر ما، وكنت أجلس خلف الدكتور عدنان الباججي عادة، إلا أنه في ذلك اليوم، كان الدكتور عطا عبد الوهاب يجلس في ذلك المقعد. فقال الدكتور أحمد الجلبي: سوف يكون في اللجنة كلّ من السيد عبد العزيز الحكيم (رحمه الله) وأنا وآخرون، وكان عددهم ٥ أشخاص، فأشرت إلى السيد عطا بأن يكون سادسهم، ثم انضم آخرون حتى أصبح عدد الأعضاء ١١ شخصاً، ثم أرادت أمرأتان الانضمام إلى اللجنة أيضاً، فقال السيد بحر العلوم، وهو رئيس مجلس الحكم، بأن العدد أصبح كبيراً، فقام بعمل قرعة بينهما، وأثار هذا الأمر غضبي، كون أن الاقتراع وقع بين النسوة وليس بين الرجال فذهبت إلى السيد بحر العلوم وقلت له: كيف تقوم بهذا الأمر مع النساء؟ فقال لي: وأين هنّ هؤلاء النساء، هل ترين هناك من نساء؟!

النائبة ميسون الدملوجي في سطور

* سياسية عراقية ناشطة في مجال حقوق المرأة
* ولدت في بغداد ١٥ شباط ١٩٦٢ من أسرة علمية مرموقة ووالدها أستاذ في كلية الطب والجراح المعروف د. سالم الدملوجي وأمها الدكتورة لمعان أمين زكي رائدة طب الأطفال في العراق وخالتها د. سانحة أمين زكي أستاذة الفارمو كولوجي بالكلية الطبية العراقية
* هاجرت من العراق عام ١٩٨١ وانضمت للتيار الديمقراطي المعارض لنظام صدام حسين
* حصلت على بكلويوس الهندسة المعمارية من جامعة لندن
* ونالت شهادة الماجستير بالهندسة المعمارية ١٩٩٠ من جامعة لندن أيضاً
* ونالت اختصاصاً يعادل الدكتوراه ١٩٩٧
* حصلت على ماجستير في إدارة مواقع العمل من جامعة لندن ٢٠٠٣
* أصبحت عضواً نائباً في مجلس الحكم للنائب عدنان الباججي
* وكيلة لوزير الثقافة من ٢٠٠٤ لغاية ٢٠٠٦
* نائب في البرلمان العراقي عن القائمة الوطنية العراقية التي يتزعمها الدكتور أياد علاوي

شهادة
أنجال الفقيد الكبير

السيد بحر العلوم إرادة وعزم

شهادة الدكتور إبراهيم بحر العلوم

أسرة بحر العلوم

لقد تميزت هذه الأسرة على مدى ثلاثة قرون من الزمن، بدءاً بزعيمها السيّد محمّد مهدي بحر العلوم الذي أحدث انقلاباً في مفهوم المرجعية الدينية وعمد إلى مأسستها، وربما يُعَدّ ما فعله خطوة يتيمة وفريدة في ألف عام من حياة المرجعية الدينية. وهي أسرة تميز أبناؤها بتعددية واضحة في المواهب والمشارب، ففيهم الفقهاء والقضاة والشعراء. في هذه الأسرة ظواهر متميزة كان السيّد محمّد بحر العلوم إحداها، فقد تميز في النصف الثاني من القرن الأخير بمواهبه المتعددة التي تمكن من خلالها من حفظ مكانة الأسرة في المجتمع العراقي والعربي والإسلامي وكذلك الدولي.

هو نقطة مضيئة في سلسلة هذه العائلة التي قدمت خدماتها للحوزة العلمية والشعب العراقي، وساهمت مساهمة فعالة في تشييد الدولة العراقية عام ١٩٢٠، كما ساهمت في بناء الدولة العراقية الجديدة عام ٢٠٠٣.

موسوعة مهمة في التأليف والكتابة

ما جذب اهتمامي عند تصفحي لآثار سبعين سنة من حياة السيّد بحر العلوم، كان أنه أتمّ كتابة موسوعة تاريخية مهمة من أربعة أجزاء هي «موسوعة الدولة الفاطمية» قبل أن يكمل الخامسة والعشرين من عمره، يوثّق فيها تاريخ

الإسماعيلية والدولة الفاطمية. ما زال المشروع مخطوطاً لم يُطبع وعليه تعليقات أستاذه الشيخ محمّد أمين زين الدين. هذا العمل من آثاره المهمة التي ننوي طباعتها بإذن الله.

عندما نأتي إلى نهاية الخمسينات من عمره، نجد أنه أصبح رائداً من رواد تطويع التاريخ الإسلامي وكتابته بأسلوب أدبي وقصصي، وكان ذلك بتكليف من الشهيد السيّد محمّد باقر الصّدر. توسع السيّد بحر العلوم في التأليف بعد ذلك ليستكمل كتاباته في السيرة النبوية وسيرة أهل البيت(ع) والصحابة وهي تقع في عشرة أجزاء. ذكر كثير من الإخوان الذين كانوا في المعتقلات كيف أنّ هذه الكتب التي كانت تُهرَّب إليهم وهم في السجون، تشحذ هممهم على مقارعة الظلم وتمنحهم جرعاتٍ من الصبر والمقاومة. لقد تمكن سماحة السيّد بحر العلوم من تطويع التاريخ إلى قصة يمكن أن تُستلهَم منها العبر والدروس.

كتب السيّد في التاريخ الإسلامي أيضاً قرابة ثلاثة أجزاء عن «الصراع الإسلامي في العهد الأموي»، وكان يود أن يستكملها بالكتابة عن العهد العباسي، ولا أعتقد أنّ الفرصة واتته لذلك. هذا في الجانب التاريخي.

في الفقه والاجتهاد

أما في الجانب العلمي والفقهي، فلعل كتاباته في موضوع الاجتهاد، ومنها «الاجتهاد: أصوله وأحكامه» هي من أكثر آثاره الأكاديمية موضعاً للدراسة والبحث والإقبال من قبل الطلبة، وقد تطرق فيها إلى ولاية الفقيه وصلاحياتها ومنابعها في الفكر الشيعي. وكذلك دراسته (عيوب الإرادة في الشريعة الإسلامية) أصبح من المصادر الإسلامية في اقسام القانون والشريعة في الجامعات العربية، قد ساهم أيضاً إسهاماتٍ فاعلة في كثير من البحوث العلمية أثناء المؤتمرات الفقهية، فكانت له بحوث في الإجهاض والاحتكار وأخرى في مسائل الأحوال الشخصية.

فقه الأسرة

برز سماحة السيّد بحر العلوم منذ عام ١٩٦٠ وحتى أواخر أيامه، وأصبح رائداً لفقه الأسرة، وتمكن من تقديم بحوث مطوّلة في الأحوال الشخصية والنفقة والشهادة والكثير من المواضيع. كان خلال الفترة الأخيرة من حياته يدرّس طلبة الدراسات العليا في قسم القانون الخاص بالأحوال الشخصية في معهد العَلَمَين، وكان بارعاً في هذا المجال واستفاد من خبرته الطويلة في القضاء التي اكتسبها أثناء إقامته في الكويت، وقد سمعت الكثير من الإخوة المحامين والقضاة في دولة الكويت يمتدحون قراراته ويعتبرونها وازنة ومتزنة، ولم يُرَدّ قرار واحد من قراراته طوال فترة توليه القضاء هناك.

في الجانب الأدبي. يعد سماحة السيّد بحر العلوم رائداً من رواد الشعر الحر، فكان الشخص الأول في مدرسة النجف الأدبية اذ اعتلى منصة هذا اللون من الشعر، وأول من قام بتفعيلها. في التفسير. السيّد بحر العلوم عالم ذو باع طويل في علم التفسير، فقد درّس مادة التفسير في كلية أصول الدين في بغداد بين عامي ١٩٦٧ و١٩٦٨، وبدأ بسورة النساء، وكتب الكثير من المواضيع والبحوث عن نظام الحكم في الإسلام وغيرها، ولعل بحثه عن التفسير والمفسرين عند الشيعة الإمامية أنموذجا يعكس عمق اطلاعه.

السيّد بحر العلوم شخصية متعددة الجوانب والمواهب، إذ تمكّن من البحث في تاريخ الفقه الإسلامي، الأصول، التفسير، الأدب، وحتى الشعر، وهذه المواهب الكثيرة أعطته أبعاداً مختلفة في مسيرة حياته.

أسأل الله أن يوفقنا لطباعة الموسوعة الكاملة لأبحاثه والتي قد تتجاوز العشرين مجلداً، فضلا عن أبحاثه السياسية والفقهية لتأصيل المبادئ السياسية في الإسلام وخاصة في مجالَي حقوق الإنسان والديمقراطية. لقد حفلت حقبة التسعينات بمجموعة من هذه الأبحاث التي يزاوج فيها بين

الإسلام وثوابته من جهة، وآليات الديمقراطية التي تُستَخدم في عالم اليوم من جهة أخرى.

الرابطة والمنتدى والمشترك بينهما

في مرحلة الأربعينات، كانت تتنازع في النجف ظاهرتان: ظاهرة جمعية الرابطة الأدبية وظاهرة جمعية منتدى النشر، ولكلٍّ منهما إطارها الخاص. الشخص الوحيد الذي تمكن من الجمع بين الظاهرتين والانتماء إلى كليهما كان السيّد بحر العلوم، فكان فاعلًا ومؤسساً في جمعية الرابطة وفي منتدى النشر في الوقت نفسه. كان أحد أنصار الحركة التجديدية التي قادها الشيخ محمّد رضا المظفّر، وعمل على إنجاحها طوال فترة الخمسينات والستينات وتفاعل معها تفاعلًا جاداً، وكان من الأوائل الذين تحمسوا لإنجاح مشروع كلية الفقه، ولربما كان من الرعيل الأول في هذا المجال.

معهد الدراسات الإسلامية في جامعة بغداد

لم تتوقف حركته التجديدية ومناصرته للشيخ المظفّر عند هذا الحد، بل بعد استكمالهم الدراسات الأولية في الفقه والشريعة في كلية الفقه، عمدوا إلى فتح معهد الدراسات الإسلامية في جامعة بغداد عام ١٩٦٥، وكان الرعيل الأول لهذا المعهد هم خرّيجي كلية الفقه من تلامذة الشيخ المظفّر، كالشيخ الوائلي والسيّد جمال الدين والشيخ الآصفي والشيخ الفضلي، الذين لم يتمكنوا من متابعة دراستهم بسبب الأوضاع السياسية الضاغطة في تلك الفترة، فانتقلوا إلى كلية دار العلوم في القاهرة لإكمال دراساتهم العليا. لذلك، تجد أنّ رواد الحركة العلمية والثقافية التي انتشرت في السبعينات والثمانينات في العالم العربي والإسلامي كانوا من تلامذة الشيخ المظفّر ومن خريجي كلية الفقه الأوائل الذين تمكنوا من الجمع بين الحداثة والأصالة، بين الحوزة العلمية في النجف الأشرف وبين التجديد في الأسلوب، فكانوا مناصرين للشيخ المظفّر في مشروعه.

معهد العلمين

حمل السيّد بحر العلوم هذا الهمّ معه إلى الغربة وأسس في لندن معهد الدراسات الإسلامية، ولكنه لم يتمكن من استكماله بالشكل الطموح الذي يرغب فيه. وعندما عاد إلى عرينه في النجف، كان من أول اهتماماته تأسيس معهد العَلَمَين للدراسات العليا. والحمد لله تعالى، اكتمل هذا المعهد خلال الثماني سنوات الماضية ببذل الجهد والمال والتعب، وأصبح يُعَدّ اليوم أحد الصروح العلمية والأكاديمية في النجف. يضم معهد العَلَمَين حوالي (٣٠٠) طالب في مرحلة الماجستير والدكتوراه يتوزعون على اختصاصات السياسية والقانون والفكر الإسلامي. المعهد ثمرة من ثمرات هذا المشروع التجديدي الذي حمله الشيخ المظفّر ومن بعده تلامذته وإخوانه كالسيّد بحر العلوم، وأعتقد أنّ الأمل ما يزال موجوداً في مثل هذه المشاريع من أجل استكمال الحركة التنويرية التي بدأها الشيخ المظفّر.

بدأ السيّد بحر العلوم بإصدار مجلاته الأكاديمية كمجلة المعهد في لندن منذ منتصف التسعينات، وهي ما زالت تصدر حتى يومنا هذا، وتعتبر من المجلات الأكاديمية المحكّمة والمعروفة بأبحاثها التي تزاوج بين الفكر الإسلامي والدراسات السياسية والقانونية في العراق.

إنّ السيّد بحر العلوم هو إحدى الحلقات التي استكملت مشروع المظفّر الذي بدأ منذ الأربعينيات في مدارس منتدى النشر، والتي كان السيّد بحر العلوم أحد تلامذتها بين عامي ١٩٤٤ و١٩٤٥.

هدية النجاح من المظفر

يذكر السيّد بحر العلوم في مذكراته بأنه عندما تخرج في السنة الأولى، نظّم الشيخ المظفّر حفل تخرج واسع جمع فيه علماء النجف كعادته في كل سنة، في محاولة منه لأن يُطلع النجفيين على مشروعه التجديدي في ذلك الوقت، وكان السيّد الوالد من الطلبة الذين نجحوا في تلك المرحلة، وقد قُدّم

له كتاب «الصحيفة السجادية»، وهي هدية سماحة السيّد محسن الحكيم لطلبة مدرسة منتدى النشر، وبقي السيّد بحر العلوم مدى عمره متجاوباً مع هذا المشروع.

يضيف السيّد بحر العلوم في مذكراته: إنّ أول كلمة ألقيتها كانت في أحد محافل خريجي مدرسة منتدى النشر بين عامي ١٩٤٣ و١٩٤٤. كانت المدرسة تتكون من أربعة صفوف يصبح الطالب من بعدها مهيّأً للحوزة العلمية. المواد التي تُدَرَّس فيها لا تقتصر على الفقه والأصول والمنطق فحسب، وإنما تشتمل أيضاً على الحساب والفلك بالإضافة إلى مادة اللغة الإنكليزية في بعض الأحيان، وقد كتب الشيخ محمّد رضا المظفّر الكلمة من أجلي فألقيتها مبتهجاً في ذلك الوقت.

من مذكرات بحر العلوم

فيما بعد، يذكر السيّد بحر العلوم في مذكراته: بعث لي الشيخ المظفّر برسالة يقول فيها: «في الغد، لدينا حفلة بمناسبة عيد الغدير، وأريدك أن تكون مُلقياً فيها». ففرحت وكتبت كلمة بهذه المناسبة، وكانت عادتي عند كتابة الكلمات هي أن اطلعها على أحد قبل إلقائها، فلم أجد في تلك المرحلة إلا الشيخ محمّد علي اليعقوبي والسيّد الحبّوبي اللذَين كانا في زيارة إلى ديواننا، فطلبت منهما أن يراجعا النصّ، فحفظها السيد محمود الحبّوبي في جيبه وقال لي: مرّ لرؤيتي غداً في الساعة الخامسة عصراً. وبالفعل، ذهبت إلى الرابطة - وكانت المرة الأولى إلتي أدخل فيها إلى ذلك المكان - وكنت أتوقع أن تكون الكلمة التي أعطيتها للسيد الحبّوبي معدّلة ومهيأة لإلقائها في جمعية المنتدى، إلا أنني وجدت هناك حفلًا، وعند دخولي تقدم عريف الحفل، وهو السيّد علي الهاشمي وقال: يتقدم إليكم الشاب المهذب السيّد محمّد بحر العلوم لإلقاء كلمته. فأُسقط في يدي وقلت إنّ هذه الكلمة معدّة للشيخ المظفّر، فكيف تقوم الرابطة باقتطافها مني وتجعلها في برنامج احتفالها؟! وأخيراً اضطررت لأن

ألقي هذه الكلمة غير محرَّكة، وكان الأمر برمّته تجربة كبيرة بالنسبة لي وكانت هي المفتاح لدخولي إلى الرابطة والانتماء إلى الجمعيتين في آن واحد.

ما بين بحر العلوم والمرجع الحكيم

لم تكن علاقة السيّد محمّد بحر العلوم بالمرجع السيّد الحكيم وليدة الستينات، وإنما تعود لمنتصف الأربعينات من القرن السابق، فكان المرحوم الجد السيّد علي بحر العلوم هو الزعيم الديني والسياسي آنذاك، وكان من الملازمين للسيّد الحكيم (رحمه الله) وجزءاً من حلقة الخواص المحيطين به، ولذلك، عندما أطالع مذكرات السيّد محمّد بحر العلوم، أجد أنه يذكر لقاءاتٍ خاصة مع المرجع السيّد الحكيم في الخمسينات. يقول السيّد بحر العلوم في مذكراته:(كنت في كل سفرة أسافرها إلى خارج العراق أو داخله - إلى العمارة مثلًا لمدة تقارب الشهرين - أذهب لتوديع السيّد الحكيم الكبير، وعندما أعود من سفري فإن السيّد الحكيم كان يأتي لزيارتي في ديوان آل بحر العلوم).

إذن، فالعلاقة هي علاقة تاريخية من أب إلى إبن. كان السيّد بحر العلوم من المتحمسين لمرجعية السيّد الحكيم التي تجلت في منتصف الخمسينات، وتحديداً بعد انتفاضة النجف عام ١٩٥٦، حيث برز السيّد محسن الحكيم كمرجع أساسي في العراق، وكان من الذين يدفعون بهذا الاتجاه السيّد علي بحر العلوم والشيخ حسين الحلي ومجموعة الصفوة التي كانت معروفة حينئذٍ في محيط النجف.

بقي السيّد محسن الحكيم يرعى الأسرة والعائلة، وقد برز ذلك في الستينات عند وفاة السيّد الجد في تموز من عام ١٩٦٠، إذ كان المعُزّى هو السيّد الحكيم. كانت العلاقة قد تطورت وتبلورت طوال الخمسينات مع السيّد الحكيم، وكان كلٌّ من السيّد الجد والسيّد الوالد يرافقان السيّد الحكيم في أغلب سفراته إلى بغداد والمناطق العراقية في نهاية الخمسينات. عند وفاة

السيّد الجد، آلت زعامة الأسرة إلى السيّد محمّد بحر العلوم، وكان هناك دعم من السيّد الحكيم لأن تبقى هذه الأسرة مشّعة ومعروفة بأبنائها.

من الدعوة إلى المرجعية

لقد انحاز السيّد بحر العلوم إلى مرجعية السيّد محسن الحكيم منذ الستينات، وجُمِّدت عضويته في حزب الدعوة الإسلامية في أيلول ١٩٦٠ بطلب من السيّد الشهيد محمّد باقر الصّدر. يقول السيّد بحر العلوم في مذكراته:(في تموز من عام ١٩٦٠ طرق عليَّ الباب السيّد الشهيد محمّد باقر الصّدر، وبقي واقفاً بالباب وقال لي: لقد قررنا تجميدك أنت وثلاثة من الشخصيات، ولا أريدك أن تسألني عن أسماء هؤلاء كما لا أريدك أن تسأل عن أسباب التجميد، وهكذا انقطعت علاقة السيّد محمّد بحر العلوم بحزب الدعوة الإسلامي كتنظيم بعد وفاة والده السيّد بحر العلوم)، يشير السيّد بحر العلوم إلى هذا الأمر في بعض مذكراته شارحاً ما يظنّ أنه من أسباب تجميد عمله في حزب الدعوة. يقول بحر العلوم أنّ الأوضاع الاجتماعية والسياسية واندكاكه بمرجعية السيّد الحكيم وقربه من هذه الحلقات كان يتعارض مع أدبيات التنظيم السرّي للحزب. فهو شخصية سياسية أدبية وصاحب وجهٍ اجتماعي في العراق. وقد عمل في ما بعد ضمن الحركة الإسلامية وفي حلقة السيّد محمّد باقر الصّدر من أجل توثيق العلاقة بين المرجعية وبين الحركة الإسلامية في العراق.

وجد السيّد الحكيم في السيّد بحر العلوم كل العناصر القادرة على تفعيل الوضع الاجتماعي والأدبي والسياسي في آن واحد، ولذلك كان يعتمد عليه كثيراً في النجف وبغداد وفي حركته السياسية، وتبلور هذا الأمر بشكل خاص في الاتكال على إدارته للاحتفالات في المناسبات الدينية، فكان رائدها في النجف وكربلاء وبغداد، وخاصة احتفالات النجف التي كانت منبراً سياسياً

تعتمده المرجعية الدينية لمواجهة الانحرافات التي حدثت منذ بداية عهد عبد الكريم قاسم واستمرت في عهد عارف ثم البعث، هذا من جهة.

مكتبات الإمام الحكيم

من جهة ثانية، وجد الإمام السيد الحكيم في السيد بحر العلوم الوجه الأكاديمي والثقافي القادر على تمويج الحركة الثقافية، فكان له باع طويل في المشاركة في تأسيس مكتبة الإمام الحكيم وفتح ما يقارب الخمسين فرعاً لها في الأقضية والنواحي في العراق وخارجه. إضافة إلى ذلك، اعتمد عليه السيّد الحكيم في الشق السياسي من عمل المرجعية، فكان حلقة الوصل - هو والسيّد مهدي الحكيم والسيّد محمّد باقر الحكيم - مع الشهيد السيّد الصّدر والأحزاب الإسلامية، وكذلك الحلقة الموصلة مع الأحزاب السياسية المعروفة في الساحة في تلك المرحلة في بغداد.

أذكر حادثة حصلت ربما في عام ١٩٦٥، عندما استدعى السيّد الحكيم سماحة السيّد بحر العلوم وقال له: ماذا سيكون حديثك غداً في الاحتفال؟ على اعتبار أن السيّد بحر العلوم هو الذي يلقي كلمة لجنة الاحتفال، وهذه الكلمة هي الكلمة الرئيسية التي تعبّر عن المطالب الشعبية ومطالب المرجعية، فأجاب السيّد بحر العلوم: سوف أتحدث عن المحور الطائفي ومحور التهميش في مسائل التعليم والمعارف ومفهوم الجنسية والمواطنة، فقال له السيّد الحكيم: سمعت أن هناك عقوداً نفطية أبرمتها الحكومة العراقية مع الشركات الفرنسية، وأنها لا تصبّ في مصلحة الشعب العراقي، فأرجو منك الذهاب إلى بغداد والاجتماع مع من يعلم شيئاً عن هذا الأمر لاستبيان الحقيقة. يقول بحر العلوم، ذهبت إلى بغداد وبقيت هناك ثلاثة أيام التقيت خلالها بوزير النفط محمّد سلمان، بواسطة الجرّاح المعروف السيّد كاظم شبر، فسألته: ما حقيقة هذه العقود، وهل أنها لصالح الشعب العراقي أم لا؟ فأجابني بصراحة قائلًا:

إنها ليست في صالح الشعب العراقي. ثبّت السيّد هذه المعلومة في المذكرة السياسية التي ألقيت في احتفال الإمام الحسين وطالبت بإلغاء هذه العقود.

إضافة إلى ذلك، كان السيّد الحكيم يرى في بحر العلوم الوجه الأكاديمي، فدفعه لدخول اللجنة المؤسسة لجامعة الكوفة التي يرأسها العلّامة الدكتور محمّد مكيّة.

في ملفاته الأمنية

كنت أطالع في ملف الأمن للسيد محمّد بحر العلوم، قبل فترة التقارير الأمنية، فوجدت تقارير تشير إلى انتخابات جامعة الكوفة واستضافة السيّد بحر العلوم في الستينات لأعضاء الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة والنجف. من المشاريع الأكاديمية التي دفع السيّد الحكيم السيّد بحر العلوم لدعمها أيضاً، مشروع «كلية أصول الدين» التي أسسها المرحوم المحقق السيّد مرتضى العسكري.

كانت له مساهمات كثيرة في إقامة دورات تربوية للكوادر العراقية في جمعية الرابطة والتي كانت بإشراف السيّد محسن الحكيم.

حلقات ثلاث

إذا ما تصفحنا نشاط الرابطة الأدبية، فإننا نجد أن هذا النشاط قد تميز تميزاً ظاهراً في الستينات وخاصة في الأعوام ١٩٦٥، ١٩٦٦، و١٩٦٧، إذ نجح السيّد بحر العلوم، بدعم من المرجعية، في تعشيق حلقات ثلاث: حلقة الحركة الإسلامية، حلقة الأكاديميين العراقيين في الجامعات العراقية، وحلقة العلماء المتنورين في خارج العراق كالسيّد موسى الصّدر والشيخ محمّد جواد مغنية والشيخ محمّد مهدي شمس الدين.

جمع السيّد بحر العلوم بين هذه الحلقات الثلاث، فأوجد مناخاً جديداً في النجف بمواسمه الثقافية التي كانت تستمر لشهرين وتتميز بمناهجها المتنوعة.

كانت معظم النظريات الإسلامية المهمة تُطرَح في هذه المواسم، مثل أطروحة السيّد الشهيد الصّدر حول «دور أئمة أهل البيت في ممارسة الدور الرسالي»، ومشروع السيّد موسى الصّدر في «إمكانية التعايش مع المسلمين في الخارج» وغيرهما، بالإضافة إلى مشاريع من قبل طلبة جامعيين كمشروع محمّد مكيّة الذي قدم شرحاً مفصلًا لمشروعه الأكاديمي في النجف. ازدهرت المواسم الثقافية لجمعية الرابطة بعد رحيل رئيسها الشيخ محمّد علي اليعقوبي وتولي السيّد محمّد بحر العلوم رئاستها، وأراد التغيير والتجديد في نمط العملية، فتمكن من جمع هذه الحلقات الثلاث التي أبرزت مظهراً ثقافياً متنوعاً يُشار إليه بالبنان. وقد وُثِّقت معظم هذه المواد في مجلة الإيمان النجفية التي كان يرأس تحريرها الخطيب الشيخ موسى اليعقوبي، نجل عميد الخطباء الشيخ اليعقوبي ووالد المرجع الشيخ محمّد اليعقوبي.

تأميمات خيري الدين حسيب

إذاً، كانت هناك حركة أكاديمية ثقافية سياسية، وإضافة إلى ذلك، اكتشفوا ولو متأخرين، بأنّ قرار التأميم الذي أصدره عبد السلام عارف في ١٤ تموز عام ١٩٦٤ مضرّ بالقطاع الاقتصادي ويؤدي إلى سلب الحريات الشخصية، فوقفت المرجعية الدينية ضده. كانت هناك شعارات طائفية رفعها عبد السلام عارف في تلك الفترة مما هيج عشائر الفرات الأوسط وسائر العشائر في تلك المرحلة، وعلى أثر التوترات التي حدثت بين المرجعية وبين عبد السلام عارف، ثارت العشائر العراقية في الفرات الأوسط واحتلت مخافر الشرطة والدوائر المدنية في المشخاب والشامية في إعلانٍ للاحتجاج. أُبلغ السيّد الحكيم بحركة الاحتجاج وبأنّ هؤلاء الناس المنتفضين في الشوارع ينتظرون رأيه، فأوعز السيّد الحكيم الكبير إلى السيّد بحر العلوم وإلى نجله السيّد محمّد باقر الحكيم بأن يذهبا لفكّ الاعتصامات والتظاهرات. يقول السيّد بحر العلوم: (لقد استغربت من هذا الأمر، فهذه فرصة بالنسبة لنا، فاليوم قد

انتفض الفرات الأوسط، وستمتد أخبار هذه الانتفاضة إلى الجنوب وهذا سيُضعِف عبد السلام عارف. إلا أننا نفذنا أمر السيّد الحكيم، وطلبنا من العشائر المنتفضة فكّ الاعتصام، وأن يعيدوا مخافر الشرطة والدوائر المدنية إلى أصحابها، لكننا رجعنا محبطَين. في اليوم التالي، أرسل المرجع الكبير السيّد الحكيم بطلبنا وقال لنا: لِمَ لم تسألوني عن السبب في ذلك؟ فقلنا له: نحن نفّذنا الأمر ونتوقع أن نفهم الأسباب بحسب رأيكم، فقال لنا: لنفترض أنّ هذه الانتفاضات نجحت وسقط عبد السلام عارف، فهل لديكم البديل المناسب لإدارة البلاد، أم أننا سنقع في الفوضى وستزداد المشاكل؟ يقول السيّد بحر العلوم: التقطت هذه الإشارة، وعلمت أننا لا تتوفر لدينا الكوادر المؤمنة والقادرة على إدارة البلاد، وهذا ما حدا بالسيّد الحكيم إلى أن يبعثنا لفكّ الاعتصامات).

ثلاثة محاور

إلا أننا بدأنا العمل على مشروع جديد بثلاثة محاور.

المحور الأول، المشروع السياسي: ينبغي أن نؤسس تياراً سياسياً، وينبغي لهذا التيار أن يكون له وجه مناسب، فلم نجد غير عمامة الشيخ محمّد رضا الشبيبي، فذهبنا إليه واتفقنا معه، فقدّم في حينه مذكرة إلى عبد الرحمن البزّاز عام ١٩٦٦، كانت من أهم المذكرات التي قُدمت في تلك الفترة. يقول السيّد بحر العلوم: إن هذه المذكرة كانت بعلم ومعرفة السيّد الحكيم.

بدأنا بالتخطيط لهذا المشروع السياسي، وكنا ننتظر المبادرة من الشيخ الشبيبي فقال: أمهلوني حتى أحضر مؤتمر القدس في الأردن. يقول السيّد بحر العلوم: ودّعنا الشيخ الشبيبي في المطار واستقبلناه حين مجيئه من المؤتمر باستقبال حافل، وأشعرنا الآخرين بأن هناك حركة سياسية على وشك الخروج إلى النور، ولكن القدر لم يمهلنا، ففي نفس الليلة التي عاد بها الشيخ الشبيبي

من المؤتمر، والذي كان يفترض أن يبدأ بعدها بمشروعه السياسي، انتقل إلى رحمة اللّه.

المحور الثاني، المشروع العسكري: بدأنا بالعمل على مشروع تجميع الطاقات العسكرية، وقد اخترنا لقيادة هذا المشروع العميد الركن محمّد رشيد الجنابي، وهو من الشخصيات العسكرية المعروفة التي كان لها مواقف جادة مع الأنظمة. وصار البدء بإعداد صفوف العسكريين وتوجيههم، إلا أنّ هذا المشروع أُجهض أيضاً في نهاية الستينات حين أُلقي القبض على محمّد رشيد الجنابي.

المحور الثالث، المشروع الأكاديمي: وهو مشروع جامعة الكوفة. بذلنا أقصى جهدنا لإبراز جامعة الكوفة كمؤسسة تضم الجميع.

يقول السيّد بحر العلوم في مذكراته:(ذهبنا نحن، الجهة المؤسسة لجامعة الكوفة، إلى السيّد الحكيم لأخذ المباركة منه، فقال لنا: إني أباركُكم، وسأدعمكم معنوياً وسياسياً ومالياً. أريدكم أن تتمكنوا من إخراج مجموعة عراقية قادرة على إدارة البلاد بواسطة هذا المشروع العلمي. يقول السيّد بحر العلوم: جُمِعَت الأموال من أجل هذا المشروع وخُصِّصَت له الأراضي، وكانت له منتديات في الكرادة وله موسم ثقافي شاركنا وشاركَتْ فيه الكثير من العناصر المثقفة والمؤثرة في الجامعات العراقية. هذا المشروع أجهضه البعثيون في عام ١٩٦٩، إذ كانت أول خطوة قاموا بها بعد ضرب المرجعية هي الإجهاز على مشروع جامعة الكوفة، وكان المسؤول عن هذا الأمر صالح مهدي عماش الذي قال لي: هذا المشروع سوف لن يكون إلا حلماً، إذ أنني سوف أقضي عليه؛ وبالفعل، قُضيَ على المشاريع الثلاثة التي كان السيّد الحكيم داعماً لها بواسطة السيّد بحر العلوم والسيّد مهدي الحكيم والسيّد محمّد باقر الحكيم.

خلاصة الحديث، تمكن السيّد بحر العلوم خلال فترة قصيرة جداً وهي حوالي عشر سنوات، من احتلال موقع مهم ضمن مرجعية الإمام الحكيم، فأصبح ركناً أساسياً من أركانها وأدّى الأمانة بإخلاصٍ وتفانٍ من أجل العراق

والحركة الإسلامية والوطنية. كان يتمتع طوال هذه المدة بعلاقات ودية مع جميع الحركات السياسية، ليس في داخل العراق وحسب، وإنما في خارجه أيضاً.

في هذه الأثناء، كان مشروع البعثيين الذي أقرّه المؤتمر القطري في ١٩٦٨ هو الإجهاز على الرجعية - يقصدون بذلك «المرجعية» - والدوائر المتعددة المتعلقة بها. بدأوا بحركة لاستفزاز الحوزة العلمية في عامي ١٩٦٨ و١٩٦٩، فهجّروا معظم الأساتذة وطلبة الحوزة العلمية من ذوي الأصول الإيرانية، فاحتج السيّد الحيكم على ذلك إلا أنّ ذلك الاحتجاج لم ينفع، فسافر إلى بغداد لإعلان احتجاجه، وهبّت الجماهير كلها في الكاظمية في حزيران من عام ١٩٦٩. وكان صدّام حسين يحاول خلال تلك الفترة أن يحصل من السيّد الحكيم على إذن لزيارته، فرفض السيّد الحكيم وقال: لا أقابل شخصية غير الشخصيات المسؤولة، فهو لا يمتلك صفة مسؤولة. وكان السيّد الحكيم يعرف أنّ صدّام حسين هو المسؤول عن أمانة حزب البعث، لكنه لا يحتل منصباً في الحكومة العراقية ظاهرياً. أجهز البعث وصدّام على المرجعية الدينية، وكان بعض ذلك عن طريق اتهام السيّد مهدي الحكيم بالتجسس، وفي الوقت نفسه، صدرت أوامر بإلقاء القبض على السيّد محمّد بحر العلوم والمجموعة المقربة من السيّد الحكيم.

نصيحة مدير الأمن

كان مدير الأمن العام في تلك المرحلة هو حامد العاني وكانت له علاقات طيبة مع السيّد الوالد، فنصحه في نهايات العام ١٩٦٨ بمغادرة العراق وقال له: أنصحك بمغادرة العراق، فهناك خطة لضرب المرجعية والعناصر المقربة منها وأنت في المقدمة.

عاد السيّد الحكيم من سفره واحتجب في بيته في الكوفة على الرغم من الوساطات الكبيرة من خارج العراق وداخله، ولكنه كان محتجاً على الوضع

القائم في العراق، وتمكن السيّد مهدي الحكيم والسيّد محمّد بحر العلوم وآخرين من الخروج من العراق، على أمل تفعيل الخارج من أجل دعم المرجعية الدينية، وبدأت رحلة الغربة والهجرة في شهر أيلول من عام ١٩٦٩.

مشوار العلم والشهادات الاكاديمية

كان السيّد بحر العلوم قد أنجز رسالة الماجستير وعنوانها «الاجتهاد: أصوله وأحكامه» تحت إشراف أستاذه الجليل العلّامة السيّد محمّد تقي الحكيم، والذي دفع به إلى المناقشة في شهر آب من عام ١٩٦٩. كان رئيس معهد الدراسات الإسلامية في ذلك الحين هو الدكتور أحمد صالح العلي وهو من الشخصيات الجليلة، فبعث برسالة إلى السيّد بحر العلوم قال فيها: إياك أن تأتي لمناقشة الرسالة، فقد تم إعداد كمين لك هناك لإلقاء القبض عليك. وهكذا خرج السيّد بحر العلوم من العراق بدون أن يناقش رسالته في بغداد. ذهب إلى القاهرة بهدف إكمالها، فرفضوا استكمالها، وحينئذٍ توجه إلى إيران، وفي طهران قبلوا بمناقشة رسالته وبقي هناك قرابة سنة واحدة لترجمتها إلى اللغة الفارسية. لم يكن السيّد بحر العلوم يتقن الفارسية ولكنه نجح في الدفاع عن هذه الرسالة، وكانت موضع إعجاب اللجنة المشرفة، وقد نال عليها درجة الامتياز من كلية الإلهيات في جامعة طهران.

لم يبقَ السيّد في طهران على الرغم من إصرار الأصدقاء، وآثر الخروج إلى أجواء أخرى أكثر انفتاحاً وتماشياً مع أجوائه، فذهب إلى الكويت، وكانت له علاقات جيدة مع السيّد موسى الصدر. كان لدى السيّد موسى الصّدر مشروع لتأسيس كلية في بيروت على غرار كلية الفقه، وطلب من السيّد بحر العلوم بأن يكون مشرفاً على هذا المشروع. لكن هذا المشروع كان في بداياته، ولم يتحقق في النهاية، وكان هذا بين عامي ١٩٧١ و١٩٧٢.

أطروحة الدكتوراه

بدأ مشواره الأكاديمي بتسجيل رسالة الدكتوراه في كلية العلوم في جامعة القاهرة، وبقي فترة يحاول اختيار الموضوع المناسب، وكان يراسل السيّد الشهيد الصّدر والسيّد محمّد تقي الحكيم وباقي العلماء الأجلاء في الحوزة العلمية لهذه الغاية. أخيراً تم الاتفاق على أن يكون الموضوع هو «عيوب الإرادة في الشريعة الإسلامية». يشتمل هذا الموضوع على الشريعة والقانون مع مقاربةٍ للقوانين الوضعية، ويُعَدّ من المواضيع الصعبة، إلا أنّ السيّد تمكن من اجتياز هذا المشروع بامتياز، وبالفعل، حصل على الدكتوراه بين عامي ١٩٧٩ و١٩٨٠ من القاهرة على الرغم من التزامه بمهمة القضاء في الكويت في تلك الفترة، وأصبح هذا السفر احد مصادر المكتبة الفقهية والقانونية ومصدرا من مصادر البحث الجامعي.

لم يكن هذا طموحه الأول والأخير، فكان يفكر في المشروع الأكاديمي وبقي يلاحقه، غير أنّ السياسة طغت عليه في الثمانينات والتسعينات.

معارضاً

بالعودة قليلًا إلى الوراء، هناك ركيزتان أساسيتان كان السيّد محمّد بحر العلوم يستند إليهما، وربما اتضح ذلك في مؤتمر نصرة الشعب العراقي الذي أُقيم في طهران ١٩٨٦ وحضرته أغلب قوى المعارضة العربية والكردية.

كان الحديث في هذا المؤتمر ينصبّ على قضيتين أساسيتين:

الأولى. كان السيّد يكرر: لا تراهنوا على العامل الإقليمي في إسقاط صدّام حسين، فقد كان الرهان السائد حينها هو أنّ الحرب العراقية الإيرانية قادرة على إسقاط صدّام. وهذا تنبؤ مبكر من السيّد بأنّ العامل الإقليمي ليس قادراً على إسقاط صدّام.

الثانية. كان يركز على أنه إذا ما بقيت المعارضة مصرّة على التخندقات

الإسلامية والقومية، فسوف لن تفلح في مواجهة النظام، ويكون الحلّ بأن تنفتح على بعضها البعض.

كان لدى السيّد بحر العلوم مشروع واضح، وتأكد ذلك المشروع عام ١٩٨٨ عندما توقفت الحرب، وهو كان مستعداً لهذه اللحظة، فكان يستشرف المستقبل، ويرى بوضوح أنّ الدول العظمى وخاصة أمريكا، لن تسمح لإيران بالتفوق على العراق. طيلة تلك الفترة، كان يدافع عن الفصل بين قضيتين: قضية الحرب بين العراق وإيران، وقضية الشعب المضطهد في العراق. كان مقتنعاً بأنّ القضية الأولى مناطة بالتغيرات الإقليمية والدولية، أما القضية الثانية، فهي التي يجب أن نركز ونؤسس عليها في المحافل الدولية ولا نمزجها مع القضية الأولى، لأن المزج سوف يضيع اضطهاد الشعب العراقي. (نحن شعب مضطهد منذ ١٩٦٨ وحتى يومنا هذا، من قِبَل نظام دكتاتوري استبدادي، وهذه هي الحقيقة التي ينبغي علينا إيضاحها للعالم).

كان إدراكه لأهمية العامل الدولي مبكراً ومتقدماً على أقرانه الإسلاميين، ولربما كان الشخص الوحيد الذي يشاركه في ذلك هو السيّد مهدي الحكيم، لكن القدر اختطفه باغتيال أزلام النظام له في السودان عام ١٩٨٨.

هكذا بدأ السيّد سعيه لتحويل الاهتمام الدولي لصالح العراق. وزيارته إلى الكونغرس الأمريكي عام ١٩٩١ لم تكن هي الزيارة الأولى، فتلك كانت في وقت الانتفاضة الشعبانية في آذار ١٩٩٠، وأتذكر هذا التاريخ جيداً فقد كنت حينها مرافقاً للوفد الذي كان يضم الدكتور أحمد الجلبي والأستاذ هوشيار زيباري، وكانت أبواب الخارجية الأمريكية موصدة أمامنا بذريعة أنهم لا يعرفوننا، فكانت النافذة الوحيدة هي الكونغرس الأمريكي، وما زلت أحتفظ بمحاضر تلك الجلسات.

أوضحنا للكونغرس الأمريكي بأن هذه الانتفاضة هي انتفاضة شعبية، وأنّ على أمريكا عدم الإصغاء إلى بعض القوى الإقليمية التي تحاول أن تزودها بمعلومات خاطئة حول النفوذ الإيراني. هذه انتفاضة شعبية قام بها أفراد

الشعب العزّل نتيجة تراكمات الحكم الاستبدادي والحروب التي أضرمها صدّام حسين في وجوههم.

قبل ذلك التاريخ، كانت هناك زيارة في عام ١٩٨٩، حيث ذهبنا في زيارة إلى واشنطن، وكانت الزيارة على مستوى لقاءات مع بعض الشخصيات الفكرية ومراكز الأبحاث، ولعل السيّد بحر العلوم من أوائل الذين وقّعوا على نداء الديمقراطية وحقوق الإنسان في العراق، وهو صاحب العمامة السوداء الوحيدة التي وقّعت على نداء الديمقراطية وحقوق الإنسان في عام ١٩٩١. وقبلها كان هناك توقيع للمتحد الديمقراطي الذي اشترك بتعضيده سماحة الشيخ محمّد مهدي شمس الدين والسيّد مصطفى جمال الدين وبعض الدوائر الكردية.

إن إدراك السيّد بحر العلوم لمحورية العامل الدولي لم تكن وليدة الانتفاضة، وإنما نشأت قبلها، وكان السيّد يدفع القوى الإسلامية باتجاه الانفتاح على قوى المعارضة الأخرى والسعي نحو توحيدها، وكانت رسالته الدائمة إلى المعارضة العراقية والإسلامية هي ضرورة الاحتفاظ بخصوصية القضية العراقية.

في تلك الفترة، عُقِد مؤتمر فيينا والمؤتمر الوطني عام ١٩٩٢ وتم انتخاب اللجنة الرئاسية واجتمعت القوى الأساسية في صلاح الدين. ثم فُتِحَت الأبواب الأمريكية والأوروبية أمام المعارضة العراقية، فقاموا بزيارة الولايات المتحدة أكثر من مرة، كما قاموا بزيارة بريطانيا عدة مرات، بالإضافة إلى زيارة كل من فرنسا وألمانيا وحتى الدول الإقليمية كتركيا والسعودية، وكان هذا كله من نتاج الحركة التي أخرجت إلى الوجود مشروعاً وطنياً في التسعينات، وهذا المشروع كان يقوم على ركيزتين:

الأولى، لا سبيل لإسقاط صدّام حسين من غير الاستعانة بالعامل الدولي.

الثانية، لا مناص للمعارضة العراقية من الانفتاح على بعضها والبحث عن القواسم المشتركة إن هي أرادت بالفعل الوصول إلى الإطاحة بصدّام حسين.

ما بعد الانتفاضة وخسارة الاشقاء

رأيت السيد بحر العلوم يزداد عزماً وإرادة وأملًا في النجاح بإسقاط صدّام حسين وتخليص الشعب العراقي من الظلم كلما ازدادت المحنة شدة، وكان يعيش هذا الأمل دائماً.

وأتذكر أنه كان يردّد هذا البيت دائماً عندما يزوره البعض:

تعبت عيني على الدرب تطل ورؤاكِ العذب يا بغداد فُلُّ

كان متفائلًا بإمكانية إسقاط النظام، وعلى ضوء هذا التفاؤل والعزيمة كان يقول دائماً: نحن صدى للجهاد في الداخل، نحن مكملون لعمل الداخل ولسنا بدائل عنه.

تلك هي النظرية التي كان يؤكد عليها دوماً، وكان يرى أن النجاح يتحقق بوحدة المعارضة، فكان يدفع بهذا الاتجاه باستمرار، ويصر على عدم الدخول في الجزئيات والبناء على المشتركات. كان هو نفسه محوراً مشتركاً بين فصائل المعارضة العراقية بمختلف ملامحها، فتجده قريباً من الأكراد وقريباً من الأجواء الإسلامية على تنوعها، كما كان قريباً من الليبراليين والعلمانيين واليساريين بكافة أطيافهم.

كان حريصاً على استقلالية القرار السياسي العراقي ويؤكد عليه. نعم، بلدنا جزء من منطقة ولسنا معزولين عن الآخرين، ولكن يجب أن يكون القرار السياسي مستقلًا. بدأ مشروعه الوطني بهذه الروحية وبذل من أجله جهداً كبيراً وقدّم في سبيله التضحيات الجسام. هذا المشروع كان مغامرة كبيرة، خاصة بالنسبة لشخصية إسلامية تنتمي إلى عائلة عريقة، لكنه كان مؤمناً باللّه (سبحانه وتعالى) كما كان مؤمناً بأنّ قضية إنقاذ الشعب هي الأساس، ومن جملة هذه التضحيات كان ذهابه إلى البيت الأبيض.

ينقل الأخ مسعود البرزاني هذه الحادثة فيقول: عندما دخلنا إلى البيت

الأبيض، التفت إليَّ السيد بحر العلوم وقال لي: «لو كان السيد والدي يعلم بأني سأدخل يوماً إلى هذا المكان لما تزوج».

كان مؤمناً بقضيته مخلصاً لها، كما كان مؤمناً بأن هذا الشعب يستحق المزيد. وما دامت القضية في سبيل الله والشعب، فهو لن يتوانى عن شيء. مرّ بحر العلوم بكافة المحافل الدولية حاملًا ظلامات الشعب العراقي وآلام الانتفاضة والأهوار والأنفال والعتبات المقدسة والنجف وبغداد، لذلك لم يكن يرى أنّ هناك خطوطاً حمراء في هذه المسألة، لأنّ ظلامة الشعب العراقي هي القضية المؤرقة بالنسبة إليه. كان يؤمن بأن الطريق الوحيد هو شرح هذه المظلومية للآخرين، وقد نجح في هذا الأمر بالفعل. ولا أشك أن العراقيين في المهجر كان لهم الدور الأكبر في تفعيل هذه المسألة ودفع الحكومات الغربية لتفّهم مظلومية الشعب العراقي.

بقي السيد بحر العلوم على هذا المنوال من المتابعة والمثابرة والتواصل والحركة مدة حياته. وربما حضر في التسعينات ما لا يقِلّ عن (١٠٠) مؤتمر كانت كلها عن النجف، وحضارة العراق، واضطهاد الشعب العراقي، والاستبداد، والحرية، والتأصيل الفقهي لهذه الحريات. فكانت له محاضرات في أروقة الجامعات العلمية والسياسية، بالإضافة إلى التواصل الاجتماعي مع السياسيين، وكلها كانت من عوامل المثابرة. لقد نجح عمل المعارضة في المنفى بفعل تصدي القوى المستقلة كالسيد بحر العلوم وغيره، والتي تمكنت من جمع أطراف المعارضة مع بعضها البعض للبدء بعملية المواجهة. وقد تحقق ذلك في صلاح الدين أيضاً، إذ كان يقضي الكثير من الوقت هناك خلال سنوات ١٩٩٣، ١٩٩٤ و١٩٩٥. صحيح أن الأولويات بالنسبة للإدارة الأمريكية اختلفت بعد التسعينات، ولكنها عادت إلى ما كانت عليه في نهاية التسعينات، وكان السيد بحر العلوم مساهماً أيضاً.

أتذكر أن اجتماعات المعارضة واجتماعات الأمريكان مع المعارضة قُبيل مؤتمر لندن كانت تجري في بيتنا. كان السيد بحر العلوم محور المعارضة

العراقية في المنافي، وكان محترماً من قبل العالم الخارجي ومن قبل التيارات السياسية العراقية لصدقه وإخلاصه وإيمانه واحترامه للرأي الآخر وعدم دخوله في المشاحنات والتفاصيل.

لذلك، لم يكن تاريخ التاسع من نيسان غريباً عليه، إذ كان يتوقع ذلك اليوم. وكانت الإشكالية الوحيدة للسيد بحر العلوم هي من أين يدخل العراق؟ وكان مصمماً على أن يدخل العراق من منطقة عربية.

خرج من العراق، فكانت الكويت محطته الأولى، وقال: سأدخل العراق والكويت هي المحطة الأخيرة. فدخل إلى العراق مع وفد من العلماء العراقيين، واستقبله أهالي البصرة ذلك الاستقبال الكبير وكان ذلك اليوم يوماً حافلًا. كنت قد سبقته بالدخول إلى العراق لحضور مؤتمرَي بغداد والناصرية كما زرت النجف، وقمت بتهيأة جميع الأمور.

عندما دخل العراق ذهب مباشرة إلى النجف، وكان أول عمل قام به هو عقد مجلس فاتحة على أرواح شهداء آل بحر العلوم، وقد حضرَته وفود وشخصيات سياسية مثل عدنان الباججي ومسعود البرزاني والمرحوم السيد الشهيد محمّد باقر الحكيم.

اتخذ بحر العلوم من النجف عريناً ومنطلقاً له، وكان معرِضاً عن الدخول في المعمعة السياسية، وأراد الاكتفاء بأن يبقى موجهاً لها، إذ كان يرى أن معظم مهمته قد انتهت بسقوط النظام، وأنّ هؤلاء السياسيين سيكونون قادرين على إقامة الدولة العراقية وبنائها، وهذا حلمه الأول والأخير.

كان حلمه بناء الدولة العراقية على أُسُسٍ صحيحة معاييرها المواطنة وتجاوز الأخطاء التي مررنا بها طوال قرن ونصف من الزمن.

قبوله الدخول إلى مجلس الحكم

نتيجة للظروف والإلحاح عليه، دخل إلى مجلس الحكم بسبب ضغوط الإخوة في الأحزاب السياسية العراقية والائتلاف المدني. بعد مفاوضات

قاربت شهرين من الزمن - منذ شهر حزيران ولغاية ١٣ تموز - قَبِلَ بالدخول إلى مجلس الحكم ولكن بشروط منها أن المجلس يجب أن يتوسع ليشمل تيارات سياسية أخرى موجودة في الداخل كالتيار الصدري والعشائر.

دخل إلى مجلس الحكم وكان الشخصية المميزة فيه بمعارضتها للكثير من القضايا، وكان السيد بحر العلوم الشخصية الوحيدة التي يهابها بريمر في مجلس الحكم.

في إحدى المرات، كان السيد بحر العلوم يريد إصدار جوازت سفر لأعضاء مجلس الحكم من أجل استخدامها في جولات وزيارات للدول العربية والدول المجاورة واطلاعها على الموقف السياسي، فتم إصدار جوازات السفر، لكنها كانت جوازات قديمة تحمل صورة «صدّام حسين». حين تم تسليم جواز السفر للسيد بحر العلوم وكان حينها في إحدى الجلسات، تفاجأ بوجود صورة صدّام حسين على الجواز، فما كان منه إلا أن رمى الجواز بوجه «بريمر» وقال: أبعد هذا العمر أحمل جوازاً لصدّام؟! لا والله. ورفض الجواز. كانت له مواقف كثيرة في مجلس الحكم.

أما بعد مجلس الحكم، فكانت هناك ضغوط كثيرة على سماحة السيد بحر العلوم من أجل أن يكون عضواً في المجلس الوطني الانتقالي عام ٢٠٠٤، ولكنه كان يرغب بالعودة إلى النجف، وكان بالفعل يقضي أغلب وقته في النجف، وكان يحاول أن يكون صوتاً للمرجعية وللنجف في مجلس الحكم من أجل بناء الدولة العراقية.

النجف وصمام المرجعية

بحر العلوم جزء لا يتجزأ من منظومة النجف، وبقيّ أميناً لها طوال هذه الفترة وأميناً على رسالتها. من يراقبْ ما تحدّث به السيد بحر العلوم عن المرجعية الدينية يجدْ أنّ شخصاً آخر لم يتحدث به. كان يرى أن صمّام الأمان للعراق هو المرجعية الدينية باعتبار استقلاليتها وأفكارها وتميزها عن

الآخرين. لقد بقي أميناً على رسالتها الوطنية وعلى العراق. كانت بغداد والنجف نصب عينيه دائماً، وكان دائم الحديث عنهما.

الشاهد الغائب

طوال فترة العشر سنوات الماضية، كان السيد بحر العلوم الشاهد الغائب، إذ أنك لا تجده في المسرح، ومع ذلك هو متابع للأمور السياسية ويقوم بتوجيه الإخوان وينصحهم. وعندما تشتد الأزمات، تجده في بغداد يحاول ترويض الأمور وتشريب المرونة في المواقف التي بين القوى السياسية المختلفة. لذلك، وبفعل تاريخه النضالي وحركته السياسية وإيمانه العميق بضرورة التعايش مع الآخرين وضرورة احترام الرأي الآخر، تمكن من أن يحفر لنفسه حيّزاً في قلوب السياسيين كافة. هو لم يتخلَّ عن حركته الاجتماعية في النجف وبغداد، فتجده حاضراً في كل المحافل. كان بمثابة الأب الحنون للعراقيين عند حدوث المشاكل الاجتماعية، جُلّ مصلحته إنشاء جيل عراقي قادر على تفهم مشكلات العراق وحلها، فكان معهد العَلَمَين الصرخة والنتاج لهذه الحركة.

والحمد لله، انتقل إلى بارئه بعد أن حقّق أحد أحلامه الكبرى، وكان يحلم بأن يتمكن الإخوان من وضع العراق على سكة بناء الدولة العراقية، لكن ذلك بقي غصة في نفسه، حملها معه ولفّها مع تراب النجف.

السيد بحر العلوم: انفتاح واستقلالية

شهادة السفير محمد حسين بحر العلوم

النشأة والبيئة

السيد محمد بحر العلوم من مواليد ١٩٢٧م، ترعرع في مدينة النجف الأشرف، مدينة الحوزة العلمية، مدينة الإمام علي(ع)، هذه المدينة الشامخة العريقة الضاربة في اطناب العلم والفقاهة والسياسية والاجتماع والثقافة. من هذه المدينة وفي هذه المدينة وعلى تربة هذه المدينة، بنى السيد شخصيته وحياته ونهل من علمها وثقافتها ومجتمعها ومدارسها ما مكنه ان يسير في مشوار حياته الثمانيني حياةً صلبة قائمة على أسس متينة ورصينة من العلم والثقافة والدين والسياسية والاجتماع.

الانفتاح في النجف

مدينة النجف في تركيبتها كانت تتميز وتميزت طوال العقود التي ستشارف على عمر الألف عام كحوزة علمية، كانت مدينة منفتحة بروادها من تلاميذ الحوزة العلمية من مختلف الثقافات، كان يرد إلى هذه المدينة طلاباً من باكستان والهند وايران وافغانستان والصين ولبنان وسوريا ومصر اضافة إلى الطلبة العراقيين. هذا المزيج المتنوع في مدينة النجف اعطاها نكهة خاصة تميزت بها عن باقي المدن العراقية، فأصبحت مدينة منفتحة خرجت عن طوق الانغلاق

وكانت تردها نتاجات مصر الثقافية، وتردها مطبوعات لبنان الثقافية، كان القارئ النجفي يقرأ كل شيء؛ الشعر والأدب والثقافة والسياسية والاجتماع.

هكذا نما السيد بحر العلوم (رحمه الله) بهكذا بيئة فترعرع طوال عقدين من الزمن من عمره في مدارس النجف الأشرف وفي اجناب الحوزة العلمية، اكاديمياً في منتدى النشر وكليه الفقه، حوزوياً في مدرسة النجف الأشرف الدينية، كما نهل من اساتذته الاسس العلمية والدينية. كان من اساتذته المرحوم شيخ الفقهاء الشيخ حسين الحلي، والمرحوم آية الله محمد أمين زين الدين، والسيد محمد جواد العاملي، اضافة إلى رعاية والده المرحوم السيد آية الله علي بحر العلوم والذي تميز بشخصيته الدينية والاجتماعية اضافة إلى المحيط الديني والعلمي الذي كان يعيشه.

محطات في بلدان

لو تمكنا ان نقسم مراحل حياة سماحة السيد بحر العلوم (رحمه الله) إلى محطات، جاز لنا ان نقول أن العراق كان هو المحطة الأولى في حياته، بدءاً من ولادته ودراسته إلى نهاية الأربعينات، بحيث بدأت الحركة الإسلامية تتضح معالمها في العراق، حيث كان السيد متواجد وكان أحد روادها إلى آواخر الستينيات، في هذه الفترة كان السيد (رحمه الله) مع رفاقه في العمل الاجتماعي، والديني، والسياسي والأدبي. هنا بدأت ملامح حياته تتسم بالمؤسساتية وتواصل عمله الاجتماعي وعلاقاته الاجتماعية، وحبه للثقافة، والأدب، والشعر، وولعه بالتاريخ.

في هذه الفترة بدأت تبرز نقاط مهمة في حياته عندما عاش في كنف والده السيد علي بحر العلوم (رحمه الله) وبعد وفاته حيث انتقلت له زعامة الأسرة؛ اجتماعياً، وسياسياً، ودخل في اطار مرجعية الإمام الراحل السيد محسن الحكيم (تغمده الله برحمته الواسعة) وتحمله مسؤلية العمل السياسي، والإسلامي، والاجتماعي.

في تلك الفترة بدأت ملامح الحركة الإسلامية تتبلور، بدءاً من نهاية الأربعينات صعوداً إلى الستينيات، حيث شارك في محافل وبناء لبنة الحركة الإسلامية مع رواد الحركة الإسلامية في ذلك الوقت؛ شباب الحركة الإسلامية، وحزب الدعوة الإسلامية، صعوداً إلى اعلان تشكيل حزب الدعوة في مراحله المختلفة حتى كان الاعلان النهائي في نهاية الخمسينات (في ١٩٥٧ أو ١٩٥٨) عن تشكيل حزب الدعوة الإسلامي. كان السيد (رحمه الله) من الرواد الاوائل في تشكيل حزب الدعوة، إلى جانب الشهيد صاحب دخيل، والأستاذ صادق القاموسي، والسيد مهدي الحكيم، والسيد باقر الحكيم (رحمة الله عليهم اجمعين).

في هذه الفترة كان لسماحة السيد نشاط كبير جداً في إنشاء العمل المؤسساتي للحركة الإسلامية، والأدبية في النجف والعراق عموماً، ومن رواد مؤسسي الرابطة الأدبية التي كانت محور العمل الأدبي والثقافي في مدينة النجف، والتي ربطت النجف بالعالم الأدبي العربي. كان أيضاً من المشاركين في جمعية منتدى النشر ومدرستها وكليتها كلية الفقه، وكان من الرواد الاوائل في تأسيس جامعة الكوفة، هذه الجامعة التي رعتها المرجعية الدينية كان لها أهداف كبيرة في ذلك اليوم، وكان الهدف الحقيقي منها هو تنمية الكوادر العراقية لادارة البلاد في شتى أنواع المعارف، وتم وضع النظام الداخلي، لكن النظام البائد أجهز عليها ومنع تأسيس هذا المشروع الكبير الرائد.

عمل السيد السياسي والاجتماعي كان دؤوباً في تلك الفترة، كان ساعياً مستمراً في ربط كل هذه الدوائر الاجتماعية، والسياسية، والإسلامية، وكان حلقة وصل في منظومة المرجعية - مرجعية الإمام الحكيم (رحمه الله) - اضافة إلى كل هذه الاعمال السياسية والأدبية والاجتماعية، كان السيد ناشطاً ومحورياً في حركة الشهيد الإمام السيد محمد باقرالصدر (رحمه الله) في اوخر الخمسينيات.

عندما وصل النظام البائد إلى السلطة في عام ١٩٦٨ كانت الاسماء التي ذكرناها ومرجعية الإمام الحكيم (رحمه الله) هي محط ترصد لهذا النظام

فأصدر حكماً بالإعدام ومطاردة الشهيد السيد مهدي الحكيم (رحمه الله)، والسيد بحر العلوم، وباقي رفاقه من الحركة الإسلامية.

وفي عام ١٩٦٩ اضطر سماحة السيد بحر العلوم (رحمه الله) إلى الخروج من العراق إثر هذه المطاردة. وكانت الكويت هي المحطة الأولى لخروجه كمحطة انتظار لرؤيته المستقبلية والتخطيط لها. قضى في الكويت فترة من الزمن ثم اتجه إلى ايران وبقي فيها حوالي عامين من الزمن دخل هناك في عمل اجتماعي وثقافي وسياسي، لكن لم يطل فيها المقام، فالحقيقة كانت رغبته أن يكون منفتحاً ومرناً في الحركة أكثر مما يعتمر في باله وذهنه من مستقبل سياسي، وحركة سياسية اجتماعية مستقبلية. كان يرى ان للمكان ظروف في تحركه فكان يتوخى ان يكون في مكان أكثر حركة وأكثر مرونة في التحرك.

القضاء الشرعي

قصد الكويت في بداية السبعينات، بعدما عرض عليه منصب القضاء في المحكمة الكلية في وزارة العدل وعلاقته الاجتماعية مع وجهاء المجتمع الكويتي في ذلك الوقت، قضى في دولة الكويت فترة ٨ سنوات تقريباً كان فيها قاضياً في المحكمة الكلية في دائرة الاحوال الشخصية، كان واسعاً في علاقاته الاجتماعية في المجتمع الكويتي، ودؤوب الحركة في هذا المجتمع، وكان يحاول وهو في دولة الكويت أن يكون تواصله مع العراق كنافذة لاستمرار عمله السياسي والاجتماعي والثقافي من خلال آية الله السيد محمود الهاشمي، وأخيه الشهيد السيد عز الدين بحر العلوم، وبعض الشخصيات الأخرى، وألا ينقطع هذا التواصل في رفد ما يصمم ويخطط له السيد الراحل.

في هذه الفترة من عقد سبعينات القرن الماضي، السيد بحر العلوم كان مجتهداً في جانب القضاء، وحريصاً على تقديم نظرة مقننة وتأسيسية لموضوع الأحوال الشخصية، لاسيما أن له كان دوراً في قضية قانون الأحوال الشخصية الذي صدر في العراق، وتأليفه لكتاب «أضواء على قانون الأحوال الشخصية»،

حيث كانت هناك نظرة خاصة لسلبيات هذا القانون، فتكونت لديه قاعدة قانونية رصينة حاول ان يستفيد منها ويفيد القضاء الكويتي فيها، وحقيقة نجح في هذا وكانت سنواته الثمان التي قضاها في القضاء الكويتي سنوات زاخرة وجيدة في خبرتها، الآن حقيقةً الاخوان في المؤسسة القضائية في دولة الكويت يعتبرونها مرجعاً لقضاياهم ومشاكلهم القانونية ويشيدون بهذه التجربة التي وضعها سماحة السيد بحر العلوم في القضاء الكويتي.

نهاية السبعينات، كان النظام البائد في العراق قوياً في حركته السياسية، سماحة السيد استلم اشارات في ان بقائه بالكويت قد يكون صعباً في ذلك الوقت فقرر الرحيل ومغادرة الكويت، وأستغلها فرصة لأكمال دراساته العليا وانهاء مرحلة الدكتوراه فشد الرحال إلى القاهرة وفي خلال سنتين انهى مشروع شهادة الدكتوراه، حيث كانت أيضاً فرصة طيبة في الانفتاح على الأجواء المصرية في ذلك الوقت في نهاية السبعينات وبداية الثمانينات، حيث التقى بعض الشخصيات التي كانت هناك وبعض السياسيين المصريين مما اعطاه زخماً في حركته السياسية المستقبلية.

«الطيور التي تهاجر دائما تحاول ان تجد مقراً مؤقتاً لها» - انهى دراسته في بداية الثمانينات فكانت الابواب مغلقة امامه ولم يكن له خيار غير ان يختار المملكة المتحدة (بريطانيا) مقراً جديداً له ويبدأ فيها مرحلة جديدة.

مجيئه لبريطانيا في بداية الثمانينات والمتغيرات التي كانت تلف المنطقة في ذلك اليوم وفي تلك الفترة؛ نجاح الثورة الإسلامية في ايران، بدايات الحرب العراقية - الايرانية، تسلط وبطش النظام بحق الشعب العراقي وماتصل لمسامعه من اخبار محزنة عن البلد.. لم تكن الأمور مبشرة لرجل عانى ما عاناه من وضع النظام والآثار السياسية التي كان يقوم بها النظام البائد في العراق.

التقى في بريطانيا في بداية دخوله وبحياته مع رفيق دربه الشهيد العلّامة السيد مهدي الحكيم وكانت بريطانيا - لندن بالتحديد - محطة حقيقية فيها نخب عراقية سياسية واقتصادية، فيها رموز وشباب عراقيين من الحركة

الإسلامية كان اغلبهم من الطلبة الذين يقيمون في بريطانيا والذين انتقلوا للاقامة فيها، فحاول معهم ان يبدأ بعمل سياسي منظم ومبرمج يستهدف كشف سياسات النظام البائد في تلك الفترة محاولًا إيصال صوت العراقيين وصوت المظلوميين، وطرق ابواب المجتمع الدولي التي كانت مغلقة أمام العراقيين، اذ أنَّ العالم كان داعماً لصدام حسين ونظام حزب البعث في ذلك الوقت، كانت الابواب موصدة أمام العراقيين ولم تكن امامهم في ذلك الوقت سوى بعض البلاد التي يستطيعون التنفس منها.

في فترة الثمانينات التي عاشها الفقيد في بريطانيا، كان يحاول مع رفاقه في العمل السياسي العراقي أن يجدوا أرضية لتأهيل واستشراف المستقبل وما يحتاجه لبناء العراق. الساحة البريطانية كانت مليئة بالكوادر العراقية العلمية فاتجه مع رفاقه في بريطانيا إلى تأسيس جمعية لرعاية الكوادر العراقية وكان هدفه الأول من هذه الجمعية ومن هذه التشكيلة أن تجتمع الكوادر العراقية وتضع تصور لمستقبل العراق وما يحتاجه العراق المستقبلي من امكانيات علمية، ادارية، صناعية، ثقافية، اقتصادية متوفرة عند العراقيين ويضعوا أفكارهم في ذلك الاطار. هذه كانت من الاعمال التي قام بها الفقيد مع اخوانه في الساحة البريطانية استشرافاً لحاجة العراق مستقبلًا.

بدأ السيد بحر العلوم هذا المشوار السياسي الطويل بالتعاون مع رفاقه في الحركة الإسلامية في لندن وبالتعاون مع رفاقه في الحركات العراقية الوطنية: الكرد، اليسار، القوميين الذين يقيمون في المملكة المتحدة في لندن. كان يحاول في كل تحركه في هذه الفترة بقدر استطاعته وامكانه ان يظهر المظلومية التي يعيشها الشعب العراقي تحت براثن النظام البائد، بارزاً معالم هوية الشعب الإسلامية وهوية الشعب الوطنية وكان لا يرى هناك فارقاً أو تناقضاً بين الهوية الإسلامية والهوية الوطنية، كان يرى التكامل بين الهويتين في بلد كالعراق يحوي في جنباته كل أنواع والوان الطيف؛ الإسلامي، السياسي، الثقافي، والاجتماعي.

من هذا المنطلق بدأ بمشوار العمل السياسي في لندن في بداية الثمانينات، تعاون مع كل رفاق العمل في ذلك الوقت وصولا إلى إنشاء المؤسسات العراقية السياسية والاجتماعية والثقافية، امتداداً لما كان يحمله في حياته الأولى التي نشأ عليها في العراق وتطورت مع مرور الزمن خلال هذه العقود الثلاثة الماضية، انشأ مركز أهل البيت الإسلامي مع زميله ورفيق دربه المرحوم السيد مهدي الحكيم، هذا المركز حقيقةً كان مركزاً ثقافياً سياسياً أستقطب كل أنواع الطيف العراقي من سياسيين وأجتماعيين وثقافيين بكل انواعهم وانتمائتهم، بحيث أعطى لهذا المركز والمنتدى والملتقى نكهة تميز بها عن الملتقيات الأخرى، كان مركزاً يلتقي فيه الجميع وبدون شعور بالانغلاق كان يتميز بالانفتاح على الجميع، هذه الشخصية التي تحلى بها السيد بحر العلوم وتحلى بها المرحوم السيد مهدي الحكيم أضْفت على هذا العمل جواً رائعاً منفتحاً اعطى للعمل السياسي في بريطانيا بعداً دولياً عراقياً مميزاً إتخذ من بريطانيا قاعدة عمل رئيسية في عمله السياسي ضد النظام مركزاً على نقاط مهمة وهي:

١ - أن العراق لايمكن ان ينهي مشاكله إلا العراقيين انفسهم.

٢ - العراق لا يمكن أن يتطور الا بتطور ابنائه.

٣ - العراق لا يمكن ان يتحرر الا بأن تتاح له الحرية واستيعاب كل المكونات في هذا البلد الكبير.

٤ - العراق لا تنتهي فيه عقود الديكتاتورية الا بتطبيق آليات حقوق الإنسان.

٥ - العراق لا يمكن ان يرى النور الا من خلال الديمقراطية والحرية واستيعاب الجميع.

هذه الأسس التي عمل عليها المرحوم متعاوناً مع كل زملائه في الحركة الإسلامية والحركة العراقية من السياسيين الآخرين بكل الوانهم ومكوناتهم، واستطاعوا ان يقدموا عملًا مميزاً على مدى التاريخ.

في تلك الفترة كانت الحرب العراقية - الايرانية تلقي بظلالها وكانت المعارضة العراقية ألقت بكل آمالها في سلة الحرب العراقية - الايرانية إلى رؤية بصيص امل ونور بانتهاء هذا الظلم وهذا النظام، حيث تعاون كل رواد الحركة الإسلامية في عملهم السياسي وركزوا على هذا الجهد وهذا الجهاد، لكن العالم ومفاتيح السياسة كانت تختلف بتوجهاتها واتجاهاتها، كانت الأبواب موصدة أمام العراقيين في أن ينقلوا الآلام التي يعيشها العراق والتي كان يعيشها العراقيون داخل هذا البلد.

كان السيد وقتها يحاول من خلال الاجتماعات والمؤتمرات التي تعقد بين آونة وأخرى أن يطرح هذه الرؤية وهذه الأفكار من خلال تحركه الدولي انطلاقاً من لندن إلى اوروبا وامريكا وايران، ويحاول مع اخوانه في الحركة الإسلامية والكوادر الإسلامية من خلال المؤتمرات التي تعقد في ايران أن يؤكدوا على هذه الأسس في عملية انقاذ البلد وإنهاء هذا النظام واسقاطه والإنتقال إلى أجواء الحرية في العراق الجديد. مع الاسف لم تكن الامال كبيرة ومشجعة حتى أصيبت الحركة الإسلامية في لندن وكوادرها، والجالية العراقية والمجتمع العراقي في كل مكان باستشهاد المرحوم السيد مهدي الحكيم، حيث لبى دعوة الصادق المهدي في السودان وكثيراً مانصحه السيد بحر العلوم في عدم تلبية الدعوة لقلة الاحتياطات الامنية في السودان وكانت علاقات وتأثيرات النظام البائد في السودان قوية وواضحة. من هذا المنطلق رفض السيد بحر العلوم وقتها هذه الدعوة لكن المرحوم السيد مهدي الحكيم كان يتأمل الكثير من هذه الزيارة كطرح رؤى وأفكار المعارضة العراقية في هكذا ملتقيات. لكن كان الحدث في اغتياله (رحمة الله عليه) وقد اصاب هذا الحدث المجتمع العراقي في بريطانيا والحركة الإسلامية بضربة قاصمة، تلتها بعد مدة توقف الحرب العراقية - الايرانية اثر الجهود الدولية، مما زاد من احباط العراقيين وكسرت آمالهم التي كانت معلقة على هذه الحرب، لكن السيد بحر العلوم وزملائه لم يصبهم الملل وظلوا يستمرون في العمل ومتابعة المشوار، يطرقون الابواب بدون كلل أو ملل.

استطاع السيد بحر العلوم من خلال علاقاته التي نسجها خلال هذه الفترة وماعمله في المملكة المتحدة من مشاريع مؤسساتية أعطت له بعداً - كتأسيسه مركز أهل البيت الإسلامي وتأسيس رابطة أهل البيت الإسلامية العالمية تعاوناً مع المرحوم السيد مهدي الحكيم وشخصيات إسلامية وعراقية وعربية - ان ينفذ من خلالها إلى المجتمع. هذا البعد مكنه من القيام بمبادرات سياسية قوية فيما يتعلق بفضح النظام خصوصاً بعد هذه الاوضاع السياسية التي مر فيها المجتمع العراقي والقضية العراقية.

الصفة التي تميز بها السيد بحر العلوم عن رفاقه في الحركة الإسلامية العراقية هي صفة الانفتاح والاستقلالية، اذ أنه لم يكن متقيداً، وهذا ما أعطاه مرونة بالحركة تميز بها عن رفاقه واخوانه الذين كانت لديهم بعض الصعوبات في التحرك وفي نطاقات ضيقة.

كان من أساسات نشاط السيد بحر العلوم في العمل السياسي الدعوة للديمقراطية والمناداة بتطبيق آليات حقوق الإنسان، فكان في عام ١٩٩٠ من رواد هذا العمل المميز والذي انفرد به عن كل رفاقه في الحركة الإسلامية، حيث قام في المناداة مع مجموعة من السياسيين العراقيين في شباط من ذلك العام والدعوة والتوقيع على وثيقة الديمقراطية وحقوق الإنسان. هذه الوثيقة كانت مهمة وأساسية في عمل السيد المستقبلي، إذ كانت تسلط الضوء على ظلم واضطهاد النظام البائد للشعب العراقي وانتهاكه لحقوق الإنسان وشكلت ايذاناً لمرحلة سياسية تهدف لتحشيد رأي عام عراقي ودولي، القوى الإسلامية أحجمت عن توقيع هذه الوثيقة للظروف التي كانت تعيشها، فانفرد السيد بحر العلوم بتوقيع هذه الوثيقة وهذا الانفراد كان له سمة مميزة كأحد أبرز زعماء الحركة الإسلامية المستقلين بتوقيع هكذا وثيقة مع رموز الحركة الكردية، الحركات السياسية العراقية، والشخصيات السياسية العراقية المستقلة من اليسار والوطنيين والقوميين والليبراليين. في هذا النداء يقول: «تنادت نخبة من أبناء الوطن الواحد من مختلف الاتجاهات السياسية والثقافية للدعوة إلى المطالبة بحقوق الإنسان في العراق، ووضع هذه المطاليب أمام الرأي العام

العراقي والعالمي وفي المؤسسات البرلمانية والإنسانية لتقوم هذه المنظمات بواجبها بنصرة الشعب العراقي اسوة بالدعم العالمي لتحرك الشعوب نحو الديمقراطية» واشار النداء في معرض حديثه في هذا المجال.. «ان شعبنا يطمح في صيغة متحضرة للحكم تعبر عن قيم العصر السياسية»، واشارت إلى المقدمات الممهدة للحكم الدستوري ودولة القانون والتي تتركز في إطلاق الحريات الديمقراطية، اطلاق سراح المعتقلين السياسيين، إعادة المهجرين، الغاء المؤسسات القمعية، اعادة الهيبة للقضاء واستقلاليته، الغاء نظام الحزب القائد ومجلس قيادة الثورة والمجلس الوطني، تشكيل حكومة وطنية مهمتها إجراء انتخابات حرة نزيهه لمجلس نيابي يقوم بسن دستور دائم للبلاد ويقر بالتعددية السياسية وتداول السلطة إلى ما هنالك من الأفكار التي طرحتها الوثيقة.

هذا النداء أثار لغط كبير في الساحة والأوساط الإسلامية، باعتبار ان الفقيد انفرد عن سياقات الحركة الإسلامية وانفرد عن بقية زملائه ولم يتوجس أو يتردد في أن يخاطب اخوانه في القيادات الإسلامية موضحاً فيها الأسباب والدواعي التي دفعته للتوقيع على هذا النداء مذكرا اياهم ببدايات الثورة الإسلامية وموقف مفجر الثورة الإسلامية (الإمام الخميني) حين جمع فصائل المعارضة لحكم الشاه دون استثناء ودعاهم إلى ضرورة التفاف الجماهير مع بعضها البعض. كان يقصد ان الجميع يجب ان يلتفوا حول المحور والأساس وهو - في نظريته - العراق، كان يستهدف من ذلك العمل ايصال رسالة انه لا يستطيع أي فصيل لوحده ان ينفرد بمستقبل العراق، العراق يجب ان يكون متكاملًا في جميع اعماله السياسية من اجل قيادة المستقبل وأشار في ذلك التوضيح.. «اننا دعونا الاخوة الإسلاميين للتوقيع على ذلك النداء فاعتذروا عن المشاركة لسبب أو لآخر ونعتقد ان الظروف المُعاشة تؤكد على الفصائل الإسلامية والشخصيات المتصدية ان تلتقي مع الآخرين في مشاريع متكاملة من اجل انقاذ المستقبل وإنقاذ البلد».

كان السيد المرحوم يعتقد جازماً ان وجود شخصية إسلامية أو تيار

إسلامي في أي تحرك عراقي، هو صمام أمان لذلك التحرك، وهذا كان أساس نهجه وانطلاقه في هذا العمل لظروف المرحلة ولظروف المرونة التي كان يعيشها في حياته السياسية.

بالنسبة للعمل الجهادي، كانت عنده رؤية واضحة ان العقود الماضية أثبتت - بالنسبة له - انه لا يمكن لأي فصيل أن يسقط النظام لوحده، العمل يجب أن يكون متكاملًا ومتضامناً، وان القضية العراقية تحتاج إلى تأييد دولي عام، والعالم ينظر إلى الإسلاميين خاصة نظرة لا تنم عن خير لظروف المرحلة التي عاشها الإسلاميين في ذلك الوقت وأبعدتهم عن منطق السياسة العالمية وتركتنا نعاني تبعات الغير. فكان يخاطب اخوانه ورفاقه في الحركة الإسلامية ويقول: «علينا أن نفكر جدياً بكيفية الاستفادة من هبوب رياح التغيير التي هبت على المنطقة نتيجة ايقاف الحرب العراقية، تغيرات المنطقة في ذلك اليوم، والا نترك العاصفة تمر دون استثمارها». هذا التصور الذي كان عند الفقيد الراحل في حركته السياسية، إبراز الخصوصية العراقية في تحركه والابتعاد عن كل المؤثرات الخارجية هو الأساس الذي كان يسير عليه.

في ذكرى استشهاد الإمام الحسين(ع)، كان سماحة المرحوم السيد بحر العلوم عادة يقيم مجلس عزاء في مركز أهل البيت الإسلامي في لندن حيث يتم الاحتفال بهذا اليوم التاريخي والديني واستذكار ملاحم البطولة - ملاحم بطولة الإمام الحسين واصحابه واولاده في واقعة الطف. إلى حد الآن أتذكر عندما اتى السيد (رحمة الله عليه) إلى مركز أهل البيت وأُخبِر في أن صدام غزا دولة الكويت لم يصدق في بادئ الأمر لكنه استدرك هذه المفاجئة بقوله أن هذا ما كان قد توقعه. استغل في ذلك اليوم المناسبة في ان يستنكر هذا العمل الغاشم على دولة الكويت، وكانت العادة في يوم العاشر من محرم ان تنطلق مسيرة - مسيرة إسلامية - في شوارع لندن استذكاراً لمناسبة يوم العاشر، في ذلك اليوم خُصِصَت المسيرة لإستنكار غزو صدام لدولة الكويت وتبيان جرائمه والوقوف إلى جانب الشعب الكويتي في تقرير حقه واستعادة بلده، ومناداة

العالم في دعم الكويتيين ودولة الكويت في استعادة بلدهم، وأيضاً كانت مناسبة في ان يذ كِّروا العالم في ان هذه المعاناة وهذه الجرائم هي ما ابتلى بها العراق طيلة العقود الماضية.

في عام ١٩٩٤ اقام الفقيد الراحل مهرجاناً كبيراً في مركز أهل البيت الإسلامي في لندن بذكرى مأساة الاهوار واستعرض الفقيد الدراسات التي نشرتها وسائل الاعلام البريطانية وما عرضته وزارة الدفاع البريطانية عن العمليات العسكرية الجارية في ذلك اليوم في الاهوار بالإضافة إلى دراسة جامعة اكستر البريطانية التي اوضحت مآسي الاهوار. كان الصمت لا يزال يلف المحافل الدولية في ذلك الوقت وقد تحدث المرحوم الشاعر الكبير السيد مصطفى جمال الدين في هذا المهرجان في محاضرته الرائعة عن محنة الاهوار والصمت العربي، وانبثق عن هذا المهرجان مشروع تأسيس منظمة الإغاثة الدولية التي تعتبر أيضاً من المؤسسات التي رعاها الفقيد الراحل في عمله الإنساني لمساعدة اللاجئين العراقيين في الخارج.

عندما نعود نرى هذه المحطات السياسية التي حاول فيها الفقيد ان يوصل كل الآراء والأفكار التي كان يراها مهمة في سبيل انقاذ الشعب العراقي وتعرية النظام من خلال اظهار جرائمه وانتهاكاته لحقوق الإنسان.

مرة من المرات كان هناك عمل كبير يدور في تجميع العراقيين في عمل سياسي كبير تم اعلانه في دمشق باسم لجنة العمل المشترك وقد ضم اغلب اطياف الشعب العراقي السياسية الإسلامية وغير الإسلامية، كالكردية والعربية والقومية، لكنه اهمل المعارضة العراقية المستقلة في بريطانيا. هنا كان المرحوم وزملاؤه في الحركة السياسية العراقية في بريطانيا يريدون ان يتفهم العالم طبيعة المعارضة العراقية حيث أشار أن اضطهاداً كبيراً بدأ منذ وصول النظام الفاشي للحكم وأفرز هجرة ما يزيد عن مليون شخص من بلادهم انتشروا في المهجر، فأفرزت هذه التلاوين العراقية عن هذا العمل السياسي العراقي المنوع، هنا برزت قوتان شاخصتان هي؛ القوى الإسلامية والكردية بكل

فصائلها، وقوى غير إسلامية على اختلاف أفكارها، ووقفت هذه القوى ضد النظام ومارست عملًا سياسياً موحداً متكاملا لتعرية النظام والعمل على اسقاطه من خلال التعاون مع المجتمع الدولي. كان هذا العمل نقطة انتصار تسجل للمعارضة العراقية في هذا التكامل السياسي، حاول الفقيد ان يكون محوراً في هذا العمل، وان يذكر المعارضة بشقيها ان تستند إلى واقع داخلي تستمد منه القوة والنشاط، وتتعاون مع العامل الدولي في سبيل إسقاط النظام. كانت هناك معارضة إسلامية في ايران، ومعارضة غير إسلامية في سوريا، لكن لم يكن يعتقد ان هذا سيؤثر في شيء، حقيقة كان هناك تكامل في عمل المعارضة وكانت لندن مقر لهذا التكامل في المعارضة السياسية العراقية، لكن كان يشكوا في ان الحركة الإسلامية ككل - دائما كان يحاول ان يوضح لزملائه في الحركة الإسلامية وكوادرها - لم تبلور برنامج سياسي واقتصادي يمكنها من استلام الحكم في العراق، لذلك كان يدعو دائماً ان تطرح الحركة السياسية لجماهيرها برنامجاً بهذا الخصوص لمناقشته واعتماده والاتفاق عليه تجنباً للكثير من المشاكل المستقبلية. كما كان يؤكد ان الخصوصية العراقية أساس آلية العمل لاسقاط النظام والتخلص منه، وكان يخشى من وقوع العراق مستقبلًا في الدوائر الاقليمية وكان يحذر من ذلك - ان يكون المستقبل العراقي يقع تحت نفوذ دوائر اقليمية فتعرقل نشاطه المستقبلي - ويؤكد على الا يكون بعدنا عن واقعنا الوطني وان نكون صريحين مع انفسنا ثم مع غيرنا على قبول توظيف هذه الخصوصية، فقضية الشعب العراقي ورفضه للنظام الدكتاتوري أصبحت جزءاً من واقع العمل السياسي في ذلك اليوم، وما كانت تمر فيه المنطقة من أعمال تغيرية سياسية كحرب الخليج، وعلى القوى العالمية أن تناصر العراقيين ولا بد من الخروج من هذا المأزق. كانت الفصائل العراقية على مختلف اديولوجياتها تحاول أن تنور الرأي العام العالمي والمنظمات الدولية.

ركائز الاعمال السياسية التي كان يستند عليها الفقيد في تلك المرحلة ترتكز على النقاط التالية:

اولًا: العمل على تلاحم كل قوى المعارضة العراقية وتجميد خلافاتها وحصر عملها المرحلي باسقاط النظام ثم بعد ذلك تحديد الاولويات المستقبلية.

ثانياً: التمسك بمبدأ العراق لكل العراقيين الشرفاء وليس لأحد ان يضع حق الفيتو على الفئة الأخرى بأحقية العمل، وامام فصائل المعارضة وخاصة الإسلامية ان تضع امامها وحدة الكلمة والجهد.

ثالثا: دعوة المعارضة العراقية إلى مؤتمر عراقي موحد بعيداً عن فرض الوصاية من غيره بعض من لاينتمون للشان العراقي، تشارك فيه كل الفصائل على اختلاف أفكارها لتؤكد الواقع العراقي.

لذلك كان هذا منطلق في دعوة العراقيين إلى مؤتمر كبير للمعارضة العراقية أواخر الثمانينيات وبداية التسعينيات، وكان هو نواة لعملية استغلال ظروف غزو صدام لدولة الكويت والانطلاق إلى مؤتمر فيينا الذي عقد في هذه المدينة وجمع كل اطراف المعارضة العراقية عام ١٩٩٢. هذا كان جهداً كبيراً ساهم فيه سماحة السيدالراحل مع رفاقه في المعارضة العراقية من الكرد والعراقيين الإسلاميين وغير الإسلاميين كالقوميين واليساريين، وكان مشروعاً وطنياً، وقد شهد منزل السيد اجتماعات كثيرة في لندن لقادة المعارضة العراقية على مدار أشهر من التهيئة والإعداد لعقد هذا المؤتمر الوطني، فعقد في حزيران عام ١٩٩٢ وكان ربما أول مبادرة عراقية وطنية اجتمعت فيها الكثير من الأطراف تحت مظلة واحدة، لكن بعض اطراف المعارضة العراقية قاطعت هذا المؤتمر ومن بينها اطراف إسلامية. لكن لم يحبط هذا الموضوع من عزيمة السيد المرحوم ووجه اليهم نداءاً وقال: «من هذا المنبر اوجه إلى الأحبة الذين غابوا عن هذا المؤتمر لسبب أو لآخر، أحييكم تحية الأخوة

والإيمان والوطن وأعاهدكم بأننا مهما اختلفنا ومهما اختلفت قناعاتنا في العمل والأسلوب السياسي، بأننا وحدة متكاملة تسعى لهدف واحد.» هذه المرونة جعلت السيد يتحرك فيها أكثر من زملائه الاخرين. هذا المؤتمر انتخب هيئة تنفيذية تضم ١٧ عضوا للإشراف على تنفيذ خطة العمل المشتركة التي تم تحديدها في مختلف المجالات، إحدى توصيات المؤتمر كانت الانفتاح على العالم والمجتمع الدولي.

و كانت أول زيارة مهمة للمعارضة العراقية إلى الإدارة الأمريكية رسمياً، حيث كان هذا أول لقاء للمعارضة العراقية مع الدوائر الرسمية السياسية في أمريكا، حيث ذهب وفد رفيع المستوى يمثل مؤتمر فيينا ضم السيد الفقيد، وفخامة الرئيس السابق السيد جلال الطالباني (اعطاه الله الصحة والعافية) والسيد رئيس اقليم كردستان مسعود البرزاني، والدكتور أحمد الجلبي، والأستاذ ليث كبة، والدكتور صلاح الشيخلي.. وتم عقد اجتماع مفصل مع وزير الخارجية في ذلك الوقت جيمس بيكر ومساعده لشؤون الشرق الوسط ادوارد جورجيان وخبراء آخرين.

كان أول المتحدثين في هذا الاجتماع هو السيد بحر العلوم حيث ركزَّ على أهمية تغيير النظام القائم واستبداله بنظام ديمقراطي يضمن الحريات، وشدد على مطالبة الولايات المتحدة بأهمية مواصلتها حماية الشعب العراقي في إطار قرارات الأمم المتحدة التي تم اتخاذها في ذلك الوقت. الجانب الامريكي من ناحيته أكد على تعزيز وحدة الفصائل العراقية وهو يُقدِّر ما قامت به هذه الفصائل في هذه الظروف الصعبة، ويعتبر ان ما تم انجازه مهم والمطلوب الاستمرار والعمل أكثر على تحقيق الوحدة العراقية. من أهم نتائج هذه الزيارة كان فرض منطقة الحظر الجوي في جنوب العراق تحت خط ٣٢ من قبل الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وهذه الخطوة في الحقيقة ساهمت بحماية السكان المدنيين من الضربات الجوية لطيران النظام.

الكويت أول وآخر محطة في الغربة

انا شخصياً عاصرت الفقيد (رحمه الله) في محطة حياته في الكويت، عاصرته في محطة حياته في لندن، حتى انتقاله إلى العراق في ٢٠٠٣. الجدير بالذكر هنا - و هذه حقيقة أصبحت متلازمة تاريخية في حياته - أن الكويت كانت هي أول محطة لخروجه من العراق في عام ١٩٦٩، وكانت الكويت آخر محطة له، ودخل بعدها للعراق. يعني خرج من العراق إلى الكويت في عام ١٩٦٩ وعن طريق الكويت دخل العراق في عام ٢٠٠٣، هذه اعتبرها شخصيا - انه لم يختار هذه الدولة الفلانية أو تلك بل اختار الكويت لأهمية الكويت في مستقبل العراق، ولما قامت به الكويت من جهود في إسقاط النظام، ولما مرت به الكويت من معاناة كمعاناة الشعب العراقي في خلال السبعة اشهر التي عانتها من جراء غزو النظام - كانت رسائل حاول الفقيد ان يوصلها إلى الكويت كتعبير شكر وتقدير.

قبلها كانت هناك مواقف عديدة للفقيد اتجاه دولة الكويت؛ كالوقوف إلى جانب الحق الكويتي في مؤتمر بشأن الأسرى والمفقودين أقيم في لندن عام ١٩٩٦ حيث كان هو العراقي الوحيد الذي شارك فيه وكان مؤتمر دولي كبير شاركت فيه رئيسة الوزراء البريطانية مارغرت تاتشر، والرئيس الامريكي السابق جوررج بوش، وكان المؤتمر باشراف الشيخ سالم الصباح (رحمه الله) وزير الدفاع الكويتي السابق. وقف الفقيد في هذا المؤتمر مبيناً جرائم النظام اتجاه الشعب العراقي والكويت في غزوه وما عاناه الكويتيون اثناء هذا الغزو، وما تسبب من أسر كويتيين كانوا لايزالون يقبعون في سجون النظام في ذلك الوقت، وطالب المجتمع الدولي في الضغط على النظام في اطلاق سراح هؤلاء لأن هذا الموضوع كان يمثل موضوعا إنسانيا لعائلات الاسرى. كان يحاول ان يوصل رسالة ان العراقيين بريئون من هذه الاعمال ونحن والكويت وكل الدول التي تعرضت لبطش النظام ضحايا.

كانت هناك محطة أخرى للفقيد السيد بحر العلوم في ندوة مهمة وكانت

أول ندوة كويتية - عراقية عام ٢٠٠٠ عقدت على ارض دولة الكويت اقامتها لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الامة الكويتي وكان المشرف على تلك الندوة الأخ النائب السابق الأستاذ محمد الصقر، وكانت فرصة جيدة لأن يعود السيد بعد انقطاع عن الكويت للتواصل مع الكويتيين وقيادتهم السياسية وأن يعضد عمله في سبيل واتجاه إسقاط النظام، وكانت تلك الندوة حقيقة واضحة المعالم في استشراف مستقبل العلاقات السياسية العراقية - الكويتية والأسس التي يجب ان يتم تبنيها على ضوء القرارات الدولية والجيرة الكريمة بين العراق والكويت، واحترام كل دولة لسيادة واستقلال ومصالح الدولة الأخرى، وان نتبنى المصالح العامة المشتركة والمتبادلة والاحترام المتبادل بين البلدين.

هذه المناسبة السياسية كانت مناسبة مهمة جداً على ضوءها بدأت زيارات الفقيد الراحل للكويت. هنا يجب أن نشير إلى نقطة مهمة جداً وهي أن هذه الزيارات التي كانت تحصل بين آونة وأخرى للكويت، هي حقيقة تريد ان تعطي رسالة واضحة أن العراق والكويت بلدان يرتبطان بتاريخ طويل من العلاقات الاجتماعية والتاريخية بالإضافة إلى الامتداد الكبير في التاريخ والجغرافيا التي بينهما، ويجب الا يكون للجريمة التي اقترفها صدام حسين في غزو دولة الكويت الشقيقة أثر وأن يكون هذا الماضي في عالم النسيان، وعلى العكس يجب ان يكون هذا التاريخ الطويل هو أساس مستقبل العلاقات الكويتية العراقية، وأن نعمل جاهدين سواءً في العراق أم في الكويت على استشراف المستقبل والاستزادة من ماضي علاقاتنا التاريخية في تطوير مستقبل العلاقات بين البلدين، وان نوضح هذا لأجيالنا والعالم، هذه هي النقطة المهمة التي كان سماحة السيد الراحل في مجمل تحركه على الساحة الكويتية يعمل عليها (ان يكون لهذا التاريخ أثر طيب وأن بيننا علاقة مجتمعية تاريخية طويلة فيها الايجابيات الكثيرة والمشتركات الغنية وهذا ما يعطينا مستقبل ايجابي) هذه أيضاً كانت استراتيجية القيادة السياسية في الكويت وعلى رأسها صاحب السمو أمير البلاد الشيخ صباح الأحمد في تطوير هذه العلاقة والاصرار على استمرار هذه الزيارات.

اذن هذه المواقف والزيارات كانت تعطي رسائل اجتماعية. انا شخصياً استفدت من هذا الجهد الذي وضعه سماحة السيد الراحل بحر العلوم واستثمرته في وضعي وحركتي الدبلوماسية عندما استلمت مهامي كسفير العراق في دولة الكويت الشقيقة وكانت انطلاقتي على ضوء هذه الأسس التي استفدت منها من تجربة الوالد (رحمه الله). اضافة إلى ذلك لا ننسى الجهد الذي وضعه المرحوم الراحل الشهيد السيد محمد باقر الحكيم وكذلك الشهيد السيد عبد العزيز الحكيم في هذا المضمار، في تطوير العلاقات المجتمعية بين المجتمعين الكويتي والعراقي.

السيد بحر العلوم مدرسة

انا اعتبر أن المرحوم مدرسة عاصرته على مدى ثلاثين سنة من عمري، استفدت الكثير من دبلوماسيته وواقعيته وعلاقاته الاجتماعية المرنة وفقهه الواسع في المجتمع.

علاقته معنا كأولاد وأسرة كانت حقيقة علاقة تتسم بالحرية والديمقراطية والحوار وإعطاء كل إنسان حرية التعبير والتناقش في كل الأمور. في اطار الحياة التي رسمها لنا المرحوم مدرسة متكاملة فيها محطات كثيرة أنا شخصياً واخوتي واحفاده استفدنا من هذه التجربة، وأتذكر أن حياته كانت مخصصة لحب اولاده واحفاده، وأتذكر أن الأيام الأخيرة من حياته كانت عائلية يتسابق فيها الاولاد والبنات والاحفاد إلى خدمته، ويدعون الله لشفائه والاطالة في عمره للاستفادة من هذه المدرسة وهذه الاخلاق الكريمة، والاستفادة من هذا الرجل الكبير في حياته وحكمته، لكن شاء الله وكانت حكمته في ان يذهب إلى باريه وهو مرتاح في عمله في اعماله ومشاريعه، وإن سمح لي المجال سأتكلم فيما بعد عن مشروع معهد العلمين.

علاقاته مع دول الجوار

بالنسبة للعلاقة مع دول الجوار، كان يؤكد على ضرورة التواصل الاجتماعي

معها وأهمية ذلك لربط العراق بعلاقات حميمة مع جيرانه، كان يؤكد في زياراته إلى مملكة البحرين الشقيقة وتواصله مع اطياف المجتمع البحريني في حفظ العلاقات الوطنية والانصهار في البوتقة الوطنية، وكذلك في زيارته للمملكة السعودية الشقيقة، ولدولة الامارات، ولدولة الكويت، هذه هي الأسس التي كان يسير عليها.

معهد العلمين

بعد عودته للعراق دخل في معمعة السياسة عند تشكيل مجلس الحكم الذي كان رئيساً له في دورتين، في المرحلة الأولى المؤقتة، وفي الدور الرئاسي عندما كان رئيساً ضمن الاسماء التسعة. بعد ان انتهى مجلس الحكم وبدأت الحياة السياسية، تقريباً بدأ يعتزل العمل السياسي وتوجه إلى مدينة النجف الأشرف وحقق الحلم الذي كان يحلمه - و هذا المشروع كان يحلم به منذ ان كان في بريطانيا - بأن يؤسس مشروعاً اكاديمياً في الدراسات العليا في مجال السياسة والعلاقات الدولية والقانونية. لم تتح له هذه الفرصة في بريطانيا لكن الحمد لله في النجف انشئ هذا المشروع وأتمه وأقامه. كان كل من يسمع بوجود مشروع دراسات عليا في العلوم السياسية والدولية والقانونية في النجف يستغرب ذلك، لكنه كان يؤكد ان النجف هي حاضنة لكل العلوم والثقافات. أجمل ما في الموضوع انه عندما أنشئ المبنى وأتمّه أوصى في وصيته ان يدفن في نفس المبنى وان تقام الفاتحة فيه، والحمد لله كان له ما يريد.

كان يريد ان يعيش في اجواء العلم واجواء الحركة الثقافية وحقق الله (سبحانه وتعالى) له ما يريد بأن مكنه من انشاء هذا العمل بمساعدة الخيرين في اتمام هذا المشروع، ودفن في هذا المكان وروحه تعيش مع طلبته وزملائه، وكان سعيداً انه في السنتين الأخيرتين قام بتدريس مادة قانون الاحوال الشخصية ضمن قسم القانون الخاص، وكان يلقي المحاضرات على الطلبة وهو سعيد جداً في هذا العمل الثقافي الاكاديمي والمشاريع الأخرى التي قام بها،

وكان حقيقة سعيد في اتمامها وترك أثراً طيبا في هذا المجال. تغمده الله برحمته الواسعة الذي ندعوه ان لا يحرم العراق والعالم العربي والإسلامي من امثاله في ما قدمه من خدمات جليلة في كل مفاصل الحياة.

التواصل الاجتماعي

حقيقةٌ في كل هذا المشوار الذي استعرضته إلى الآن، أحب ان أشير إلى ان حياة السيد كانت تتميز بالتنوع، فالعمل السياسي لم يثنيه عن التواصل الاجتماعي، كان يعشق التواصل مع أطراف المجتمع دون ملل أو تعب، ويعتقد بأن هذا التواصل هو عمل محوري يستند عليه استناداً مهما في حركته الحياتية، كانت رسالته هي رسالة تواصل وهذا التواصل كان مع الجميع وبمساحة متساوية.

كان يفتخر بعروبته، بعراقيته، بتشيعه، ولا يعتبر انها فواصل تبعده عن مجتمعه، بالعكس كان منفتحاً على الجميع ويُشعِر الجميع أنهم في دائرته وفي دائرة استيعابه لهم، ولذلك كان يحظى بحب الجميع ويبادلهم هذا الحب، ويحظى باحترامهم ويبادلهم هذا الاحترام، بما اعطاه واعطى لأعماله ولبرامجه ولمركزه في لندن صفة الانفتاح على الجميع، كان الكل يرتاد مناسباته، كان الجميع يعشق ما يؤديه وما يقوم به من أعمال اجتماعية، ثقافية،سياسية، لأنها اعمال كانت تتسع للجميع، لم تكن تميز بين خطٍ وآخر، كان يحاول ان يوطد العلاقة مع الجميع ويستفيد ويفيد.

ليس هناك صعب في قاموسه

طيلة حياته، لم تشغله البرامج والمشاريع وفترات العمل أو تقف أمام عمله الفقهي والأدبي والتاريخي. كان يستمر بالتأليف والكتابة بعزيمة قوية جداً ويحب التواصل مع كل شيء جديد. حتى اتذكر في يوم من الأيام قال:

«أنا تعبت من الكتابة أريد أن أتعلم على (الكومبيوتر)»

قلت له: «سيدنا صعب»

قال: «ماكو شي صعب جيبلي (اجلب لي) الكومبيوتر وعلمني عليه ومالك علاقة»

هذا الكلام كان في نهاية الثمانينات، جلبنا له جهاز (الكومبيوتر) وعلمناه كيفية التشغيل والبرنامج الذي يجب أن يستعمله، وأخذ حوالي اسبوع أو اسبوعين يتدرب عليه. انطلق من ذلك اليوم ورمى القلم جانباً. أصبح يوثق كل أعماله على (الكومبيوتر)، بدايةً كان يكتب المسودات ثم يوثقها، ثم تطور بأن ينزل المادة مباشرة على (الكومبيوتر) وأصبح (اللابتوب) لا يفارقه في سفره وحله وترحاله.

عشقه للحدائق

السيد بحر العلوم (رحمه الله) شخصية نادرة جمعت مفاصل الحياة في كل أركانها، أستحضر الآن أحدى صفاته اللطيفة وهي عشقه للحدائق والبستنة وكانت من أحلى الأوقات التي يقضيها عندما يريد ان يُنفِّس عن أي ضيقٍ يصيبه. كان يحتم علينا ان نخرج بين آونة وأخرى إلى المشاتل الزراعية ليقتني الورود والأشياء الجديدة ويزرعها بنفسه في حديقته، كانت حديقته هي نتاج يده؛ ينتظر حسب المواسم الزراعية يهيء الشتلات الزراعية، ويمارس زرع الأشياء بيده.

كان يعتقد بأثر التربة في حياة الإنسان وترطيب الحياة وجعلها مرنة وسعيدة ومتفائلة، كانت حياته اغلبها تفاؤل، انا حقيقةً أوعزها إلى الحديقة والورود والى عشقه إلى النباتات.

أعود إلى مشواره السياسي.. كانت مرحلة توقف الحرب العراقية - الإيرانية وغزو الكويت، أسميها مرحلة إعادة طرح الأفكار وجس نبض المجتمع الدولي، حقيقة نجح السيد بحر العلوم وبالتعاون مع رفاقه بالحركات السياسية الأخرى والسياسيين العراقيين في لندن، أن يحدثوا فتحة في شباك العامل الدولي على القضية العراقية، فكانت اللقاءات في بريطانيا مع مراكز أبحاث

ومراكز سياسية ومع سياسيين ونواب بريطانيين، أتذكر كانت السيدة (أن كلود) وهي نائبة بريطانية عمالية من المؤيدين لنضال الشعب العراقي وكانت دائماً تناصر العراقيين في كل مواقفهم السياسية. هذه المحاولات لطرق ابواب المجتمع الدولي حقيقة أثمرت وأتت بأوكلها جيدة ومثمرة. عندما جاء غزو النظام لدولة الكويت تم الوقوف بجانب الشعب الكويتي للمناداة بحقوقه.

سفرة السياسيين العراقيين إلى امريكا قبيل الانتفاضة الشعبانية واجتماعهم مع مراكز الأبحاث السياسية الامريكية ومع اعضاء في الكونغرس ومجلس الشيوخ، اعطت نقلة نوعية للعمل السياسي العراقي وعمل ومشوار حركة السيد بحر العلوم.

أنا لم ارافقه بسفرته إلى أمريكا، ورافقه الأخ د إبراهيم لكن مما قرأته فيما بعد وفي اطلاعي على مجريات اللقائات، كانت هنالك لقاءات في معهد العلاقات الخارجية بحضور سياسي واعلامي أمريكي مكثف، لقاءات مع شخصيات سياسية واعلامية أمريكية، في جامعة هارفرد مع اساتذة وطلبة العلوم السياسية، كان للأستاذ كنعان مكية دور في ذلك، كان هناك لقاءات مع صحف أمريكية، لكن كانت حتى ذلك الوقت لا تزال الأبواب موصدة من قبل الدوائر السياسية الامريكية. لكن على الرغم من ذلك كانت هذه اللقاءات (مع منظمات سياسية ومنظمات مجتمع مدني وجامعات وصحف واعلاميين) مفيدة وناجحة، حيث نجح الفقيد ورفاقه في المعارضة العراقية في ايصال مضمون ما يريدون ان يقولوه في مطالبة المجتمع الدولي مساعدة العراقيين في الاطاحة بالنظام، واستطاعوا ان يوصلوا رسالة مفادها أن مسؤولية هذه الاطاحة هي مسؤولية الشعب العراقي في الداخل والخارج، ولو استطاع المجتمع الدولي ان يوقف الدعم الخارجي عن نظام صدام حسين فإن هذه الأسس يمكن ان تتحقق بسرعة في العراق وكانوا يحذرون في كل لقاءاتهم في ان هذا النظام انتهازي يتحين كل فرصة وفي أي وقت لتحقيق رغباته العدوانية، وكان السيد (رحمة الله عليه) يؤكد في أحاديثه على العنصر الأساس

وهو إعطاء الشعب العراقي الحرية الكاملة في التعبير عن إرادته فلقد تعب هذا الشعب في العقود الاربعة أو الخمسة الماضية من تسلط هذا النظام، والعراق يحتاج إلى جهود كبيرة للعيش بسلام وحرية. هذا ما كان يعتقده السيد (رحمة اللّه عليه) في كل تحركاته مع اخوانه في الحركات السياسية؛ أن العراق يحتاج إلى العيش بحرية وسلام، واحترام جيرانه والعيش بسلام معهم، والانفتاح على المجتمع الدولي. العراق كان بحاجة لهذه الأسس كي ينتقل إلى حياة كريمة بعيداً عن دكتاتورية نظام صدام.

كانت هذه الرحلة التي حملها الفقيد بثقة عالية لأول مرة في المحافل الأمريكية معبرة عن رؤية سياسية لمستقبل العراق، وان الاختيار الحر للشعب سيعكس مبادئ العقيدة التي ينتهجها الشعب العراقي، والتراث الذي يحمله الشعب، والقيم التي يعتقدها، وهذا الهدف لايمكن ان يحققه ما لم يشارك العراقيون في كتابة دستور ضامن لحقوقهم ورافض لكل أنواع التمييز والطائفية والعنصرية. ومن اجل ان يكون هذا ضامناً ومحصناً، يجب أن يجري عليه استفتاء يعكس ارادته الحرة ومن ثم العمل على إقامة حكومة تضمن تمثيلًا عادلًا وتكون قادرة على تحقيق الديمقراطية وسيادة القانون. وكان يشير في كل محاور حديثه إلى ضرورة انتهاج العراق سياسة اقتصادية تحل محل السياسات الراهنة المتمثلة بالفساد ونهب الثروات، ومن اجل استقرار العراق يجب على الوضع المستقبلي معالجة كافة الملفات العالقة مع الجيران بروحٍ اخوية ونوايا حسن الجوار ومراعاة المصالح المتبادلة.

هذه الزيارة كانت مفتاحاً لانفتاح المعارضة العراقية على المجتمع الدولي والتي تميزت بتركيبة عراقية سياسية متمثلة بسياسيين عراقيين وطنيين، إسلاميين، كرد تشكيلة جذبت انتباه المجتمع الامريكي السياسي، استطاع من خلالها أيضاً أن يوضح دور المرجعية الدينية في الشأن العراقي، وماهي أسس وأركان المرجعية الدينية في العراق، وكيف تنظر للمجتمع العراقي، وكيف تستوعبه، هذه الأفكار طرحها في هذه الزيارة، استطاعوا ان يوضحوا أيضاً

دور حزب البعث الظالم، دور العراق مع دول الجوار ماكان وماذا سيكون. الجميع كان لديهم علامات استفهام حول طبيعة التحرك المستقبلي للشعب العراقي. صادفت هذه الزيارة مع انطلاقة الانتفاضة الشعبانية في اذار ١٩٩٠ وكانت هنالك اسئلة غامضة تدور حول هذا الموضوع، حاول الوفد وحاول الفقيد (رحمه الله) أن يوضحها قدر الامكان وأن يوصل حقيقة مشاعر العراقيين واهدافهم نحو المستقبل ورؤيتهم لمستقبلهم في العراق من خلال هذه اللقاءات التي أعطت أمل للذين كانوا يجتمعون معهم بأن هناك قطاعاً سياسياً، عراقياً يستطيعون ان يتعاونوا معه في عمل عراقي مستقبلي.

بعد هذه الزيارة، انعقد مؤتمر بيروت للمعارضة العراقية في اذار ١٩٩٠، وهو مؤتمر شامل. شارك الفقيد بعد هذه الزيارة في هذا المؤتمر وفي وقتها كانت قوى الانتفاضة تشتبك في معارك ضارية مع قوات النظام وبالأخص مع قوات الحرس الجمهوري في أغلبية المدن العراقية. دعي لهذا المؤتمر لتأكيد ودعم حركة الشعب العراقي في نضاله ضد الاستبداد والنظام، وشاركت أغلب فصائل المعارضة العراقية والعديد من الشخصيات المستقلة من مختلف التيارات الفكرية والدينية.

مع الأسف لم تجري الرياح في ما قامت به الانتفاضة العراقية الشعبانيه وسقوط ١٤محافظة في ذلك اليوم، وقوات الحلفاء على مشارف مدن الجنوب العراقية، في أن يستكملوا المشوار ويسقطوا النظام لأني اعتقد حقيقةً انه لم يكن هناك قراراً دولياً باسقاط النظام وانما القرار الدولي كان بتحرير دولة الكويت فقط، تداخلت عوامل أخرى من دول الجوار ساهمت في اجهاض الانتفاضة، فكانت لخيمة صفوان التي عقدت في مدينة صفوان الحدودية دوراً في اجهاض الانتفاضة، بحيث سمح الامريكيون للنظام استخدام سلاح الجو (الهيلكوبتر) وبدء النظام بقمع الانتفاضة. هذا العمل كلف ما لا يقل عن ربع مليون شهيد من محافظات الجنوب والشمال، وتشريد مئات اللاجئين على الحدود، وبدء النظام يعتدي على العتبات المقدسة في كربلاء والنجف واعتقال

رجال الدين في الحوزة العلمية، واعتقال الاف الموطنين العراقيين، كما تم اعتقال المرجع الديني الأعلى الراحل الإمام السيد الخوئي، وإعدام الكثير من اساتذة الحوزة العلمية، واعتقال الكثير من الأسر العراقية والنجفية في ذلك اليوم إثر إجهاض الانتفاضة وسحقها منها أسر آل الحكيم، وال بحر العلوم وال الخرسان وال الحلو وال المبرقع والكثير من الأسر العراقية التي كلفتها الكثير من الشهداء.

هذا العمل كان له إستثمار في بريطانيا في عملية تبيان المجتمع الدولي لأنه عرض بالصور بطش النظام وجرائمه وآثار الدكتاتورية، بحيث نُظِمت مسيرات ومؤتمرات استُغِلت لتبيين وتوضيح جرائم النظام من خلال الممارسات التي قام بها نتيجة قمع الانتفاضة، وأتذكر أن اللجنة التي شُكِلت في بريطانيا للإعداد لمظاهرة كبيرة جداً احتجاجاً على اعتقال وإعدام الكثير من العراقيين ومن رجال الدين الشهداء، واعتقال المرجع الاعلى الإمام الراحل السيد الخوئي كان لها أثر مدوي في الساحة البريطانية في ذلك الوقت.

من ضمن الأعمال التي استثمرت لتبيان جرائم النظام هي التعرض للعتبات المقدسة، حيث شكلت خلية عمل لحماية هذه العتبات، والشيء الذي يذكر أن انتفاضة العراقيين الشعبانية في آذار ١٩٩٠ كان نتيجتها احلال منطقة الحظر الجوي في شمال العراق، التي مُنِع النظام فيها أن يستخدم السلاح الجوي فوق منطقة خط العرض ٣٦.

السيد بحر العلوم ورفاقه في الحركة السياسية العراقية كانوا أيضاً ولحماية الجنوب من بطش النظام، يطالبون بحظرجوي لهذه المنطقة، حتى يحموا أهل الجنوب من بطش النظام وإجرامه، لذلك من ضمن الأعمال التي قام بها الفقيد الراحل بالتعاون مع مؤسسة الإمام الخوئي والمؤسسات الإسلامية الفاعلة في بريطانيا تفعيل الاحتجاجات والمظاهرات وإقامة المؤتمرات والندوات لحماية العتبات المقدسة، وإبراز الدمار والخراب الذي عمد به النظام أبان الانتفاضة واستنكار الإجراءات التعسفية والاعتداءات

السافرة على المرجعية والحوزة العلمية وأساتذتها في ذلك الوقت. قام المسلمون الشيعة بالتظاهر في لندن في اذارعام١٩٩١ احتجاجاً على هذه الاعتداءات التي قام بها النظام من ضرب العتبات في كربلاء والنجف والاعتداء الوحشي والتعسفي على المرجعية الدينية. ما أُريد ايصاله ان هذا الأمر لم يحدث في تاريخ المرجعية الشيعية في العراق مطلقاً - التجرؤ على مقام المرجعية في اعتقال رمزها - هذا كان عمل يحدث لأول مرة في التاريخ، فكانت له أصداء سياسية واسعة نتيجة هذه المظاهرة والآراء التي عرضت، فخطب السيد الراحل في ذلك اليوم مؤكداً بأن واقع انتفاضة الشعب العراقي عبَّرَ عن رفض قاطع للنظام الدكتاتوري، وطالب بإقامة حكم دستوري يتمثل بالديمقراطية والتعددية السياسية والإعتداد بالقيم الأصيلة للشعب العراقي والتي يكفلها الاعلان العالمي لحقوق الإنسان.

في نفس هذا الاطار أتذكر في نيسان عام ١٩٩١وفي بيته، عقد اجتماعاً لنخب عراقية سياسية تحت عنوان (اللجنة الدولية لعراقِ حر) هذه اللجنة ضمت حوالي ٥٠ شخصية عراقية تمثلت من كافة توجهات المجتمع السياسي العراقي مع مشاركة العديد من الفعاليات الأجنبية الداعمة لنشاط المعارضة العراقية والدفاع عن حقوق الإنسان. تم التوقيع فيها على مذكرة للدعوة إلى حكم الديمقراطية في العراق، وعلى ضوئها انطلقت مظاهرة في ٢٦نيسان١٩٩١ مرت في شوارع لندن، للمطالبة بهذه المطالب وإيضاح رأيهم وإيصال صوتهم للمجتمع الدولي والمجتمع السياسي.

هنا بدأ العالم ينفتح على المعارضة العراقية، وكانت لندن متميزة عن بقية مراكز تجمع العراقيين في انحاء العالم بوجود نخبة سياسية عراقية متنوعة من كافة المشارب والأفكار. هذه الحركات والشخصيات السياسية والفكرية في بريطانيا كانت تتصف بحرية العمل، والمرونة، والتواصل فيما بينها والاتفاق على رؤى متكاملة منسجمة.

الانتفاضة الشعبانية

حقيقةً اريد التركيز على فترة الانتفاضة وغزو الكويت (١٩٩٠ - ١٩٩١)، هذه الفترة كانت خصبة في عمل السيد بحر العلوم (رحمة الله عليه) مع من كان يعمل معهم في دائرة العمل السياسي العراقي وما كانت تدور في تلك الأيام من احداث، استثمرها السيد (رحمة الله عليه) واستثمرها السياسيون العراقيون في عملية اظهار القضية العراقية إلى المجتمع الدولي. قضية الانتفاضة الشعبانية كانت عمل سياسي حاول المرحوم من خلالها إعداد البرامج الداعمة لهذه الانتفاضة، بحيث أنه في الذكرى السنوية الأولى التي صادفت في اذار ١٩٩٢، (أنا اشرت في حديثي ان السيد بحرالعلوم كان يعتمد في اغلب تحركاته على توثيق المناسبات واحيائها من خلال المؤتمرات، المهرجانات، الاحتفالات، الندوات، يحاول ان يجعل المناسبة حية أمام الجمهور وأن يوصل الرسائل والآراء والأفكار من خلال تلك المناسبات، فكانت الانتفاضة الشعبانية - انتفاضة اذار١٩٩١ - مناسبة جند لها المرحوم السيد بحر العلوم طاقات جيدة) أقام برنامجا حافلا في لندن غطى ثلاثة ايام، كان برنامجا شكل لجنة من سياسيين، وجوه عراقية، رجال اعمال.. لاحياء هذه المناسبة وتواصلت هذه اللجنة مع المثقفين والسياسيين والفنانيين والشعراء والأدباء العراقيين، بالاضافة إلى سياسيين أجانب. كان يحاول ان يكون هذا البرنامج على مستوى الحدث وايصال صوت العراقيين إلى المجتمع الدولي من خلال هذه المناسبات، فكان هذا البرنامج موثق تُعقَد فيه الندوات السياسية، كذلك أُتيحت الفرصة للفنانيين العراقيين التشكيليين عرض أعمالهم الفنية سواءً الوطنية التي كانت تتعلق بالانتفاضة أم اعمالهم الأخرى، أيضاً كان هناك برنامج أدبي وسياسي كبير جداً أقيم في قاعة (البورجستر) في لندن اشترك فيه سياسيون وأدباء عراقيون، وسياسيون بريطانيون، ومن ضمن الأدباء الحاضرين كان الشاعر العراقي الكبير المرحوم مصطفى جمال الدين الذي ألقى قصيدته العصماء واسمها (يقظان)، وكانت قصيدة رائعة في تلك

المناسبة. من ضمن الذين شاركوا في هذه المناسبة النائبة البريطانية (إيما نيكلسن) وهذه النائبة حقيقةٌ ناصرت العراقيين في مشروع التغيير، وكانت هذه المناسبة محطة إنطلاق لمشروع (إيما نيكلسن) لمساعدة العراقيين في برنامجهم التغييري وفي إسقاط النظام بعدما لامست المجتمع العراقي من خلال هذا البرنامج والمهرجان الكبير، حيث أقامت مشروع اسمه (منظمة عمار) للإغاثة وتبنت احد ضحايا الانتفاضة وهو طفل اسمه عمار فقد أهله في الانتفاضة وأتت به لبريطانيا وأتخذته شعارا إنسانيا لخدمة الجنوب والعراقيين، وظلت تستمر في هذا المشروع إلى سقوط النظام. كانت مواقفها نبيلة وإنسانية خَدمت العراقيين من اجل التغيير.

سعى السيد بحر العلوم (رحمة الله عليه) جاهداً في مشروع توثيق الانتفاضة، فعمل على تجميع كل ما قيل في الانتفاضة، وكل الوثائق التي تم نشرها في موضوع انتفاضة الشعب العراقي، وعمل على ارشفتها وكان جهداً كبيراً وندعو الله سبحانه وتعالى ان يرى هذا المشروع النور حيث تطوع لخدمته الأخ الحاج حميد الخفاف، وهو أحد وجوه الجالية العراقية في لندن، وجُمِعت مادة كبيرة في هذا الموضوع وأن شاء الله يكون هذا العمل جاهزاً في المستقبل.

من إحدى المحطات التي عمل فيها السيد بحر العلوم (رحمة الله عليه) في هذه الفترة هي الدفاع المكثف عن حقوق الإنسان في العراق. قضية الانتفاضة أثارت هذه المواجع وكانت نقطة إنطلاق لأعمال الدفاع عن حقوق الإنسان، لما جرى خلالها من أعمال تعسفية من قبل النظام كاعتقال المرجع الراحل آية الله العظمى الإمام السيد الخوئي، إعتقال رجال الدين في العراق، إعتقال الأسر العراقية، إعتقال أسرة آل الحكيم وإعدامهم، كذلك أعمال الإبادة الجماعية التي قام بها النظام، كحلبجة وعمليات الانفال، تهجير الكرد، تهجير الشيعة، اضطهاد السنة في العراق، اضطهاد القوميات العراقية الأخرى... كلها كانت مادة دسمة في حركة السيد بحر العلوم في الدفاع عن حقوق الإنسان في العراق، وكان دائماً في نداءاته يدعو الأمم المتحدة لحماية الشعب العراقي من

ظلم النظام ويتواصل مع الشخصيات المؤثرة في المجتمع الدولي لحماية الشعب العراقي وإيقاف القمع الصدامي. كل هذه الجهود أثمرت دولياً بتعاون المجتمع الدولي وارتفاع هذه النداءات في اصدار قرار مجلس الأمن الدولي (٦٨٨) في نيسان عام ١٩٩١ وهو القرار الوحيد البارز الذي انتصر لحقوق العراقيين وكان ينص على ضمان حقوق الإنسان في العراق ويدين العنف الذي يتعرض له من قبل النظام، وتم تعيين وزير الخارجية الهولندي السابق (فاندر شتويل) مقرراً عاماً لحقوق الإنسان في العراق وسبقه في ذلك ممثل الامم المتحدة (صدر الدين اغا خان) في زيارة للعراق أيضاً لتوثيق حقوق الإنسان. هذه الأعمال حقيقةً كانت توجع النظام لأنها توثق جرائمه ضد العراقيين بكل اطيافهم ومختلف قومياتهم، فكانت وسيلة اثبات واضحة في ادانة النظام، مثال على ذلك زيارة (فاندر شتويل) إلى النجف واطلاعه على صحة الإمام الخوئي (رحمة الله عليه) بعد الاعتقال والإطمئنان على وضعه الصحي. كانت مهمة (فاندر شتويل) واضحة ومحددة في ان يحقق ويبحث عن انتهاكات حقوق الإنسان، وقام بزيارات محدودة للعراق وأخرى للاجئين العراقيين في الجنوب والشمال وزيارات أخرى للعراقيين في اوروبا. كان للسيد دور كبير في الاجتماع مع هذا المقرر واطلاعه على ما يمتلكه من أدلة حول انتهاكات النظام أعطت ثمرة كبيرة لهذا المجهود، ويشيد بدوره ومهنيته وفاعليته في هذا الأمر وتعاطفه مع قضية الشعب العراقي. قدم (فاندر شتويل) تقريراً مفصلًا حول معاناة الشعب العراقي وما يواجهه من انتهاكات لحقوق الإنسان بالاضافة لانتهاكات النظام الصدامي للمؤسسة الدينية وإعدام المئات من علماء الحوزة العلمية والأسر العلمية، وحجم معاناة العراقيين وغطى الجانب الكبير من هذه الانتهاكات على مجمل المجتمع العراقي من شماله إلى جنوبه، وسيذكر التاريخ أن هذا التقرير كان حقاً نصيراً للشعب العراقي.

المطالبة في تلك الفترة كانت مستمرة لتعميم المنطقة الآمنة في الجنوب كما هي متوفرة في الشمال، ونشر المراقبين الدوليين في كافة الأراضي

العراقية لحفظ العراقيين من اذى النظام وكانت المطالبة فعالة وجادة في نقل مقررات (فاندر شتويل) إلى حيز التطبيق.

السيد بحر العلوم (رحمة الله عليه) كان دؤوباً في تلك الفترة في حركته الإعلامية، فقام بنشر مقالات سياسية خصوصاً في جريدة الحياة في لندن ليوضح فيها كل هذه الأفكار والرؤى من خلال مواقف سياسية واضحة، ويؤكد على نقاط مهمة تحاول أن توصل رسالة واضحة إلى المجتمع الدولي لفضح جرائم النظام وأساليبه. كان لديه علاقات مع منظمة حقوق الإنسان التابعة للامم المتحدة في جنيف وفرق عملها، وكان السيد له تواصل مستمر في توثيق انتهاكات حقوق الإنسان مع هذه المنظمة ومنظمة (هيومن رايتس ووتش) التي كان لها أيضاً دور في هذا المجال، كان الفقيد يتواصل أيضاً مع المنظمة العربية لحقوق الإنسان في فينا وكثيراً ما كانت تعقد الندوات والحوارات في هذا المجال ودفع كل هذه الرسائل والتوصيات بالضغط على الامم المتحدة لتفعيل قرار (٦٨٨).

كان السيد ناشطاً أيضاً في مؤتمر الأقليات في مؤسسة ابن خلدون في القاهرة، عام ١٩٩٥ تحدث الفقيد الكبير عن أن المشكلة ليست في عرض الانتهاكات كانتهاك حقوق الأقليات، ولا في فضح وإدانة القوانين الاستثنائية السائدة التي تنتهك الحقوق الأساسية للمواطن، وكذلك ليس في وجود أو عدم وجود اتفاقيات ومواثيق دولية، لكن المشكلة الحقيقية التي كان يحاول الفقيد في كل حواراته ونداواته أن يوصلها تكمن في هيمنة النظام السياسي الاستبدادي وفكره وتجدده في غياب آليات الالتزام بهذه الاتفاقيات. كان يسعى للتركيز على إجبار النظام على تطبيق هذه الآليات، واذا طبق هذه الآليات فهو لن يستمر وسيفقد موقعه، وكان هذا هو الغرض من إجبار النظام على تطبيق والتزام هذه الاليات. وأكد وقتها على أن هيمنة النخب السياسية التي كانت سائدة في ذلك اليوم في العراق ودورها الحاسم في السلطة والنظام السياسي يعيق اصلاح هذه الأوضاع، فكان الحل الوحيد هو إسقاط النظام وإقامة نظام

ديمقراطي يراعى فيه حقوق الشعب العراقي وحقوق الإنسان في العراق. كانت هناك فعاليات كثيرة للمطالبة بأقامة محاكمة لصدام دولياً كالفعالية التي أقامتها وألتزمت بها منظمة حقوق الإنسان في العراق برعاية الاخ الدكتور عبد الصاحب الحكيم والتي ألتزمت اسبوعياً الوقوف يوم السبت في ساحة الطرف الأغر في لندن لمدة (٣٣٣) اسبوع. كان السيد مناصراً لهذه الفعالية وداعماً لها ومشاركاً في أغلب أيامها، وكان يكرم هذه الفعالية بأمسية سنوية في مركز أهل البيت لأحد الرجال البارزين الذين يبذلون وقت كبير في دعم هذه الفعالية، وكانت محاولة لتسليط الضوء على مظلومية العراقيين وأثارة هذا الأمر ليصبح موضوع رأي عام عالمي حتى تصل الفكرة لأكبر قطاع ممكن.

سلط السيد المرحوم الضوء أيضاً على جريمة تجفيف الأهوار هذه الجريمة التي ارتكبها النظام بحق الإنسان والبيئة (يعني لا البيئة ولا الإنسان سلموا من اعمال النظام). قضية تجفيف الأهوار حقيقةً كانت جريمة بشعة قام بها النظام في هذه البقعة الرائعة التي تغطي جنوب العراق، في بيئتها الجميلة وحياتها البشرية والثروة الحيوانية التي تتسم بها. كانت هذه المنطقة معقل لاختفاء المعارضين لصدام فعمل على تجفيفها للخلاص منهم، فكانت مناسبة لأن يقوم بها السيد وأغلب الجهات السياسية في المعارضة بالتوضيح للرأي العام العالمي حجم هذه الجريمة وتأثيرها السلبي اتجاه البشر والطبيعة، وكانت هذه المحنة رسالة أوصلها الفقيد للمجتمع الدولي ومراكز حقوق الإنسان، بأن قوات النظام ارتكبت اكبر عملية انتهاك لحقوق الإنسان في المنطقة، باستخدام هذا التجفيف ومن قبلها استخدام الغازات المحرمة والترحيل الجماعي والقصف العشوائي والحصار الغذائي والدوائي ومنع وصول الأمدادات لكل افراد الشعب العراقي.

رحم الله الفقيد وأسكنه فسيح جنانه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

السيد بحر العلوم
صاحب قلب مرهف وصبر كالجبل

شهادة سماحة السيد محمد علي بحر العلوم

الاسم واللقب

يرتبط اسم أسرة آل بحر العلوم بسيد الطائفة السيد محمّد مهدي الطباطبائي الذي لُقّب بـ «بحر العلوم»، والذي توفي في عام ١٢١٢ ه. السيد محمّد مهدي بحر العلوم كان له دورٌ مهم في إعادة إحياء الحوزة العلمية ونشأتها في دورها الثالث في النجف الأشرف. من المعروف أن الحوزة العلمية أُنشئت مع هجرة الشيخ الطوسي إلى النجف الأشرف في العام ٤٤٨هـ تقريباً أي في القرن الخامس للهجرة، واستمرت الحوزة العلمية في النجف الأشرف لأجيال بعد الشيخ الطوسي، ثم انتقلت المرجعية الدينية إلى الحلّة وإلى كربلاء لمدة تقارب أربعة أو خمسة قرون، وعادت مع السيد محمّد مهدي بحر العلوم والمجموعة التي كانت معه كالشيخ جعفر كاشف الغطاء، ويمثلون تلامذة الوحيد البهبهاني حيث حضروا عنده في كربلاء وهاجروا إلى النجف الأشرف ليعيدوا تشكيل الحوزة من جديد.

بحر العلوم الكبير

في أواخر القرن الثاني عشر للهجرة، وتحديداً سنة ١١٩٠، عاد العلماء المذكورون إلى النجف الأشرف من كربلاء وبدأت المرجعية الدينية بالازدهار

وبقيت إلى يومنا هذا متركّزة هناك. لذلك يُعتَبر السيد محمّد مهدي بحر العلوم صاحب النشأة الثانية للحوزة العلمية والسبب في استقرار المرجعية الدينية فيها، بعد هجرتها إلى الحِلّة ثم إلى كربلاء.

الخطوة الثانية المهمة التي قام بها السيد (رحمه اللّه) كانت توزيع المهام في هذه المؤسسة الدينية، ففي عهده كان هناك العديد من كبار المجتهدين في النجف الأشرف، فقام (رحمه اللّه) بتقسيم المهام والمسؤوليات بين هؤلاء، فأوكل إلى أحدهم وهو «الشيخ حسين نجف» مهمة إمامة الجماعة؛ وأوكل إلى «الشيخ جعفر كاشف الغطاء» مهمة التدريس والفتيا؛ وأسند إلى «الشيخ شريف محي الدين» مسؤولية القضاء، بينما تولّى هو الأمور المتعلقة بشؤون الطائفة والإدارة العامة للحوزة. ويكاد يكون هذا التقسيم للمسؤوليات بين المراجع الأمر الأساسي الذي ظلّ مَعْلماً، ولم تُكرّر هذه التجربة مرةً أخرى في الحوزات العلمية وفي تاريخ المرجعية الدينية.

السيد محمّد مهدي لُقّب بـ «بحر العلوم» في ذلك الزمان لغزارة علمه ولما نقل عنه من الكرامات الباهرة والتشرّفات العديدة. هذه الحالة المعنوية التي أقرّها له جميع معاصريه في ذلك الزمان دَعَتْهم لإظهارالاحترام والتبجيل وكانوا يقبلون منه كل ما يقوله.

استمرت هذه الأسرة الكريمة على هذا المنوال في النجف الأشرف منذ ذلك الحين، ولمع أبناؤها في مجالات العلم والفقه والأصول، فكان منهم العلماء الأفذاذ والمراجع، وبالإضافة إلى ذلك، كان لهذه الأسرة تأثير واضح على الجانب الاجتماعي والسياسي في هذه المدينة.

بحر العلوم الأب

ومن الذين ظهروا السيد محمد علي بحر العلوم الذي أسس مع الشيخ محمّد جواد الجزائري، أول حركة وجمعية سرية لمناهضة البريطانيين بالنجف في بدايات العام ١٩١٤، وصمّم البريطانيون على نفيه إلى الهند إثر ذلك، لكن

الشيخ خزعل تدخّل لتخفيف الحُكم، فنُفيَ السيد إلى المُحمّرة، وبقي هناك مدة من الزمن قبل أن يعود إلى النجف الأشرف. إنه لم يكن عالماً فقط، بل كان زعيماً سياسياً بامتياز، ويعتبر أول مؤسس لحركة سياسية تدافع عن العراق في ذلك الزمن.

وبعد وفاة السيد محمد علي بحر العلوم تولى زعامة الأسرة السيد علي بحر العلوم - والد السيد محمد، الذي دخل المعترك السياسي والاجتماعي في مدينة النجف الأشرف مستعيناً بعلاقاته الوطيدة والمتجذرة مع عشائر الفرات الأوسط والعشائر العربية التي كانت مقيمة في المنطقة بحيث أصبح ديوان جدنا محجّة القبائل والعشائر وشيوخها الذين كانوا يؤمّونه من المناطق المختلفة، فقد كان زعيماً اجتماعياً في النجف الأشرف. هذه المحورية والمكانة التي اكتسبهاالسيد بحر العلوم حبَتْه بمقام خاص لدى المراجع آنذاك في بدايات القرن العشرين، من السيد أبو الحسن الأصفهاني ومن أتى بعده وحتى اعتلى السيد محسن الحكيم (رحمه الله) سدّة المرجعية، حيث كان الجد السيد علي بحر العلوم على علاقةٍ وثيقةٍ به، وكان يُعرف مع مجموعةٍ من العلماء بجماعة «الصفوة» منهم الشيخ حسين الحُلّي وآخرون، وكانوا يجتمعون بانتظام لاتخاذ القرارات الهامة التي تمسّ مصالح المدينة وأهلها.

تلك كانت المكانة الاجتماعية والزعامة التي تقلّدها جدّنا السيد علي بحر العلوم. توفي السيد في بداية الستينات، وانتقل هذا المقام وهذه المسؤولية إلى الوالد الفقيد (رحمه الله) حيث تفرّغ في بداية الستينات للقيام بهذا العمل الاجتماعي، وإشغال المنصب الذي خلّفته وفاة السيد الجد.

حتى لا نستبق الحوادث، نسترجع بدايات حياته التي قضاها في داخل هذه الحوزة وفي داخل هذه البيئة العلمية.

مشاور التعلم

ولد السيد محمّد بحر العلوم لهذه الأسرة الكريمة في قلب هذه البيئة

العلمية المتميّزة وفيها شبّ وتربّى. لكن السمة التي ميّزت تكوينه المعرفيّ كانت جمعَه بين التراث العلمي الحديث والعلم الحوزوي. فقد تدرج السيد الوالد في دراسته الحوزوية ابتداءً من الكتاتيب - حيث لم تكن هناك مدارس في ذلك الوقت - التي كانت تلقّن مبادىء اللغة العربية وقراءة القرآن الكريم، ومنها انتقل إلى الدراسة الحوزوية حيث بدأ بالمقدمات. درس سماحته على عدد من الأفاضل منهم السيد جواد العاملي، السيد صادق ياسين، الشيخ عبد المنعم الفرطوسي، الشيخ محمّد تقي الأيرواني، والشيخ علي زين الدين.

كانت هذه هي النشأة العلمية الأولية للسيد محمّد بحر العلوم، والتي رافقت بداية المشروع التجديدي للشيخ محمّد رضا المظفر (رحمه الله) في تأسيسه لجمعية منتدى النشر، والذي كان يهدف إلى تلقين العلم الحديث لطلاب الحوزات بالإضافة إلى العلوم الدينية، ويشمل ذلك علم النفس وعلم الاجتماع وعلوم التاريخ والجغرافيا وسواها. كان السيد (رحمه الله) من أوائل الذين التحقوا بهذا المشروع التجديدي للشيخ المظفر، ونشأت بينه وبين الشيخ المظفّر علاقة خاصة، هذه العلاقة بدأت في منتدى النشر واستمرت إلى كلية الفقه. فعندما افتتح الشيخ المظفّر مشروعه في كلية الفقه، أحبّ أن يكون وجوه المجتمع من أبناء الأسرة النجفية في الصف الأول من هذه الكلية حتى يأخذ هذا المشروع الجليل صبغته العلمية ولايتعرض للانتقاد.ذلك لأن فكرة إنشاء كلية في جو النجف الأشرف - هذا الجو العلمي الحوزوي الذي يضرب جذوره في عمق التاريخ وفي عمق التراث - استجلبت العديد من الانتقادات وتعرضت لصعوباتٍ كثيرة. لهذا الغرض، طلب الشيخ المظفر من مجموعة من العلماء منهم السيد محمّد بحر العلوم والسيد مصطفى جمال الدين وغيرهما من الوجوه الحوزوية الانضمام إلى صفوف هذه الكلية من أجل تثبيت المشروع وإضفاء الشرعية عليه ومنحه الصفة الحوزوية لكي يتسنّى له أن يشقّ طريقه بثبات داخل المجتمع النجفي. تجدر الملاحظة بأن العلماء المذكورين ممن انضم إلى الكلية كانوا على إحاطة تامة وتمكّن من كثير من

العلوم التي كان يتمّ تقديمها في الصفوف، فلم يكن انضمامهم لردم نقص أو جهلٍ بعلم، وإنما كان سبيلًا لتشجيع الآخرين على الانخراط اقتداءً بهم.

السيد محمّد بحر العلوم (رحمه اللّه) شخصية علمية تجد فيها بصماتٍ لعدد من الرواد والمفكرين الذين عاشوا في النجف الأشرف والذين كانوا هم من قاد المسيرة التجديدية بنحوٍ عام. كان السيد محمّد تقي الحكيم من الذين تأثر بهم السيد بحر العلوم تأثراً بليغاً. نذكر كذلك الشيخ محمّد أمين زين الدين الذي كان في مصاف المراجع والأساتذة الأوائل، وكان يعبّر بأسلوب جديد في البيان، كما كان صاحب خطاب حداثوي يتوجّه إلى الشباب بلغة اليوم وليس باللغة الحوزوية، فكان يقدّم الفكر الحوزوي نفسه وإنما مع تجديد في الخطاب والإلقاء والمفاهيم. نذكر أيضاً الشيخ سلمان الخاقاني الذي فتح للطلاب آفاقاً أدبية وشجّعهم على التواصل مع الحواضر الأدبية الأخرى. كان الشيخ الخاقاني والمرحوم الشيخ زين الدين ممّن يشجّع الطلاب على قراءة النصوص الأدبية، وكان الكثير منها يصدر في القاهرة وبيروت، فقرأ الطلاب مؤلفات طه حسين والعقّاد وإحسان عبد القدوس وتوفيق الحكيم وسواهم، مما كان يتم نشره من كتاباتٍ أدبية في ذلك الوقت ويصل إلى النجف، فكانوا يتلقفون هذه المؤلفات ويتبادلونها فيما بينهم، حتى أنهم أسسوا تجمّعاً اصطلحوا على تسميته بـ«أسرة الأدب اليقظ». حملت شخصية السيد محمّد بحر العلوم بصمات أساتذته، فتأثر في الأدب والمنهجية بالسيد محمّد تقي الحكيم في كتاباته، كما تأثر بالتجديد والفكر التجديدي الذي قاده الشيخ محمّد رضا المظفّر. كانت دراسته الحوزوية كلها تقريباً تحت إشراف الشيخ حسين الحُلّي (رحمه اللّه)، وهو شيخ الفقهاء من الطبقة التي تعد من طبقة السيد الحكيم (رحمه اللّه). كان الشيخ الحُلّي قد رعى السيد الوالد وأخويه العمَّين السيد عزالدين والسيد علاء الدين بحر العلوم، اللذين استُشهدا في الانتفاضة الشعبانية. كانت تربيتهم الحوزوية تحت إشراف هذا الفقيه، فظهرت بصماته في شخصياتهم، بالإضافة إلى بصمات والدهم، في الطريقة التي

اعتمدوها لإدارة الشؤون الاجتماعية واللقاءات مع المسؤولين وكيفية التعامل معهم. هذه العناصر مجتمعة، أدّت إلى إيجاد شخصية تعتمد العمل الدؤوب وتسعى نحو التجديد. لم تكن مدينة النجف في الخمسينات تعرف الإرشاد واللجان، فأنشأ السيد بحر العلوم مع السيد مهدي الحكيم وبعض الأصدقاء لجنة الإرشاد والتبليغ الديني التي كان مركزها في الصحن الشريف. كان أعضاء اللجنة يجتمعون ليلة من ليالي الأسبوع، حيث يقرأ أحد الخطباء مجلس عزاء، ثم يُلقي أحد أعضاء اللجنة كلمة تتناول شأناً من شؤونهم اليومية. هذا الأمر أدخل نوعاً من التجديد في الإرشاد والتوجيه الديني في النجف الأشرف، وتطور هذا النشاط مع مرور الزمن حتى شمل نشر الوعي بخصوص ما يجري في العراق وما حوله، وأدّى إلى خلق التفاعل مع الأحداث الحاصلة في مصر وتونس والجزائر، فقد صادفت تلك المرحلة من التاريخ فترة مناداة الشعوب العربية بالاستقلال وظهور الحركات الثورية الداعية للانعتاق من الاستعمار. قامت هذه المجموعة من الشباب المتحمّس الذي يمثل الواجهة الحوزوية الجديدة في ذلك الوقت، بنقل أصداء الثورات العربية عن طريق إقامة نشاطاتٍ ثقافية مثل الندوات الشعرية وبث الرسائل إلى الدول العربية الأخرى، وتشجيع الاعتصامات في بعض الأحيان ومظاهرات التأييد لما يحصل في مصر وغيرها، وكان السيد الفقيد (رحمه الله) من أشد المؤثرين في هذه النشاطات. تمخّض عن هذه الأجواء أيضاً إنشاء الحركة الإسلامية التي كان السيد محمّد بحر العلوم من أعمدتها، والتي تبلور عملها التنظيمي من خلال حزب الدعوة الإسلامي في نهاية الخمسينات من القرن الماضي، لكنه خرج منها بعد وفاة الجد (رحمه الله).

دور آخر خارج عن الأحزاب

لقد تغيّرت مسؤوليات السيد محمّد بحر العلوم بعد وفاة السيد الجد، وبالتالي تغير عمله وظهر بوجهٍ آخر. لقد فرضت عليه مقتضيات الظرف في

ذلك الزمان أن يقوم بدورٍ آخر. هذا الدور ألزمه بأن لا يكون محصوراً في حزب معين، فلا مجال للجمع بين مسؤوليته كعالم يحمل عبئاً اجتماعياً، وأن ينهض بالمسؤوليات الموكولة إليه بعد وفاة والده، وبين علاقته مع السيد الحكيم، وكانت رغبة السيد الصدر (رحمه الله) تجميد العضوية في الحزب، إلا أنّه بقي عنصراً منسقاً وأساسياً بين زعامة الحركة الإسلامية للسيد محمّد باقر الصدر، وبين مرجعية السيد الحكيم، وبين الجهات والحركات الأخرى التي نشأت في ذلك الوقت في مدينة النجف، مثل رابطة الشباب المسلم وغيرها. كان السيد محمّد بحر العلوم (رحمه الله) العنصر المنسق بين هذه الجهات جميعها، وكان يحاول أن يؤسس انسجاماً بينها عن طريق حثّ الأطراف على إيجاد أهداف مشتركة قابلة للإنجاز، بحيث يصبح من الممكن تحقيق شيء من التطور والوصول إلى الغايات التي رسمها السيد الحكيم. كانت تقام في النجف الأشرف مناسبات تجمع الأطراف المتعددة بهدف التنسيق في ما بينها وكان أهمها مهرجان الإمام الحسين عليه السلام الذي جرت العادة على عقده في الجامع الهندي في ذكرى ولادة الإمام. في هذا المهرجان تلقى كلمات وأشعار، وكانت الكلمة الرئيسية للسيد الحكيم، وأخرى للجنة الاحتفال يلقيها السيد محمّد بحر العلوم. كانت الخطابات والقصائد التي تُلقى تتناول في الأغلب الأمورالسياسية وكيفية تحقيق المطالب الوطنية، فلم يكن الهدف منها احتفالياً صرفاً بمناسبة ولادة الإمام، وإنما كانت الحوزة والمرجعية تبتغي عن طريق هذا الاحتفال إيصال صوتها إلى الملأ وإبلاغ الحكومة بالمطالب الجماهيرية.

لهذه الأسباب، كان المهرجان يُعَدّ محطة أساسية في جملة النشاطات الإعلامية المؤثرة التي كانت متاحة آنذاك. نذكر أيضاً في عداد الفعاليات المهمة التي قام بها السيد الوالد في ذلك الوقت موضوع «الكتابة الجديدة»، فإن السيد (رحمه الله) لم يقتصر في كتاباته التاريخية على عرض التاريخ، وإنما على إعادة كتابته بأسلوبٍ أدبي مبسّط يجذب القارئ، وهذا لم يكن معهوداً من قبل، فكان السيد الأب من أوائل الذين كتبوا التاريخ بهذه الطريقة.

بعد هجرة السيد رحمة الله عليه من العراق واستقراره في لندن، ذكر في إحدى الأمسيات التي وُفّقت فيها لخدمته، أنه التقى ببعض الشبان الذين قرؤوا الكثير من هذه الكتب التاريخية التي قام السيد الوالد بكتابتها وأكدوا على استفادتهم منها وأنها كانت تمنحهم القوة. ألّف السيد كتباً عن الشخصيات التي أحاطت برسول الله (ص) وأمير المؤمنين(ع) من النساء والرجال، وعن مسيرة الدعوة الإسلامية في بداياتها وعن الجهاد وتحمُّل الأذى والصعاب، وكان ذلك يُمِدّ الشباب المؤمن والمتدين الذي كان يساق إلى السجون، بالدفع المعنوي والقدرة على التحمل. لذلك قال هؤلاء الشبان الذين كانت تصلهم كتابات السيد محمّد بحر العلوم أن إيمانهم وقناعتهم بالطريق الذي كانوا يسلكونه أصبح أشدّ رسوخاً.

هذه كانت البدايات لكتابة التاريخ بطريقة جديدة لم تكن معهودة آنذاك.

في مرجعية الإمام الحكيم

الواقع الشيعي والذهنية الشيعية هي ذهنية مرتبطة بالمرجعية، وتكاد تكون المرجعية الدينية هي السمة والخصوصية الأساسية التي تمتاز بها الطائفة عن بقية الطوائف والمذاهب، فإن المرجعية هي محور القيادة الدينية، وإليها يعود الناس في حياتهم العملية وشؤونهم.

العلاقة مع السيد المرجع الحكيم (رحمه الله) كانت علاقة وطيدة، بدأت مع السيد الجد ومنه انتقلت إلى السيد الوالد (رحمه الله)، وأوثقت عراها المصاهرات. فالسيد مهدي الحكيم نجل السيد محسن الحكيم تزوج بابنة عم السيد محمّد بحر العلوم، والسيد عبد الصاحب الحكيم نجل السيد الحكيم تزوج إبنة السيد محمّد بحر العلوم، فتعددت الأسباب والوشائج بين الأسرتين، وثبتت أركانها للاطمئنان الذي يبعثه ما كان يتمتع به السيد محمّد بحر العلوم من حس اجتماعي وعملي، مما أكسبه مكانة خاصة لدى السيد الحكيم بحيث غدا يعتبره كأحد أبنائه في مناقشاته ومداولاته. كان السيد الحكيم يسأله عن

رأيه في الأمور المختلفة، كما كان يستمع إلى آراء المحيطين به، أبناؤه وغير أبنائه من المقربين الذين يحيطون بعمله، وقد يتخذ قراره بناءً على رأي أحدهم، وهذا الأمر أعطى القوة للمستشار في إبداء رأيه لأنه علم أن السيد الحكيم يثمّن الآراء التي تعرض بين يديه. كان السيد محمّد بحر العلوم (رحمه الله) يتمتع بمنزلة خاصة في مرجعية السيد الحكيم، وكانت علاقته بأبناء السيد الحكيم مميزة لا سيما بالسيد محمّد باقر الحكيم والسيد مهدي الحكيم، فقد ارتبط بالعمل معهم في بداية الخمسينات عندما أرادوا إنشاء لجنة الإرشاد والتبليغ الديني، قبل ان يصبح السيد الحكيم مرجعا، هذه العلاقة جمعت هؤلاء السادة في مصير مشترك. كان السيد الحكيم يكلّف السيد بحر العلوم بالاجتماع مع المسؤولين وإيصال الرسائل وتنفيذ مهمات شتّى في بغداد. كان السيد مهدي الحكيم الممثل الأول لوالده والناطق باسمه أمام المسؤولين في بغداد حيث كان يقيم، ولهذا السبب، عندما وُجِّه الاتهام إلى السيد الحكيم بالجاسوسية في ذلك الوقت، لم يُوَجّه نفس الاتهام إلى السيد بحر العلوم، بل بمزاولة عمل سياسي ضد النظام، وصدر أمر بإلقاء القبض على الجميع، وتمكّن السيد الوالد بعد ذلك من مغادرة العراق إلى الكويت بعد وساطات عديدة، وخرجَ السيد مهدي الحكيم ابتداءً إلى السعودية ومن هناك إلى باكستان. أما السيد بحر العلوم، فإنه ذهب إلى بيروت بعد الكويت، وبعد ذلك استقر به المقام في طهران وقمّ لمدة من الزمن، وفي جامعة طهران أكمل رسالته في الماجستير. كان السيد الوالد قد بدأ بالعمل على هذه الرسالة في كلية أصول الدين في بغداد ومُنع من تقديم الرسالة بسبب الظرف السياسي. كان عنوان رسالته «الإجتهاد، أصوله وأحكامه» وقد ناقشها في طهران ونال بذلك درجة الماجستير من كلية الإلهيات التابعة لجامعتها. في نفس الفترة، كان له دور كبير في إصدار مجلّة «الهادي» باللغة العربية في قم، وكانت تصدر عن دار التبليغ الإسلامي، فلم يتخلَّ عن نشاطه التبليغي في إصدار هذه النشرة

العربية حيث كانت النشرة الأساسية بالفارسية،وكان يتولى تحرير العديد من مواضيعها طيلة فترة إقامته في طهران.

إنتقل السيد الوالد بعد ذلك إلى الكويت، وبقي فيها ما يقارب ثماني سنوات عمل فيها قاضياً في محكمة الأحوال الشخصية، وكان له دور مهم في تثبيت قضاء الاحوال الشخصية الجعفرية هناك بسبب اتصالاته مع العديد من رجالات الكويت آنذاك ممن توطدت علاقته بهم. بسبب قرب العراق من الكويت، واستمرار السيد في التواصل مع العراق، أصبح وجوده في الكويت معرضاً للخطر، فاضطر لمغادرتها إلى القاهرة في العام ١٩٧٩، وحاز هناك على شهادة الدكتوراه من دار العلوم، حيث كانت رسالته بعنوان «عيوب الإرادة في الشريعة الإسلامية». كانت رسالته عبارة عن بحث مقارن بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي، وهو من الأبحاث المعقّدة لأنه يتعرض إلى إرادة المتعاقدين في تحرير العقود وما يشوب هذه الإرادة من أمورٍ توجد عيوباً في هذه الإرادة كالغلطّ والتدليس والإكراه وغيرها، ويُعَدّ ذلك من المواضيع الهامة التي تُدَرَس في مراحل الماجستير والدكتوراه في كثير من الجامعات.

السيد بحر العلوم (رحمه الله) عندما هاجر من العراق حمل هم العراق، وظلت بلاده همَّه الكبير، فإنك إن استثنيت رسالتي الماجستير والدكتوراه، لا تجده كتب شيئاً عن غير العراق والدفاع عن الحوزة العلمية والمرجعية الدينية ونشر آهات العراق، فتكاد تكون كل كتاباته منذ نهاية السبعينات مروراً بالثمانينات والتسعينات مستغرقة بالهمّ العراقي. الندوات التي كان يحضرها، المؤتمرات التي كان يباحث فيها، الأبحاث التي ينشرها، والكثير من الأعمدة التي كان يكتبها للمنشورات الصادرة في أمريكا ولندن، القصص القصيرة التي كانت تُقَدَّم أحياناً بأسماء مستعارة، كانت تتحدث كلها عن العراق.

كان يقوم بكل الأعمال التي يحمل مسؤوليتها رجل الدين من تعليم الأحكام الشرعية وبيانها للمؤمنين في لندن وفي كل مكان حلّ فيه، وأما ما تبقّى،

فكانت كلها كتابات عن العراق والهم العراقي، وكيفية نقل معاناة الإنسان العراقي في الداخل إلى الخارج.

عندما وصل السيد محمّد بحر العلوم إلى لندن، لم يكن هناك شيء اسمه المأساة العراقية، لم يكن الناس هناك يعرفون شيئاً عن معاناة العراقيين من النظام الحاكم، وكان جُلّ ما يرونه نظام حكم لا يشعرون بدكتاتوريته، ولا يشعر المجتمع باستبداده. حمل السيد بحر العلوم على عاتقه مهمة تعريف عموم الناس في المجتمع الإنكليزي والمجتمعات الأوروبية بهذه المأساة، فتوالت المظاهرات والاعتصامات في مناسبات متعددة، مع المحافظة على اعتصام مستمر من أجل إبراز مأساة الإنسان العراقي ومن أجل إفهام الشعوب، لأن الشعوب إن هي استوعبت الفكرة، أمكنها حينئذٍ أن تشكّل قوة ضاغطة على حكامها، وهذه مسألة مهمة جداً. قد يتساءل الكثيرون عن أهمية المظاهرات والاعتصامات والندوات والمؤتمرات التي كانت تقام في أمريكا وفي لندن، وتناول مراكز الأبحاث المتعددة في أنحاء أوروبا للمشكلة العراقية، فبعض الناس لا ينظرون إليها على أنها فاعلة، ولكنها كذلك لأن هذه الأمور مؤثرة في الدول التي تحكمها الديمقراطية، ففي المجتمع الديمقراطي يؤثر المجتمع على الحاكم. من الصحيح أن الحاكم قد يستعمر ويفعل ما يشاء، لكن عندما تكون هناك توعية وتحسيس للآخرين بمدى ظلم النظام لشعبه واستبداده، فإن ذلك يولّد رأياً عاماً يضغط على الحكومات.

مسيرة عاشوراء

لذلك ما كانت مسيرة عاشوراء مسيرة مذهبية؛ هي تنطلق في اليوم العاشر من المحرم لتعبّر عن اللوعة والحزن باستشهاد الإمام الحسين(ع)، وفي نفس الوقت، كانت مركباً يحمل ظلامة العراقيين ويعلنها على الملأ. بهذا النَّفَس تحركت المسيرات وأُجريت الاعتصامات وطُبِعت الكتب. هكذا تعرّف العالم على ما فعله نظام صدام حسين الحاكم في العراق، في أهوار العراق التي جففها،

والنازحين والمهجرين الذين أنتجهم القمع والتدمير. تعرّف العالم أخيراً على هذه المعاناة، وتركزت عليها أنظار المنظمات الدولية ومنظمات حقوق الإنسان. إن ما جرى عام ٢٠٠٣ لم يكن وليد الساعة، ولم يكن عبارة عن لحظة أرادها الحكام لإزالة نظام صدام حسين وإنما كان وليد عمل دؤوب دام خمسة عشر عاماً قامت به المعارضة العراقية في أمريكا ولندن وفي أنحاء أوروبا وحتى في إيران وغيرها في سبيل نشر هذه الظلامة وإرغام مؤسسات الحقوق المدنية ومنظمات حقوق الإنسان على التعامل مع الإنسان العراقي المقهور وعلى نشر مأساته. ربما يجهل الكثيرون مقدار الجهد الذي بذلته المعارضة العراقية، وهذا أمر محزن، وإنك تجد شعوباً كاملة يهملها العالم ولا يعلم عنها إلا القليل، لأنها لا تملك من ينشر معاناتها ولا يوجد لها صدى. تركزت المعارضة العراقية في لندن، وكان محورها السيد محمّد بحر العلوم، الذي كان يتمتع بعلاقة طيبة مع كل أطراف المعارضة، فأسس في لندن مركز «أهل البيت الإسلامي» مع رفيق دربه السيد مهدي الحكيم (رحمه الله)، وتحول هذا المركز إلى مقر للمعارضة العراقية، وكان جميع الفرقاء يقيمون فيه ندواتهم: الشيوعيون والقوميون والأكراد والسنّة، فضلًا عن الشيعة. قلّما وُجِدت شخصية تمكنت من جمع الطيف العراقي برمّته في الندوات والاجتماعات التنسيقية، في محاولة لرصّ الصفوف وتوحيد الخطّ والأهداف. أخذ السيد محمّد بحر العلوم على نفسه عهداً بأن لا يكتب إلا عن العراق ومعاناة العراقيين، ومن ذاك كتاب له باسم «الأوراق السياسية»، هو عبارة عن مجموعة من المحاضرات والمقابلات الصحفية والبيانات التي نشرها. وكان كتابه الثاني بعنوان «النجف والمرجعية الدينية» الذي يشرح معاناة الحوزة العلمية ويفضح كيف خطّط النظام الحاكم للقضاء على الحوزة العلمية والمرجعية الدينية في النجف الأشرف. لقد تصدّت المرجعية الدينية على مرّ الزمان لكل أفعال الظلم التي تقترفها أنظمة الحكم المختلفة مهما كانت. أرسل عبد الكريم قاسم، خلال فترة حكمه، قائد الجيش العراقي لغزو الكويت، فبعث السيد الحكيم (رحمه الله) إليه رسالة حملها

السيد الوالد منذراً له بحرمة هذا العمل. وقفت المرجعية الدينية أيضاً ضد الحروب التي افتعلها النظام ضد إيران والكويت وضد ما اقترفه بحق الأكراد، فكان السيد الوالد قد حمل رسالة السيد الحكيم إلى مصطفى البرزاني عندما أرسل ممثله إلى بغداد، وكان مفاد الرسالة أنّ قتال الأكراد حرام. هذه المواقف كلها، عندما تُنقَلُ من داخل المؤسسة الدينية ليتعرف الملأ عليها، فإنها حينئذٍ تصبح شهادة، لذلك كانت كتاباته وبحوثه حول المرجعية الدينية وتاريخها، وتاريخ مراجع الدين لا سيما المتأخرين منهم أمثال السيد الحكيم، والسيد الصدر والسيد الخوئي - رحمة الله عليهم - وحقيقة ما فعلوه. هناك أجيال نشأت في الخارج لا تعرف هؤلاء، ولا تعرف ماذا فعلوا، فآلى السيد الوالد على نفسه بأن يبدد جهل الناس بمراجعهم وبحوزتهم الدينية، كجزء من نقل صورة المعاناة والعذاب الذي يتجرعه العراقيون.

قلب مرهف وصبر كالجبل

كان السيد رحمة الله عليه يملك قلباً مرهفاً وعاطفة صادقة لأبنائه وأحفاده وأسباطه.. ابن أختي السيد جعفر الحكيم، قال في الكلمة التأبينية التي ألقاها في ذكرى أربعينة السيد الوالد أن سماحة السيد محمّد بحر العلوم قد حوّلنا من أسباط إلى أبناء، كانت عاطفته دائماً جياشة وقوية، وهذه العاطفة هي التي جعلت الجميع يحسون بأنه أب وصديق. كثير ممن لا ينتمون إلى الخطّ الإسلامي يزورونه في المنزل ويشعرون بأنه أبٌ لهم، وقد حزنوا على فراقه لا فقط كسياسي، وإنما كإنسان تربطهم به علاقة محبة وصداقة. كانت عاطفته قوية للغاية وتظهر بجلاء في الكثير من المواضع. عندما كان يتجول في بعض الحدائق في أوروبا، تجده ينظم القصائد الحزينة في ذكر العراق والتأوه للعراق وفراق العراق، لم يكن يوجد مكان تمكّن من أن ينسيه العراق وأهله، مهما بلغ من لطافة الجو وجمال المنظر.

الحوادث التي جرت في العراق سلبته أقرب الناس إليه. سلبته ابنته التي

استشهدت في الانتفاضة الشعبانية؛ صهره آية الله السيد عبد الصاحب الحكيم؛ إخوانه من آل الحكيم الذين استشهدوا عام ١٩٨٤ عندما أعدمهم نظام صدام حسين؛ السيد مهدي الحكيم الذي اغتيل في السودان؛ أخويه وأفراد العائلة وأسباطه وأولاد عمومته؛ عشرون شخصاً فيهم الكبار والصغار استشهدوا في الانتفاضة الشعبانية، كل هذا كان يتجلى في شعره، لذلك تجد في شعره الفراق والحنين والوجع والحزن الدائم على هؤلاء،وفي نفس الوقت، تجده في مواضع أخرى صاحب قوة وإقدام وكأنه لم يُصَب بحدث، فنفس الإنسان الذي يحمل هذا الحس المرهف الشاعري والقلب الذي ينفعل لإدراك أصغر الآلام الإنسانية، كان راسخاً وثابتاً وصلباً في مواقفه بمواجهة النظام والأحداث.حسه المرهف وآلامه يصبّها في ديوانه الشعري «حصاد الغربة»، وكذلك في القصص القصيرة التي كان يكتبها في الجرائد والصحف آنذاك، فإنك تجد فيها ملامح من هذه الآهات، وفيها تعبيرات لم يكن يستطيع أن يبوح بها في كتاباته عن نفسه فكان يمنحها أسماءً مستعارة. عاطفته هذه كانت تجذبنا وتجذب القريب والبعيد إليه وتربطنا به مدة عمرنا وعمره، ولم يتغير الأمر عندما تقدم في السن. كان يحب العراق حباً صادقاً، ويحب النجف حباً صادقاً، وأحبّ العراقيين من صميم قلبه. في بعض الأحيان، لا أتمكن من قياس هذا الحب ومعرفة حجمه وأبعاده، والآن أتعجب كيف يمكن لإنسان أن يحب أناساً بهذا العمق وهذه الشدة ويحن إليهم وهم غرباء، لا لشي سوى أنهم أبناء بلاده. كل ساعات وكل دقائق النجف كانت تعيش في وجدانه؛ كل عكد (زقاق) وكل بيت، بقي كل شيء في ذاكرته. كان مرتبطاً بأهل العراق وكأنه يعيشهم، لهذا السبب تعلّق به الجميع، وما زلت ألتقي بكثير من الناس الذين لا أعرفهم، يعبّرون عن حبّهم للمرحوم الوالد ويصفون كيف أنهم وجدوا فيه صورة قلّ ما يجدونها في إنسان.

رسالة العلمين

أنا أعتقد أن هذا المعهد هو تحقيق لحلم الشيخ المظفّر، فقد أسّس الشيخ المظفّر كلّية الفقه في النجف الأشرف في وقتٍ لم تعرف النجف فيه الكلّيات والمعاهد الأكاديمية. وجاء السيد بحر العلوم بعد خمسين سنة لكي يتمم هذه الخطوة بالدراسات العليا. الغرض الذي أراده الشيخ المظفّر هو نفسه الذي أراده السيد بحر العلوم مع اختلافٍ في الإخراج: المزاوجة بين التراث القديم الذي هو المنبع ومنه الأصالة، مع المناهج الجديدة والآليات الجديدة في التعليم، والحقوق الأكاديمية كانت هي الهدف العام في كلية الفقه التي أنشأها الشيخ المظفر، وفي معهد الدراسات العليا.

وجد السيد بحر العلوم أن معهد الدراسات العليا فيه عوز في القدرات السياسية ووجد أن الحالة السياسية تحتاج إلى كوادر مدربة بشكل علمي، فإنّ الذين عملوا بالسياسة من الإسلاميين لم يخبروا السياسية بالنحو العلمي وإنما خبروها عن طريق التجربة، ودخلوا المعترك السياسي من خلال المناصب التي شغلوها في المعارضة، فقَلّ ما نجد منهم سياسياً قد تدرّج علمياً، وهذا هوالواقع. أراد بحر العلوم من هذا المعهد أن يخرّج بنحو سريع، أفراداً يدرسون السياسة والقانون بوصفهما علمين ضروريين لمن يتصدى للشأن العام، ويتقلدون مسؤولياتهم على أثر ذلك متسلحين بعلمهم واختصاصهم. أراد السيد بحر العلوم من تأسيسه لمعهد الدراسات العليا أن يوصل رسالة. مفاد هذه الرسالة أنّ تراثنا الإسلاميّ هو منبع نهضتنا الجديدة التي تواكب التطور، وأنّه لا بد لتحقيق ذلك من تبنّي المناهج الأكاديمية كقناة لتمرير العلم الحديث إلى الدارسين، وأنّ ذلك ممكن هنا، في مدينة النجف الأشرف، في جوار أمير المؤمنين عليه السلام.

شيء عن المعهد

معهد العَلَمَين للدراسات العليا: نشأت فكرته عندما قرر السيد بحر العلوم

الإقامة في النجف الأشرف بعد عودته من الغربة، وذلك بعد أن تشكّلت الحكومة الأولى في بغداد، فعزم على صبّ جهده في تشييد صرح علمي تأسيسي، فكان ذاك معهد العَلَمَين.

العَلَمان اللذان يشير إليهما اسم المعهد هما الشيخ الطوسي (رحمه الله) مؤسس الحوزة العلمية في النجف الأشرف، والسيد بحر العلوم الذي كان له الفضل في تجديدها. هذا المعهد يحمل التراث الإسلامي الأصيل الذي يرسم المعالم الحقيقية والثابتة لعلوم السياسة والقانون، المستخلصة من الثقلين: كتاب الله وسِيَر الرسول الأعظم (ص) والأئمة المعصومين(ع)، وفيهما كل ما يحتاجه قادة المسلمين لإنشاء دولة حديثة صالحة. وبالفعل، بدأ العمل الجاد على هذا المعهد منذ العام ٢٠٠٧، فتم إنشاء قسم واحد وهو قسم العلوم السياسية بسبب عدم موافقة وزارة التعليم العالي على الاعتراف بالمعهد. أُبرِمَت اتفاقية تعاون مع الجامعة الإسلامية في لبنان التي يرأسها الدكتور حسن الشلبي، وهي تابعة للمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان، نصّت على مصادقة الجامعة على الشهادات التي يمنحها معهد الدراسات العليا لطلابه، فتكون الجامعة رسمياً هي الجهة التي تمنح هؤلاء الطلاب شهاداتهم. بعدفترة من انطلاق العمل بالمعهد تم افتتاح قسم القانون، وفي سنة ٢٠٠٧ بدأ العمل على بناء هذا المبنى، وانتقل التدريس إليه منذ سنة تقريباً. اليوم، أصبح معهد العَلَمَين كياناً علمياً نال اعتراف وزارة التعليم العالي والبحث العلمي بعدما أجاز مجلس الوزراء تأسيس هذا المعهد وصدرت موافقة وزارة التعليم العالي والبحث العلمي بهذا الشأن، وهو المعهد الوحيد في العراق الذي اعترف به كمعهدٍ عالٍ للدراسات العليا.

جولة في مؤسسة بحر العلوم

مؤسسة بحر العلوم الخيرية

مؤسسة بحر العلوم الخيرية، وهي المؤسسة الأم، وتتبع لها خمس مؤسسات أخرى هي: مؤسسة المنار للرعاية الصحية، معهد العَلَمَين، مكتبة العَلَمَين، جامعة العَلَمَين، ومركز النجف للثقافة والبحوث. عند الدخول إلى مبنى المؤسسة، تجد أولًا معرضين للكتاب، المعرض الأول يتضمن مكتبة آل بحر العلوم ومؤلفاتهم، بينما يضمّ الثاني كتباً لمؤلفين آخرين. في جهة أخرى من المبنى، تجد رسائل جامعية، بعضها تابع لمركز النجف للثقافة والبحوث، أو لمعهد الدراسات والبحوث الجامعية خارج نطاق المعهد.

مكتبة العلمين العامة

الجزء الأخير من مؤسسة بحر العلوم الخيرية يضمّ مكتبة العَلَمَين العامة، وهي تشغل طابقاً بكامله، ونواتها جزء من المكتبة الشخصية للسيد بحر العلوم الذي قدمها عند التأسيس، ثم أُضيف إليها المزيد لاحقاً. تملك المكتبة رصيداً مالياً مخصصاً لشراء الكتب الحديثة في السياسة والفكر والقانون، كما نحصل على بعض المكتبات الشخصية أو بعض الكتب عن طريق التبرعات. لقد تجاوز عدد العناوين التي تحويها المكتبة السبعين ألفاً.

بالإضافة إلى ذلك توجد مكتبة إلكترونية في المعهد تجاوزت عناوينها المئة ألف. تم نقل المكتبة إلى هذا المبنى الجديد منذ فترة وجيزة، ونحن الآن في مرحلة الفهرسة وإعداد المكتبة والكتب وترتيبها. المكتبة مفتوحة لطلبة

معهد العَلَمَين وسائر الباحثين الذين يقصدونها. نظام المكتبة يسمح بالاستعارة الداخلية بشكل حصري، فلا يوجد نظام للاستعارة الخارجية حتى الآن.

تفتح المكتبة أبوابها منذ الساعة الثامنة صباحاً وحتى الثامنة ليلًا. مكتبة العَلَمَين ليست خاصة بطلاب معهد العَلَمَين، وإنما هي مفتوحة للباحثين. في الوقت الحالي، تستقبل المكتبة طلاب معهد العَلَمَين فقط لكونها غير جاهزة بشكل كامل من جهة الفهرسة الإلكترونية أو اليدوية ولأن المبنى المخصص لها ليس مجهزاً بشكل تام.

نظام الفهرسة

يتمّ العمل على نظام فهرسة الكتب والمخطوطات بحسب نظامين؛ نظام الـ PP الإسلامي الذي يختص بالسيرة والعلماء والفقهاء والفقه والأصول، والنظام الثاني خاص بالعلوم السياسية والقانون. وبما أن المعهد يدَرّس القانون والعلوم السياسية، قررنا أن تكون فهرسة الكتب التابعة لهذين الاختصاصين مماثلة لتلك التي تعتمدها مكتبة الكونغرس في الولايات المتحدة، وقد بدأنا بالعمل على هذا النظام. وهو نفس النظام المستخدم في فهرسة مكتبة الكونغرس الأمريكي، وهو يعطي نتائج دقيقة ومفصلة، فإنك عندما تبحث عن عنوان، يزوّدك نظام الفهرسة بلمحة عن الكتاب وعن موضوعه وما يتناوله، وهذا مهم لأي باحث.

معهد العلمين للدراسات العليا نفحة من نفحات بحر العلوم

معهد العلمين للدراسات العليا عبارة مكتوبة فوق يافطة تعلو مبنى مكون من ثلاث طوابق تعطي هيبة للمكان الشامخ الذي يستقبلك عند مشارف المدينة المقدسة.

يضم المبنى بطوابقه الخمسة بين جوانحه قاعات صفوف أول معهد اهلي للدراسات العليا في مدينة العلم والتقوى مدينة النجف الأشرف.

اليافطة المرمرية التي تتصدر البناية تحكي قصة كفاح وحلم لسيد جليل ابتدات قصته برضاعة العلم في أسرة اشتق لقبها من اسم العلم، لم يفطم السيد بحر العلوم عن رضاعة العلم حتى في موته فانتهى إلى ضريح عند عتبات هذا الصرح العلمي بوصية منه هو الذي شيده وبذر بذرته الأولى، وهو تجربة رائدة في التعليم الاهلي لم تشهدها مدينة النجف من قبل.

صاحبها وزارع بذرتها الأولى السيد محمد بحر العلوم الذي خبر الريادات الأولى وشغف بالتاسيسات الالمعية بوفاء التلميذ النجيب لمعلمه الأول محمد رضا المظفر ظهر ذلك الصرح إلى الوجود.

الفكرة هي امتداد لخطوة منتدى النشر التي خطاها المعلم الاصلاحي محمد رضا المظفر والذي تحول إلى كلية الفقه ١٩٥٩ هو الحلم الذي لم يبلغه أستاذه بسبب قدر الموت وضغط المحافظين على طموحاته ومشاريعه التجديدية.

نقلة مفصلية

كما كان مشروع المظفر الثقافي والمعرفي هو نقلة مفصلية في تاريخ الحوزة النجفية والتشيع عبر صناعة حلقة وصل ما بين عالم التراث والماضي المشرق وبين العالم الجديد بمنهجياته وتحولاته وعلومه الحديثة.

كان هدف السيد محمد بحر العلوم وهو الطالب النجيب في مدرسة المظفر هو ان يكون معهده تلك الحلقة الموصولة بين تراثنا الإسلامي العتيد الذي تشربت منه مدارسنا الإسلامية في عالمنا العربي ومنها مدرسة النجف الأشرف وطرح الفكر الإسلامي المعتدل الهادف بالنهاية.

كانت الفكرة تداعب مخيلة صاحبها وتراوده في احلامه حتى أصبحت واضحة واهدافها محددة فتكون البداية ملأ الفراغ لحاجة العراق لكوادر علمية في مجالات العلوم السياسية والقانون والاقتصاد هذا كان الهدف الأول لانشاء المعهد.

نهار الافتتاح

كان يوم التاسع من شباط من ٢٠٠٨ يوما مشرقا بشمس السعادة ونور العلم ليس في حياة السيد محمد بحر العلوم بل في حياة النجف كلها التي شهدت وضع الحجر الأساس لأول معهد اهلي للدراسات العليا، وتشرفت النجف والمعهد الجديد بقدوم رئيس الجمهورية مام جلال ليضع بنفسه حجر الأساس والذي كان سعيدا بحضور جمع كبير من العلماء الاعلام ووجهاء النجف والاساتذة والمسؤولين الذين شاركوا غبطته بافتتاح هذا الصرح في مكانه القديم.

وفي مطلع العام الدراسي ٢٠١٣ - ٢٠١٤ وسط حفل بهيج وحضور اكاديمي وعلمائي كبير تم افتتاح مبنى المعهد الجديد في موضعه الحالي والمشيد على مساحة ٣٢٠٠ متر مربع بواقع خمس طوابق وقد اشرف على تنفيذه الراحل العلّامة الدكتور محمد علي الشهرستاني وقد روعي في تصميمه المعماري ان يعكس الفكرة التي انشأ الصرح من اجلها وهو مزج الاصالة المعمارية بفنونها الحداثوية، وفي شتاء ٢٠١٣ وفي ذكرى عيد الغدير تحديدا تم افتتاح بناية المعهد الجديدة لتكون استضافة ضيوف مهرجان الغدير العالمي من العالمين العربي والإسلامي الذي اقامته العتبة العلوية في مهرجان شعري أولى الفعاليات التي شهدتها قاعة المهرجانات في المعهد.

فرع من مؤسسة خيرية

المعهد هو فرع واحد من فروع مؤسسة بحر العلوم الخيرية الخمسة، التي أصبح الطابق الأول من بناية المعهد العلمين مقرا لادارتها.

ضمت بناية معهد العلمين العديد من القاعات ذات السعات المختلفة، اما القاعة الرئيسية التي تقع في الطابق الارضي وتسع ٣٠٠ شخص فقد سميت بقاعة الشيخ الطوسي والقاعة الرئيسية الثانية في الطابق الأول وتسع ٢٠٠ شخص سميت بقاعة السيد بحر العلوم الكبير.

الطابق الأول فقد تم تخصيصه بالكامل لمعهد العلمين للدراسات العليا حيث ضم مكاتب العمادة والادارة والتسجيل اضافة للقاعات الدراسية ذات سعات تتراوح من ١٥ - ٥٠ طالب وطالبة وتشمل هذه القاعات صفوف المرحلتين لدراسات الماجستير والدكتوراه.

مكتبة المعهد

لا يحتاج طلاب معهد العلمين كثيرا إلى مشاوير خارج مبنى المعهد للبحث عن مصادرهم العلمية والبحثية فقد خصص الطابق الثاني من مبنى المعهد لمكتبة العلمين العامة وتصل سعتها إلى ٢٥٠ الف عنوان كانت بذرتها الأولى مكتبة السيد محمد بحر العلوم التي تبرع بها إلى المعهد ثم نمت وتطورت حتى أصبحت تغني الباحثين من الطلبة في مراجعها ومصادرها، المكتبة تستقبل اسبوعيا مستجدات سوق الكتاب ومبيعاته لاسيما فيما يتعلق بعلوم السياسة والقانون محوراً دراسة معهد العلمين.

تنوي إدارة المكتبة تصنيف كتبها بطريق مكتبة الكونغرس الامريكية التي تعتمد التفاصيل الصغيرة فيما يحتاجه الباحث من الكتاب المقصود.

اعتراف التعليم العالي

بعد أيام من الاحتفال بالمبنى الجديد للمعهد وفي حزيران من عام ٢٠١٣، أصدر مجلس الوزراء العراقي أمره بمنح المعهد إجازة التاسيس وأقرت وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في شباط ٢٠١٤ باستكمال متطلبات التاسيس بدءاً من مطلع عامي ٢٠١٣ /٢٠١٤ بقسميه المعروفين (القانون والسياسة).

وصرح وزير التعليم العالي والبحث العلمي الدكتور علي الأديب في حينها بأن منح إجازة تاسيس لمعهد العلمين للدراسات العليا جاءت نتيجة الجهود المبذولة من قبل المؤسسين للمعهد والعاملين فيه والتي اعطته الاستحقاق في منحه إجازة تاسيس بموافقة مجلس الوزراء.

المعهد اليوم

ينتظم اليوم العشرات من الطلبة المتقدمين للتسجيل على الحصول على درجة الماجستير في دراسات القانون بفروعه المختلفة (القانون العام،القانون الخاص، القانون الجنائي، القانون الدولي وحقوق الإنسان) وفي قسم العلوم السياسية بفرعيه (النظم والفكر وقسم الدراسات الدولية)، ومنذ بدايات العام الماضي شهد المعهد افتتاح قسم الدكتوراه في القانون العام والخاص والعلوم السياسية.

إصدارات وأطاريح

يصدر المعهد مجلة تحمل اسم المعهد وهي فصلية كما يصدر المعهد دليلا يتضمن الوثائق الرسمية بإجازة المعهد والاعتراف الرسمي لوزارة التعليم العالي والبحث العلمي بشهادات تخرجه في الماجستير والدكتوراه كما يتضمن الهيكلة العامة للجهاز الاداري والعلمي والفني للمعهد ومدة الدراسة فيه وطبيعتها.

وخلال فترة وجيزة رفد المعهد الوسط العلمي والمهني بعشرات رسائل الماجستير التي عززت الفهم الجديد لبيئة التوازن والتسامح والفكر العقلاني وهي الاهداف النهائية التي ارادها صانع هذا المشروع وباني لبنته الأولى الراحل سماحة العلّامة الدكتور محمد بحر العلوم الذي رقد بجوار المعهد صاغيا لكلمات طلابه واساتذته مستمتعا برضا روحه واطمئنان نفسي باداء الرسالة وتحقيق الاحلام المشروعة...

عند خروجك تُحيِّي ضريحه وتقول سلاماً لك يا رضيع العلم والجهاد بدات من منتدى النشر وانتهيت في ثرى صرحك الشامخ معهد العلمين للدراسات العليا.

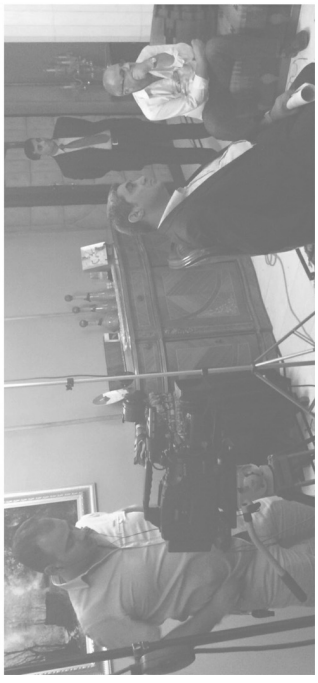

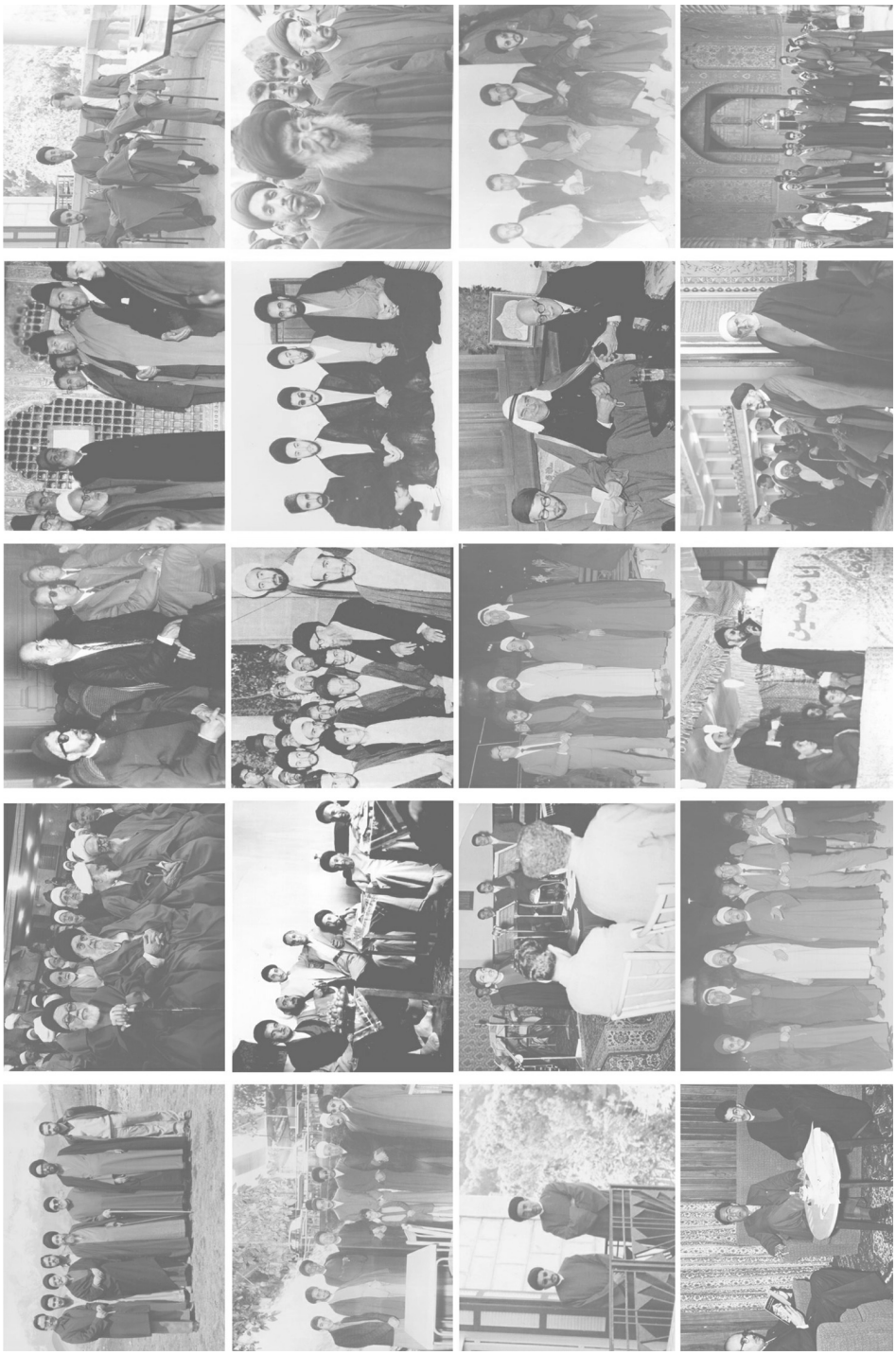

(AP PHOTO)
مجلس الحكم
المؤتمر الوطني العراقي

يقيم معهد العلمين للدراسات العليا
ندوة بعنوان
(الدبلوماسية العراقية جانوب افريقيا الموجزا)
بستضيف فيها سعادة السفير هشام العلوي
سفير جمهورية العراق في جنوب افريقيا
المكان : قاعة الشيخ المفيد
الزمان : يوم السبت الم
٢٠١٥م
معهد العلمين للدراسات العليا
ندوة بعنوان
(ردم عش سنوات على صدور المسئول العر
المكان : قاعة الشيخ المفيد
الزمان : يوم السبت الم
٢٠١٥م
يقيم مركز المحمد للثقافة والتراث ندوة فكرية بعنوان
الخلافي الاجتماعيات الدينية والتنمية وأثرها على مستقبل الانسانية
المكان : قاعة الشيخ المفيد
الزمان : يوم السبت الم
٢٠١٥م

محتويات الكتاب

مقدمة: رحلة في فيلم وثائقي ـ بقلم توفيق التميمي ٧

شهادة سماحة السيد حسين الصّدر ٢١

شهادة سماحة السيد محمد حسن الأمين ٣٥

شهادة سماحة السيد حسين بركة الشامي ٤٥

شهادة الدكتور الأستاذ عبد الأمير زاهد ٦١

شهادة الباحث حسين درويش العادلي ٧١

شهادة الدكتور السيد عادل عبد المهدي ٧٧

شهادة الدكتور أحمد الجلبي ٩١

شهادة الدكتور عبد اللطيف رشيد ١١٩

شهادة الأستاذ حميد مجيد موسى ١٢٥

شهادة النائبة ميسون الدملوجي ١٣١

شهادة أنجال الفقيد الكبير ١٣٩

شهادة الدكتور إبراهيم بحر العلوم ١٤١

شهادة السفير محمد حسين بحر العلوم ١٦٥

شهادة سماحة السيد محمد علي بحر العلوم ١٩٧

جولة في مؤسسة بحر العلوم ٢١٣